سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

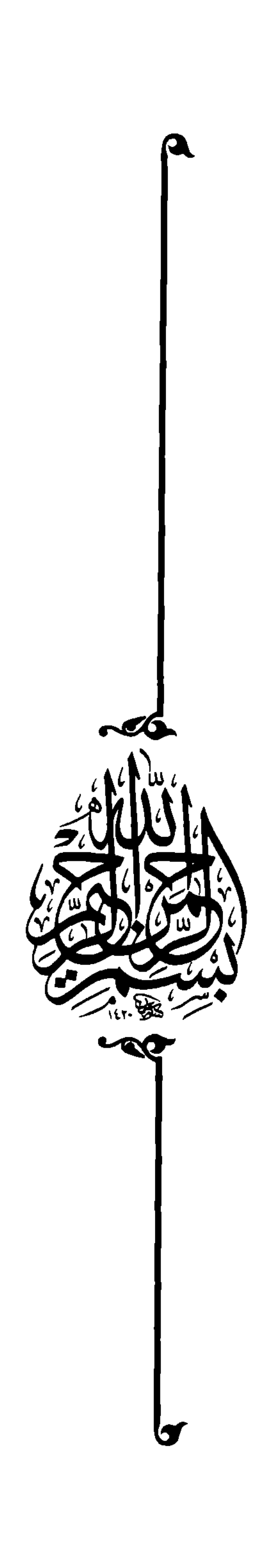
السيد محمد تقي المدرسي

بينات من فقه القرآن

دراسةٌ قرآنيةٌ تعتمد استنباط السُّنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

سُورة يس




بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠



الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

هوية الكتاب

* **الكتاب:** بينات من فقه القرآن، دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم (سورة يس).
* **المؤلف:** المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
* **الطبعة:** الأولى، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م. (٣٤٨ صفحة).
* **تحقيق:** مركز العصر للثقافة والنشر - بيروت.
* **الناشر:** دار المحجة البيضاء.





الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي



دراسةٌ قرآنيةٌ تعتمد استنباط السُّنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

(سورة يس)

دار المحجة البيضاء

﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١)

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)

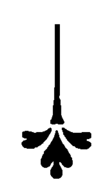
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

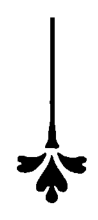
اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ(٦)

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧)﴾



المحتويات



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ.

أي قلب يستوعب قلب القرآن المجيد، أَوَلَيس قلباً خاشعاً وواسعاً ومنيباً؟.

بلى؛ إنها سورة (يس) قلب القرآن المجيد، وقد وفَّقنا الله قبل أكثر من عقد من الزمان أن نتدبر فيها وثلة من العلماء في طهران، حيث كانت ليالي شهر رمضان تُحيا بالتفكر في آيات الكتاب. ثم حُرِّر وطُبع باللغة الفارسية، ثم بعد الترجمة راجعته وحدثته من جديد، وها هو نُقدِّمه للقارئ الكريم دون أن ندَّعي أننا أحطنا به خبراً.

كلَّا، إنه القرآن -كما المسك- كلَّما قلَّبته تضوَّع.

وهكذا ينبغي لمن يقرأ تأملات الآخرين في القرآن وما يُسطِّرونه من أفكار يعتقدون أنهم استلهموها من كتاب ربهم، ينبغي له أن يتأمَّل

في كلماتهم مليًّا ليعرف مدى تطابقها مع ما يستلهمه عند التدبر في الآيات الكريمة ذاتها.

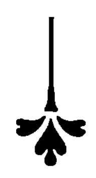
وقد يقول البعض: إنني لست في مستوى فهم كتاب الله. ونقول له: بلى؛ عليك أن تجتهد حتى تتدبَّر في آيات الكتاب، ولا يُعذر أحد أن يترك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1]، تحت طائلة التبرير بأني لا أفهم.

كلَّا؛ حاول ثم حاول حتى تتساقط أقفال قلبك إن هي منعتك عن فقه القرآن. علينا أن نستطيل حتى نستشرف على آفاق كتاب الله ونفهم بعضاً من معانيها، والله سبحانه هو المستعان.

محمد تقي المدرسي

٢٣/ محرم/ ١٤٣٤هـ

(١) سورة محمد، آية ٢٤.



حروف ذات دلالات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يس ①﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث: «وَأَمَّا ﴿يس﴾ فَاسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، وَمَعْنَاهُ: يَا أَيُّهَا السَّامِعُ لِلْوَحْيِ»[1].

وقال عليه السلام أيضاً: «﴿يس﴾ اسْمُ رَسُوْلِ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَالدَّلِيْلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»[2].

(١) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص٢٢.
(٢) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٢١١.

تفصيل القول

لقد وردت في بدايات بعض السور القرآنية حروف مقطعة تبدو أنها لا علاقة لبعضها ببعض بالطريقة التي ترتبط حروف سائر الكلمات ببعضها، فهي حروف منفصلة عن بعضها، ويُقرأ كل حرف باسمه، ولهذا سمّيت بالحروف المقطَّعة، مثل: الم، طه، يس، كهيعص، و..

وإذا لاحظنا الحروف المقطَّعة، وجدناها أربعة عشر حرفاً، وهي نصف حروف الهجاء، والملاحظ أن من بين الحروف الواردة حرف (ع) دون حرف (غ)، وكذلك حرف (س) دون حرف (ش) وحرف (ص) دون حرف (ض) وحرف (ر) دون حرف (ز).

كما أنه ورد في بعض السور حرف واحد من الحروف المقطَّعة، بينما وردت على شكل حرفين وثلاثة وأربعة وخمسة في بعض السور الأخرى. كما أن الحروف المقطعة في الحقيقة لها -مثل الاصطلاحات اللغوية ذات المعنى- حالات مختلفة خاصة بها.

ولعلماء علم الحروف رأيهم الخاص في الحروف القرآنية المقطعة، والمتخصصون بها أدرى من غيرهم، لأنها تتصل ببعض الجوانب المتصلة بالعلوم الغريبة. بلى؛ إن في الحروف المقطعة في القرآن الكريم جانباً إعجازيًّا يتناسب وسائر المعاجز القرآنية.

آراء حول الحروف المقطعة

هناك آراء متعددة حول الحروف المقطعة:

١- إن هذه الحروف رموز بين الله تعالى وأوليائه؛ أي إن النبي

والأئمة عليهم السلام، هم الذين يفهمونها على حقيقتها.

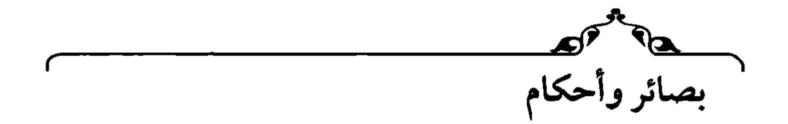
٢- إن هذه الحروف إشارة إلى الأساس القرآني؛ بمعنى أن هذه الحروف المقطعة تؤكد للبشر كون القرآن مشكّل من هذه الحروف البسيطة التي يستفاد منها خلال التحدث والتحاور، ولكن الله تبارك وتعالى قد ساق هذه الأحرف مساقاً صنع بها معجزة غير قابلة للمجاراة.

٣- إن هذه الحروف تشبه حروف التنبيه، إذ يُراد منها إلفات الأنظار، كما يُخرج المتكلم بعض الأصوات من فيه لتنبيه المستمع ثم ليُتْبعه بالإفصاح عمَّا يُريد إبلاغه والتحدث به، كما لو أراد شخص إعلام غيره بوجوده أو مجيئه، فإنه قد يطرق الباب، أو يقول: يا ألله. فهو بقوله: يا ألله، لا يقصد مخاطبة الله أو دعاءه، بقدر ما هو قد أحدث صوتاً لينتبه الآخرون، مع أنه يمكن أن تكون هذه الكلمة ذِكْراً من الأذكار.

وهذه قريبة من حروف النداء التي تحقق هذه المهمة. فمن أراد مناداة شخص آخر، فتح فمه، ونطق بلفظة قصيرة تسمى حرف النداء، مثل: يا. وتارة ينطق بحرف واحد، مثل الهمزة (آ)، ليلفت انتباه الشخص المخاطب، ثم ليُدلي له بما يُريد من الكلام.

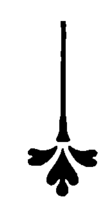
٤- إن هذه الحروف يُراد منها الإشارة إلى أشخاص معينين، كما هو الأمر في مطلع هذه السورة، حيث روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «﴿يسٓ﴾ **اسْمُ رَسُوْلِ الله** صلى الله عليه وآله»[1].

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٢١١.



بصائر وأحكام

إن للحروف المقطعة مهمة التنبيه، كما إن فيها إشارات إلى معاني خاصة بالمقربين، كما إنها تدل على إعجاز القرآن حيث إن ربَّنا أَلَّف من هذه الحروف البسيطة كتاباً لا يُجارى ولا يُدانى، وإن هناك أسراراً أخرى للراسخين في العلم.



قسماً بالقرآن

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

* * *

تفصيل القول

أقسم الله عز وجل في مواقع عديدة من القرآن الحكيم بحقائق شتّى، مما آثار عدة تساؤلات أبرزها: لماذا أقسم ربُّنا؟.

وهنا نتساءل: لماذا يُقسم الناس بشيء أساساً؟.

معروف بين عامة الناس قولهم: قسماً برأسك، أقسم بحياتك، وحقِّك، قسماً بالله العظيم وبالمقدسات جميعاً.

وبالرغم من أن بعض هذا القَسَم غير صحيح، ولكن الناس يستعملونه على أية حال. ومن الجدير أن نتساءل: ما هي حقيقة القسم؟.

القسم هو عقد الصلة بين أمرٍ مقدّس أو قَيِّم لدى الحالف وشيء آخر يُراد الاهتمام به، والهدف منه تأكيد الخطاب.

فلو قال شخص: قسماً بولدي، فهو يعني أنه يحب ولده وله قيمة كبيرة عنده، وأنه يربط بين قيمة ولده وما يحلف عليه. وهكذا فإنه يعني أنه لو كذب، فلا قيمة لولده لديه.

تأمُّل في القسم الإلهي

السؤال هو: هل الكتاب (وهو كتاب الرَّبِّ سبحانه) بحاجة إلى تأكيد حديثه بواسطة القسم؟ وهل أن لغير الله عز وجل ولما يرتبط بالله قيمة تُذكر؟. أَوَلَيست جميع المقدسات تكتسب قدسيتها من صلتها بالله العظيم تعالى ذكره؟. وكيف تثبت قيمة وقدسية كلام الله تبارك وتعالى بواسطة أمر آخر؟.

لهذا السؤال بشعبه ثلاثة أجوبة:

١ -إن مخاطَبي القرآن هم البشر، وقد نزل القرآن بلسانهم، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾(١).

فالقرآن كلام ورد بلساننا وجاء ضمن قوالب المصطلحات البشرية، ولو أنه لم يكن كذلك لما وعيناه.

وعلى هذا، فإن القرآن الذي نفهمه قد نزل بلساننا، وإذ ذاك ينبغي أن يكون ضمن قواعد كلامنا وأصول اللغة التي نتحاور بها. وإن أحد أبعاد اللغة هو القسم، كما إن هناك وسائل أخرى لتأكيد

(١) سورة مريم، آية ٩٧.

الخطاب تُستعمل في القرآن.

ولكم أن تقولوا: إن الله تعالى غني عن تأكيد خطابه. وهذا صحيح، ولكن الأمر المهم أن من يخاطبهم الله عز وجل -وهم نحن البشر- بحاجة إلى التأكيد، إذ إنني أنا الإنسان بحاجة لأن يخاطبني الله بصيغة أفهمها وأصدّقها.

٢-إن قسم الله عز وجل ليس ليضفي عليه قيمة وقداسة وتأكيداً، وإنما لنعي بأن ما أقسم به الخالق العظيم له قيمة. فإذا قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾(١)، فلكي نعرف أن الشمس ذات قيمة، وإذا أقسم بالنبي أو ما يرتبط به أو بحياته ﷺ فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾(٢)، أو قال: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾(٣)، وذلك لأهمية النبي وحرمته عند ربّه المتعال.

وحينما يقول الله العزيز: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، فإنه يعني كون القرآن مهمًّا جدًّا.

٣-ثم إن ما أقسم به، شاهد على ما تم القسم لأجله. فمثلاً إذا قال عز وجل: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾(٤)، فيعني أن الشاهد على كون الإنسان في خسارة.. هو العصر، وهو الزمان؛ لأن الإنسان يعيش ضمن إطار الزمان، حيث ينقص منه ويأكله، فهو إذن في خُسر، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **«مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً»**(٥).

(١) سورة الشمس، آية ١.
(٢) سورة البلد، آية ١-٢.
(٣) سورة الحجر، آية ٧٢.
(٤) سورة العصر، آية ١-٢.
(٥) نهج البلاغة، رسالة ٣١.

فمـن يمتطي الزمن، يتحـرك بحركته، وهو مشـمول بالنقص، وسـائر إلى حيـث الفنـاء. ومن آثـار الحركة مـا جاء عن أمـير المؤمنين عليه السلام: «**نَفَسُ المَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ**»(1).

وهكـذا في الآية الكريمة إذا سـبرنا شـيئاً من أغوارهـا، أدركنا أن ما تم القَسَـم به يشـهد على القضية التي أقسـم لأجلها. فحين قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (أي قسـماً بالقرآن الحكيـم) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، فإنه كان بمثابة أن يقول: يا أيها النبي؛ إنك نبي، والشـاهد على نبوتك هو هذا القرآن الحكيم.

والتدبـر في آيات الكتاب الكريم التي جاء فيها القسـم يفتح لنا آفاقاً واسعة، إذا لاحظناها من هذه الزاوية.

ما معنى الحكمة؟

هنا يُطرح سؤالان:

١- ما معنى الحكمة؟.

٢- لماذا يُسمى القرآن حكيماً؟.

الحكمـة -كـما يُسـتفاد مـن الآيـات والروايـات الشريفة- هي خلاصـة معارف البشر، أو قُلْ: أساسـها. والحكمة هي الحكم، ومتى مـا أحرز المرء القدرة عـلى أن يعرف من خلال معايير ثابتة أن هذا حق وأن ذاك باطل، توفرت فيه الحكمة.

ولعـل الدليـل على كـون الحكمـة والحكم أمـر واحـد، هو أنه سـبحانه وتعـالى قـال في آيـة قرآنيـة مباركـة: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ

(١) نهج البلاغة، حكمة ٧٤.

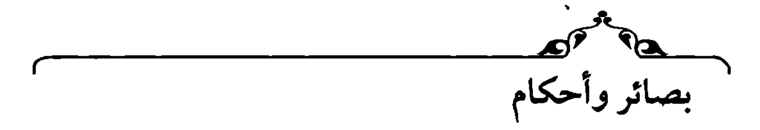
﴿ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[1]، وفي آية أخرى أُشير إلى سليمان وداوود عليهما السلام: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2]. وهذا يشير إلى أن الحِكمة في الآية الأولى هي ذات الحُكم في الآية الثانية، وأنهما حقيقة واحدة، وهي جوهر المعرفة.

لماذا يُسمى القرآن حكيماً؟

لأن إعجاز القرآن غير منحصر في فصاحته وبلاغته، وإنما أيضاً في العلم المتوفر فيه؛ وخلاصة ذلك العلم، هو حكمة القرآن.

وكتاب الله تعالى يصرح قائلاً: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

إن الخير الكثير يتوفر في القرآن الكريم، والله سبحانه يؤتي الحكمة لمن يشاء بالقرآن، والذي يتوفر فيه كل ما يلزم لهداية البشر.



بصائر وأحكام

١ - إذا سبرنا شيئاً من أغوار الآية أدركنا أن ما تم القَسَم به يشهد على القضية التي أُقسم لأجلها، إذ قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (أي قسماً بالقرآن الحكيم) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. فشهادة رسالة النبي صلى الله عليه وآله

(١) سورة ص، آية ٢٠.
(٢) سورة الأنبياء، آية ٧٩.
(٣) سورة البقرة، آية ٢٦٩.

هي حكمة القرآن.

٢- إن إعجاز القرآن غير منحصر في فصاحته وبلاغته، وإنما أيضاً في العلم المتوفر فيه؛ وخلاصة ذلك العلم هي الحكمة.



إنك لمن المرسلين

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾.

* * *

تفصيل القول

في هذه الآية المباركة تأكيدات عدة:

١-﴿إِنَّ﴾ من أدوات التأكيد.

٢- لام التأكيد.

٣- كلمة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. والوجه في أن يُفهم التأكيد من كلمة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أنه كان من الممكن أن يقال في هذه الآية فحسب: إنك لرسول الله، كما قال الله تعالى في موقع آخر: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾[1]، ولكن كلمة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ استُعمِلت هنا لتبيين الحقيقة القائلة بأنك

(١) سورة المنافقون، آية: ١.

-أيها النبي- لست أول رسول مبعوث حتى يشك فيه الناس ويقولوا: وهل يمكن لبشر أن يُبعث؟. بل شهد الناس من قبل أن هناك من بعث بالرسالة، مثل عيسى وموسى وإبراهيم ونوح عليهم السلام، وعليه لا مجال للشك. ولهذا تم اختيار كلمة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لتوضِّح هذا المعنى.

إثبات الرسالة

القرآن الحكيم؛ وبإيراده كلمة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أراد أن يُثبت أصل الرسالة، ورسالة الرسول محمد صلى الله عليه وآله خير شاهد على نبوته، ولكن لكيلا يدّعي كلّ مدع كونه نبيًّا، كان لقضية إثبات الرسالة أهمية خاصة.

ففي فترات كثيرة انبرى أشخاص وادّعوا النبوة، حتى في زمن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ادَّعى شخص يُسمَّى مسيلمة شرف النبوة والاتصال بالسماء، ولو تصفحنا أوراق التأريخ الإسلامي لتعرفنا إلى الكثير من مُدَّعي النبوة غيره.

ولكي يضع القرآن سدًّا منيعاً أمام مثل هؤلاء المدّعين، فقد بيَّن أن للأنبياء الصادقين علامات وشواهد متقنة محكمة. فكان دليل نبوة موسى عليه السلام اليد البيضاء، وكانت معجزة النبي عيسى عليه السلام إحياءه الموتى بإذن الله، وكان دليل صدق النبوة المحمدية العظمى القرآن الحكيم.

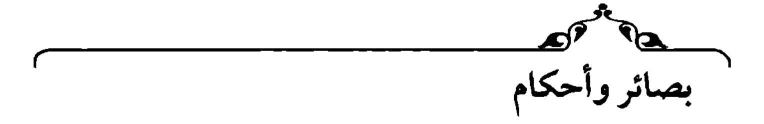
ويمكن أن يكون السبب الآخر لإيراد كلمة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في الآية الشريفة لأجل الإشارة إلى جميع المرسلين. إن أصل إثبات الرسالة والقرآن يتأتّى باستعمال هذه الكلمة والتأكيد في ﴿إِنَّكَ﴾ واستعمال لام الأمر في كلمة ﴿لَمِنَ﴾ والاستفادة من صيغة الجمع.. أريد بكل ذلك

التأكيد على صدق الرسالات النبوية السابقة، وأن رسالة نبي الإسلام ليست بدعاً من الرسالات السالفة.

ولهذا فقد خوطب النبي الأعظم ﷺ بالقول بأنه من المرسلين، وأنه يضع قدمه في طريق سار فيه من سبقه من المرسلين.

مفهوم المرسَل

المرسَل، يقال للإنسان الذي دلّه الله تبارك وتعالى على الطريق القويم، فسار فيه وأوضح معالمه للآخرين.



بصائر وأحكام

لقد استعمل القرآن كلمة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هنا لتبيين الحقيقة القائلة بأنك - أيها النبي - لست أول رسول مبعوث، لكيلا يشك أحد ويقول: هل يمكن لبشر أن يُبعث رسولاً. كلَّا؛ لقد شهد الناس مِنْ قبلُ مَنْ بُعث رسولاً وآمنوا به، مثل عيسى وموسى وإبراهيم ونوح عليهم السلام.



على صراط مستقيم

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤﴾.

* * *

من الحديث

روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، قال: «عَلَى الطَّرِيْقِ الوَاضِحِ»[1].

تفصيل القول

القرآن المجيد يمتاز ببلاغة راقية جدًّا، إنه هو الأرقى على الإطلاق، والذين يتدبرونه يعون هذه الحقيقة جيداً، إذ تتوضح هذه البلاغة وتتجلى من أول سورة قرآنية يُذكر الله تعالى فيها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٢١١.

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1]. وتستمر هذه الحالة إلى آخر كلمة في السورة الأخيرة.

ومـن أبعـاد بلاغته تحـول صيغة الـكلام، فمثلاً نجد في سـورة الحمـد أن صيغة الخطاب تتغير فجأةً مـن الغياب إلى الحضور، فيقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[2]، بعد أن حمد الله وأثنى عليه. لماذا؟. حيث إن غفلة البشر عن ربه وقلة معرفته به تتناسـب وذكره بصيغة الغائب، ولكن بعد أن تتحصل معرفته وتزول الغفلة عنه، تتغير صيغة الخطاب من الغياب إلى الحضور، فتُستعمل مفردة ﴿إِيَّاكَ﴾ و﴿ٱهْدِنَا﴾.

وهكـذا في بحثنا هنا، حيث نلاحظ هنا الآيات القرآنية الثلاث مختلفـة: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فكل آية من هذه الآيات الثلاث لها صيغتها وخصوصيتها.

في الأولى قال ربُّنا سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وفي الثانيـة قال ربُّنـا سـبحانه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ولم يقل: إنك على صراط مستقيم، أو: وعلى صراط مستقيم، وإنما الآية الشريفة وردت باعتبارها جملة مستقلة.

وفي الثالثـة نقـرأ: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ولهـذه الآيـة المباركـة صيغتهـا وموضوعها الخاص بها. ولو وردت كلمة ﴿تَنزِيلَ﴾ المنصوبةُ مرفوعـةً، لاختلـف الأمـر، حيث سـتكون خـبراً لمبتدأ محـذوف. ولو وردت مجرورةً، لكانت عطفاً على جملة ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾، ولكان لها مفهومٌ خاصٌ بها أيضاً.

---

(١) سورة الفاتحة، آية ٢.

(٢) سورة الفاتحة، آية ٦.

فنرى هذه الانعطافات البيانية في القرآن -وبالاستعانة بالأدبيات العربية الممكنة- تؤدي إلى أن ثمة معانٍ كثيرة ومطالب جمة قد تضمنتها هذه النصوص الإلهية الشريفة. ولو أن قارئ القرآن المجيد يبذل وقته -لهذه الأسباب- يصل إلى معارف عميقة جدًّا.

القرآن أساس علم النحو

بين طوايا الكلام الإلهي مطالب كثيرة وعظيمة، وبالتدبر والدقة يمكن استنباطها، ومن جملة ذلك هذه الآيات الثلاث من سورة (يس) المباركة، ولقد أثارت الاختلاف والبحث بين المفسرين، فأدلى كل منهم بدلوه بهذا الصدد.

وما يجدر قوله: إن علم النحو قد تم تدوينه بعد نزول القرآن، إذ إن البحوث النحوية تم استخراجها واستنباطها من القرآن. وهكذا فإن القواعد التي وضعها علماء النحو من القرآن أو من كلمات العرب هي أنزل مرتبة من القرآن المجيد، لأن القرآن أصل، بينما القواعد مجرد فروع عليه.

وللانتفاع الأفضل من القرآن الكريم، ينبغي وضع ما يمكن تسميته باسم: نحو القرآن الكريم. وهكذا لا يصح قولبة القرآن بالنحو المتداول، لأن كتاب الله هو الأرقى، كما لا يمكن توضيح القرآن المجيد وتبيينه وفقاً للاصطلاحات المعاصرة، من قبيل: الأمن والصلح، إذ القرآن قد نزل قبل هذه الاصطلاحات، وهو لا شك فوقها وأسمى منها.

بل يمكن الادِّعاء -وإثبات هذا الادِّعاء- بأن المحققين الذين

استعملوا النصوص الشعرية العربية واستشهدوا بها لفهم القرآن، قد ذهبوا شططاً.

إن القرآن العظيم قد وضع حدًّا واضحاً مميزاً في اللغة العربية وروحها، وميّز ما قبل نزوله عمّا بعد نزوله، حتى لكأنه أنشأ لساناً جديداً بين العرب. وهكذا فإنه استناداً إلى القرآن الكريم نفسه، وكذلك حسب ما نَفْقَهُ من المأثور عن النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، فإنه ينبغي فهم القرآن بالقرآن.

وحتى الآن؛ بُذلت جهود كبيرة ضمن هذا المنهج (تفسير القرآن بالقرآن)، ولكن لا زلنا في بداية الطريق، ويمكن القول بضرس قاطع بأنه ما من مصطلح وارد في القرآن إلَّا وله تفسيره في القرآن نفسه.

وللمثال على ذلك: إن كلمة (صعيد) مجهولة المعنى عند البعض، إلَّا أنه لدى مقارنتها بكلمة الغائط التي تدل على الأرض المنخفضه يمكن تفسير كلمة (الصعيد) أنها المرتفع من الأرض. تدبروا في الآية الكريمة التالية:

قال الله عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[1].

مِنْ تَقابل كلمتي (غائط) و(صعيد) يمكن أن يُفهم القصد من الصعيد، وكونه الموقع المرتفع. وعلى هذا؛ فإن تفسير هذه الكلمة موجود في الآية ذاتها.

وعموماً، فإن أحد الأساليب المهمة لدرك معاني الكلمات، هو الالتفات إلى التقابل بينها. وفي هذه المجال إذا ما اتضح معنى إحدى

(١) سورة النساء، آية ٤٣.

كلمتين متقابلتين، تسنَّى فهم معنى الكلمة الأخرى. فإذا عرفنا تقابل (الليل) و(النهار) وعرفنا معنى إحداهما، فلا شك سنعرف معنى الثانية. وإذا عرفنا معنى الصعود، سنعرف معنى الهبوط.

ولكن للأسف، نجد البعض يستند لدى فهم وتفسير القرآن إلى أشعار العرب من قبل وبعد نزول القرآن وقد تكون قبيحة مخزية، وحاشا الله عز وجل أن ينزل كتاباً لهداية البشر؛ ويتوقف فهمه على شيء آخر. وإننا لا ننكر حاجة القرآن إلى الموضِّح والمبيِّن والمفسِّر، إلَّا أن مفسِّره هو النبي ﷺ، وأهل البيت عليهم السلام، ويمكن تأكيد هذه الحقيقة من القرآن نفسه.

وجذوة القول هي ألَّا نجهد لدى فهم الآيات القرآنية فنضعها ضمن الأطر اللغوية الضيقة والمظلمة، والقواعد النحوية والصرفية الجافة، وآراء سيبويه وابن جني والأخفش وغيرهم.. فهؤلاء سعوا سعيهم، ووضعوا أصولاً وقواعد لفهم اللغة العربية، ولكن الأمر لا يقف عندهم، إذ ينبغي السمو والارتقاء، واستنباط قواعد جديدة من القرآن نفسه، لأن القرآن لم يدوَّن بناءً على قواعد اللغة العربية، بل إن هذه الأخيرة هي التي بُنيت على أساس القرآن المجيد.

صيغة الآية الكريمة

نزلت هذه الآية المباركة بهذه الصيغة، ولم ترد فيها تأكيدات كثيرة كما حدث للآية السابقة لها، لأن النبي الأكرم ﷺ الذي هو من المرسلين وسيدهم وخاتمهم، لا بد أن يكون بدءاً على صراط مستقيم، ليصدق عليه عنوان الرسول. فلو قلنا: إن فلاناً طبيب، فهو بحاجة قبل كل شيء إلى شهادة طبية تؤيدها وزارة الصحة مثلاً.

وهنا خوطب رسول الله ﷺ بالقول:

يا أيها الرسول الذي هو من المرسلين بلا ريب، إنك تسير ضمن صراط سار فيه المرسلون من قبل، وهو ليس سوى الصراط المستقيم.

الفرق بين الطريق والصراط

الطريق هو جميع السبل التي يُمشى عليها، سواء الطريق إلى البيت أو الزقاق أو الشارع، ويمكن أن تواجه هذه الطرق سدوداً ويمكن ألَّا تواجه.

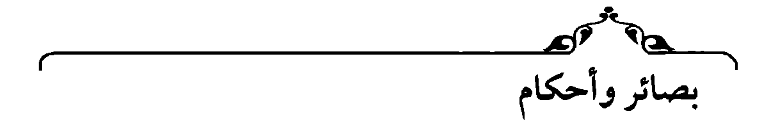
أما الصراط فهو أخص من الطريق، وهو يقال للطريق الواسع الذي يسير فيه الجميع ولا تُتصوَّر مواجهته لسد.

وسؤال آخر: لماذا وُصِف الصراط هنا بالمستقيم، دون القويم؟.

إنّ لفظ (المستقيم) من الاستفعال والدلالة على الطلب. و (المستقيم) يعني الطريق الصحيح الذي يمشي فيه الإنسان ويقطعه. فالعامل البشري قد أخذ فيه بعين الاعتبار، ودور البشر فيه يتمثل أولاً في البحث عنه، وثانياً في مواجهة التحديات التي تعترضه.

وعلى هذا، فإن الصراط المستقيم لا يُعرف ولا يمكن قطعه من دون الاستعانة بالله سبحانه.

وبعبارة أوضح: فإن حاجة البشر للوحي حاجة حقيقية، حيث لا يستطيع أيّ كان ادِّعاء كمال العقل لأنه عاجز عن أن يعرف الطريق الصحيح من غيره، وحتى لو عرفه فإنه بحاجة إلى عون إلهي للاستمرار فيه. ومن هنا فإننا ندعو ربَّنا سبحانه للهداية إلى هذا الصراط ومن ثم السير عبره.



بصائر وأحكام

إن حاجة البشر للوحي حقيقية، حيث لا يمكن لأيٍّ كان ادِّعاء كمال العقل فيه؛ وما لم تتوافر له الهداية الإلهية، والعون منه، فلن تتيسر له معرفة الصراط المستقيم، ولا التحرك ضمنه، ولا الوصول إلى نهايته الحميدة.



تنزيل العزيز الرحيم

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال: «**القُرْآنُ**»[1].

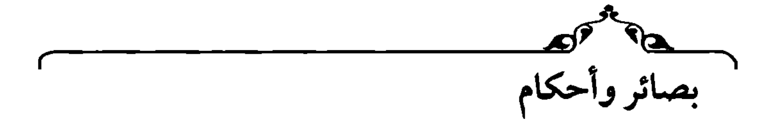
تفصيل القول

القرآن الكريم تجلٍّ لاسْمَي العزة والرحمة لربِّنا سبحانه، والعزة -بدورها- تتجلّى في قدرته التي تهيمن على المخلوقات؛ فإذا هي مسارعة لما يأمر به، منزجرة عمَّا ينهى عنه، ومستجيبة لمشيته.

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٢١١.

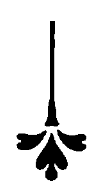
أمـا رحتمه فإنها تتجلّى في كل ذرة من خلقـه، أَوَلَيس ربُّنا تعالى خلق الخلق برحمته، ولكي يرحمهم ويربحوا عليه؟

وهذه الرحمة وتلك العزة يتجليان في كتابه، فإذا به يمنح المؤمنين به والعاملين لوصاياه العزة (والقوة والمنعة والإحترام) يمنحهم المزيد من النعم التي هي من رحمته سبحانه.



بصائر وأحكام

لأن القـرآن تنزيل العزيز الرحيم، فإن من يعمل به يحظى بمنعة في الناس، ورحمة وافرة واسعة.



غافلون رغم إنذار المرسلين

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

***

من الحديث

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: وسألته عن قول الله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ قال: «**لِتُنْذِرَ الْقَوْمَ الَّذِينَ أَنْتَ فِيهِمْ كَمَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ وَعَنْ وَعِيدِه**»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾

جملة قضايا تُفهم من النص القرآني المقدس أعلاه:

ما لم يكن ثَمَّ إنذار من جانب الله تعالى عن طريق الوحي، فإن

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٤٣٢.

البشر سيبقون سادرين في الغفلة. وهذه حقيقة مهمة للغاية، قد يغفل عنها البعض حيث يتساءل: ما حاجتنا للرسول أو الإمام أو العالم الديني؟. أَوَلَيس الله قد آتانا عقلاً وزودنا بالفطرة؟.

بلى؛ ولكن مصباحهما قد يخبت بسبب الغفلة وتواتر الشهوات، ألا ترى أنه مع إرسال مئة وأربعة وعشرين ألف نبي، ومع جعل اثني عشر إماماً للنبي الخاتم عليهم السلام، ومع تواتر آلاف العلماء والفقهاء، إلّا أن البشر لا يزالون يهيمون في وديان الغفلة، فما بالك لو أن باب النبوة والإمامة قُدر له أن يغلق؟

﴿مَآ﴾ نافية أم موصولة؟

وقع الاختلاف بين المفسرين في هذه الآية المباركة، فيما يتصل بالـ﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أُنذِرَ﴾ وفيما إذا كانت موصولة أم نافية؟.

لا ريب في أن هذا الاختلاف قابل للحل.

فإذا كانت موصولة، كان مفهوم الآية هو: تنذرهم كما أُنذر آباؤهم، أو: بما أُنذر آباؤهم.

وفي هذه الصورة يكون مفهوم الآية؛ أن العرب كان لهم أنبياء عليهم السلام في الماضي، سواء كان منهم خالد بن سنان أو قصي بن ساعد، أو لا أقل كان فيهم أوصياء لأنبيائهم. والمهم أن هناك أصلاً ثابتاً في البين، وهو: أن العرب كان لهم منذرون.

ومعروف أن أصل الكثير من العرب يعود إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام، الذي كان نبيًّا. ولذلك فإنهم كانوا يعرفون الحنيفية التي هي دين إبراهيم الخليل عليه السلام.

ولكنهم ابتعدوا عن روحه في الغالب، حتى عبدوا الأوثان. إلّا

أن بقية منهم كانت على الحنيفية، ومنهم آباء نبينا الأكرم محمد ﷺ.

وعليـه؛ فـإن العرب كان لهم منـذرون، وقد قال ربُّنا سـبحانه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1] .

نعم؛ في بعض العصور كانت تضيق سـاحة الإنذار، بينما تتسـع في أخرى.

أمـا إذا كانـت الـ﴿مَّآ﴾ نافيةً، فيكـون مفهوم الآيـة على النحو التالي: إن هؤلاء القوم كان لهم منذرون، إلَّا أن مساحة تأييدهم كانت ضيقة إلى درجة كبيرة حتى احتاجوا إلى تجديد الإنذار.

وبناء عـلى هذا؛ فالاختلاف قابل للحل، وليس له سـوى ثمرة واحـدة مـع تعدد صـوره، وهو -لا شـك- حاجة البـشر في كل زمان ومكان إلى فرد منذر.. نبيٍّ، أو وصي نبي، أو ولي من أولياء الله تعالى كما العالم الديني. ويمكن أن يُفهم من سـياق الخطاب أن ﴿مَّآ﴾ هنا، أكثر ميلاً إلى النفي، لا سيما وأنه تعالى قال في نهاية الآية: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾.

٢- ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾.

الغافل؛ يقال لمن يدري الحقيقة، ولكنه غفل عنها نتيجة النسيان أو الجهل. وهكذا فهو بحاجة إلى من يُذكِّره.

ويبدو أن الغفلة هي المشـكلة الأساسية للبشر، ولذلك فإن من أسـماء القرآن أنه ذِكْر وتذكِرة، كما أن النبي ﷺ يُدعى مذكِّراً وذِكْراً أيضاً.

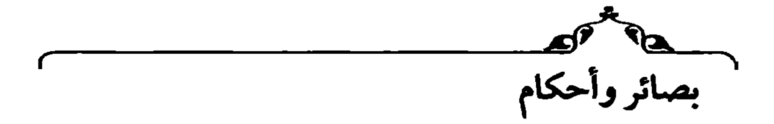
ولكـن لمـاذا الغفلـة هـي المشـكلة الأساسـية؟. فـلأن الحقائق

---

(١) سورة فاطر، آية ٢٤.

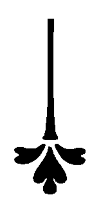
واضحـة ولكن الغفلة هي الحاجز دونهـا. ومن هنا كان الناس بحاجة إلى مـن يُذكِّرهم فيثير دفائـن عقولهم وكنوز فطرتهم، ويوضح الحقائق حتى ينتبه لها العقل والفطرة.

ولعلـه لذلك نجد أن هـذه الآية لم تأتِ بصيغـة جاهلون، وإنما استعملت مفردة ﴿غَٰفِلُونَ﴾ للإيحاء بأن الأصل في الإنسان هو العقل والفطرة اللذان يجذبان الحقائق إليهما.



بصائر وأحكام

ما لم يكن ثَمَّ منذر من جانب الله تعالى، ويتحدث مع البشر عن طريق الوحي، فإن البشر سيبقون قابعين في أقبية الغفلة.



أكثرهم لا يؤمنون

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ ﴾.

***

تفصيل القول

تؤكد هذه الآية بوضوح أن إنذار هذه الجماعة غير ذي نفع، وهكذا يطرح السؤال التالي:

ما معنى أن يرسل الله تعالى نبيًّا منذراً والحال أن أكثرهم لا يؤمنون أصلاً؟.

قرأنا في الآية السابقة: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾، وإننا لنؤمن أيضاً بأن البشر لأسباب وظروف عدة غافلون، وأن النبي ﷺ قد بُعِث ليحررهم من غفلتهم، وأن يلزمهم الاجتماع حوله لينتفعوا بنور هدايته.

ولكن في هذه الآيات التاليات يشير البحث إلى أن هؤلاء البشر

لا يؤمن أكثرهم بعد أن حالت الأغلال دون وعيهم ومنعتهم سدود الجهل والعمى.. مما يدعو إلى القول بأن الإنذار غير ذي نفع لهم ولا هو بمعالجهم من ضلالتهم.

ولكن؛ إن كان الأمر كذلك، فَلِمَ أُنزل القرآن على أشخاص هذه حالهم؟

ذكر المفسرون جوابين على هذا التساؤل:

الأول: قال بعض المفسرين: إن مقصود الآية ليس جميع العرب، وإنما فقط طائفة خاصة منهم، وهم أشراف قريش وزعماؤها ورؤساء القبائل الأخرى، لا سيما وأن عوام الناس وبسطاءهم كانوا يصغون عادة لإنذار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

ولكن الآية تقول: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾، ولم تقل: لقد حق القول على رؤسائهم وأغنيائهم.. ولو كان هؤلاء هم المقصودين لورد لهم وصف خاص، مثل الملأ أو المترفين كما ذُكِر ذلك في بعض الآيات الأخرى. ولكن الكلمة المستخدمة هنا هي ﴿أَكْثَرِهِمْ﴾ ولا شك في أن المقصود منها هو أكثر القوم الذين أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

بل إن هذا الجواب يوحي -خطأً- بأن بعثة النبي الأكرم مختصة بأشراف قريش، في حين أننا نؤمن بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد جعله الله تعالى رحمة للعالمين جميعاً.

الثاني: ويمكن أن تتم الإجابة عن هذا الإشكال بنحو آخر، فيقال: لأنّ سورة (يس) المباركة هي قلب القرآن المجيد، ولأنه حينما يكون الحديث عن الإيمان، فالمعيار هنا هو الإيمان الكامل.

وعلى هذا؛ إذا أردنا وضع إيمان المخاطبين ذلك على المحك

بهذا المقيـاس، فإن الآية الشريفـة: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ لم يكن يسع العرب وحدهم، وإنما البشرية برمتها يسعها أن تبلغ ذلك الإيمان العظيم.

وهنا يمكن أن يقال: لماذا يلوم الله تعالى البشر ويعيّرهم في القرآن المجيد بسـبب غفلتهم وضعف إيمانهـم؟ ولماذا يقول عز وجل: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾؟ ولمـاذا يكـرر هـذا المعنـى كثيراً؟ ولماذا أشـار بين الآية السادسـة والآية العشرين من سورة البقرة إلى أن مـن البشر من لا يؤمنون ولا يهتدون مهـما رأوا من الآيات والمعاجز.. فما هي الحكمة من هذا التكرار؟

يبدو أن السبب في ذلك يعود إلى أمرين:

السبب الأول: إذا وجدنا بين الناس أشخاصاً يتظاهرون بالعقل والحكمـة، ولكنهم -في الوقت ذاته- لا يؤمنون بالقرآن المجيد والنبي الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ فليس لنقـص في حجج القـرآن أو المعاجز الأخرى.. وإنما لأن هؤلاء في الحقيقة صم بكم لا يعقلون، وقد اسـتولت عليهم الغفلة، وأن التقصير بالتالي عائد إليهم.

إن للبـشر رغبـة جامحة نحو التوافق مع المجتمع الذي يعيشـون فيه، وأن يتلونوا بلون من يعيشون معهم.

ولكـن هـذه الرغبـة قـد تسـبب في هـلاك البـشر إذا كان ذلك المجتمع فاسـداً. ولعل القرآن المجيد يهدف من خلال التأكيد بأن أكثر النـاس غافلون أو لا يؤمنون أو ما أشـبه لإنـذار الناس بأن ينتبهوا فلا يحشروا مع الآخرين دونما وعي، وليعلموا أن الأقلية هم النخبة، وهم في المقدمة، والثلة هي التي تحلق إلى الجنان.

ولطالما لام القرآن العظيم في كثير من آياته المجيدة ما يسمى بالأكثرية، باعتبارها تحوي الكمية الكبيرة من النقائص والمعايب، وكونها قد تتشكل من همج رعاع يتبعون كل ناعق بالشر والباطل. قال الله سبحانه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[6].

السبب الثاني: إن الهداية لا تُنال بسهولة، وإنما لها أهميتها العظمى، وهي جديرة بأن يسعى المرء إليها سعيها ويجاهد للحصول عليها، حتى إنها تستحق تحمّل العناء من أجلها، كذلك على الإنسان أن يحذر كل الحذر لئلا يُفرِّط بها بعد الحصول عليها لكي تبقى معه إلى آخر عمره على سبيل الحتم، لأنه يمكن أن تتطاير من بين يديه في كل آن. ولكي يحذر القرآن المجيد الإنسان من هذا الخطر الكبير والمحدق

(١) سورة غافر، آية ٥٧.
(٢) سورة الزخرف، آية ٧٨.
(٣) سورة غافر، آية ٦١.
(٤) سورة المائدة، آية ١٠٣.
(٥) سورة النحل، آية ٨٣.
(٦) سورة التوبة، آية ٨.

بـه دومـاً، فإنه عمد إلى تكرار هذه الحقيقة، ولطالما صرخ في إذنه قائلاً: الكثير قد ضلوا وضاعوا، فاحذر أن تكون منهم!

وقـد تتكـرر في مثـل ذلـك التحذيـرات في الأحاديـث اليومية للنـاس؛ فـإذا كنت مثلاً قاصداً السـفر إلى بلاد حافلـة بالأخطار، فإن الحريصـين عـلى حيـاتي يُهيلـون عـليَّ بالتحذيـرات. لمـاذا؟ لأن تكرار التحذير وتأكيده ضروري إذا كان الخطر جديًّا.

ولعـل هناك قضية أخـرى فيما يتعلق بإدانـة الأكثرية وملامتهم مـن جانـب القرآن المجيد، وهـي أن القيادة الربانيـة وبلحاظ غناها لا تقـدم إتـاوة للناس، ولا تضطر لجمع الغوغاء، ولـذا فإن القرآن يقول بكل صراحة: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

هـذا في حين تجد مُنظِّري المـدارس الوضعية يُولون كل الاهتمام باجتـذاب النـاس، ويجهـدون في جمـع أكـبر عـدد منهـم، حتـى إنهـم يضطـرون في بعـض الأحيـان إلى التنـازل عـن مبادئهـم وقيمهـم، أو يَعِدوهـم بالأكاذيب لئلا يُفرِّطـوا بهم.. فيما الدين الحنيف غني عن أن يجمـع المؤيدين حوله، حتـى وإن كفر الجميع به، لأن ذلك لن يضر الله شيئاً.

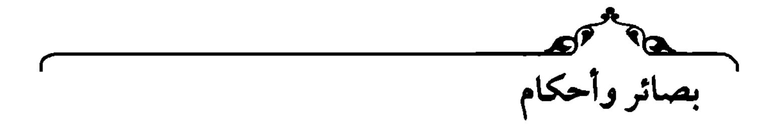
﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾

﴿ٱلْقَوْلُ﴾ يعني الكلمة، والمقصود بالكلمة إرادة الله ومشـيئته، فهي حاقة عليهم ونافذة فيهم على الدوام.

فـإذا قـال: ﴿ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي إرادة الله سـبحانه، فـلأن (قـول الله) مظهر إرادته، وهذه الإرادة نافذة في الأفراد، ونتيجتها أنهم لن يؤمنوا،

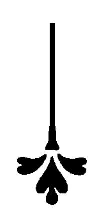
(١) سورة هود، آية ١٧.

وسبب ذلك أن فرصة البشر في الإيمان ليست دائمة. ولقد أرسل الله تبارك وتعالى الأنبياء، فقاموا بتبيين آياته للناس؛ وبذلك امتدت فرصتهم مدة طويلة ليؤمنوا بالآيات التي يرونها ويسمعونها، فإن لم يستجيبوا لها، انتهى أمرهم، بعد أن يسلبهم الله عز وجل التوفيق للإيمان. وهذا أمر رهيب مروع حقًّا، ويدعو البشر إلى المبادرة إلى الإيمان.



بصائر وأحكام

إن الهداية هدف سام لا يُنال بسهولة، وعلى الإنسان أن يسعى جاهداً لنيلها، وإذا ما حصل عليها، فعليه أن يحذر كل الحذر لئلا يُفرِّط بها، لأنها قد لا تبقى معه إلى آخر عمره.



هم مقمحون

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾.

***

من الحديث

روي عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ قال: «فِيْ نَارِ جَهَنَّمَ»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾.

الأغلال: هي القيـود التي توضع في أعناق المجرمين، والبعض

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٤٣٢.

منها دقيق والآخر عريض. والغل العريض يغطي جميع الرقبة حتى يصل إلى الكتفين، حتى يعجز من يُقيَّد بها عن النظر إلى الأسفل.

٢- ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾

المُقمَح هو البعير الذي يكون رأسه إلى الأعلى. ومعروف بين الجمّالين أن الجمل إذا لم يرغب في المسير، فإنه يرفع رأسه إلى الأعلى. ولعل الآية الكريمة وما يتلوها من آيات تصور حالة هؤلاء الكافرين غير المتعادلة؛ فهؤلاء قد ضلوا، فهم يمشون ولكن رؤوسهم مُقْمَحة. ومن كان كذلك سيعجز عن إبصار دربه، حتى تراه يصطدم بما يواجهه، ويتواصل عليه الاضطراب.

ويمكن أن يكون تأويل هذه الأغلال: كل ما يعرقل عروج الإنسان إلى قمم الكرامة، فقد تتجسد هذه الأغلال في التقليد الأعمى للأباء، حيث يشير القرآن المجيد إلى أن بعض الكفار يبررون كفرهم وكفرانهم بتقليد الآباء: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١]، وكذلك قولهم عن التماثيل والأصنام: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[٢]، وقد تكون الأغلال متجسّدة في الاسترسال مع الأكثرية، حيث قال سبحانه عن لسانهم: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾[٣].

ومع أن هؤلاء التابعين قد يخالفون فطرتهم وعقولهم، ولكنهم يصرون على ذلك خشية الاعتراض على سيرة أسلافهم، أو أكثرية مجتمعهم. ولكن من يريد نيل الحقيقة، كان عليه أن يحطم الأغلال جميعاً.

(١) سورة الأعراف، آية ٢٨.
(٢) سورة الأنبياء، آية ٥٣.
(٣) سورة المدثر، آية ٤٥.

التقليد الأعمى ممنوع

التقليد الأعمى داء مناقض للقيم، حتى وإن كان ضمن المبادئ الدينية الحقة. فترى مثلاً بعض الأفراد يُصلّون، لأنهم يعيشون ضمن مجتمع ديني، ولكن الخطر يبقى قائماً، إذ قد يغفل الفرد عن حقائق الصلاة، فتراه يتظاهر بإقامة ظاهر هذه الشعيرة دون واقعها. ومع أن مثل هذه الصلاة تُسقِط التكليف الشرعي، ولكنها قد لا تكون معراجاً روحيًّا لصاحبها أو ناهية إياه عن الفحشاء والمنكر.

لقد أوصانا القرآن المجيد بأن ندعو لآبائنا وأسلافنا الصالحين بالمغفرة والرحمة، حيث قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[1]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[2].

ولعل آباءنا وأجدادنا كانوا من الصالحين، فلماذا نستغفر لهم حيث نفترض أن يكونوا مذنبين؟.

يبدو أن السبب هو تجنب تقديسهم واعتبار كل أعمالهم صالحة.

وإن من انحرافات الفكر السلفي اعتبار أسلافهم صالحين مُقدَّسين. وهذه الحالة من جملة الأغلال التي تُكبِّل المجتمع المسلم.

إن استعمال مفردة (بإحسان) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ

(١) سورة إبراهيم، آية ٤١.
(٢) سورة الحشر، آية ١٠.

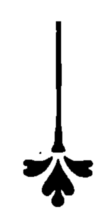
﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]، ربما يشير إلى أن جميع التابعين ليسوا على هدىً.

بصائر وأحكام

١- إن التقليد الأعمى داء مناقض للقيم، حتى وإن كان ضمن المبادئ الدينية الحقة.

٢- علينا تحطيم الأغلال وهجر التبعية الباطلة.

(١) سورة التوبة، آية ١٠٠.



لا يبصرون

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾.

* * *

من الحديث

روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ يقول: «فَأَعْمَيْنَاهُمْ ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ الْهُدَى»(١).

تفصيل القول

إنه لَيتكرَّس فيهم كل هذا الخرس والعمى والجمود، بعد أن حملوا مسؤولية تحطيم الأغلال، فأحجموا عن أداء واجبهم في ذلك.

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٢١٢.

وتلكـم الأغلال تتحول شـيئاً فشـيئاً حتى تكون سـدوداً تحول دون وعيهـم، بـل وعقبـات اجتماعيـة، حيـث يتبـع هـؤلاء خطوات شـيطانية تنتهـي بهـم إلى الضلال البعيد. فهم يقيدون أنفسـهم بسـيرة أسـلافهم، حتـى يحولوهـا إلى مقياس بـين الحـق والباطل؛ فـما قام به آباؤهم كان حقًّا، ودونه هو الباطل، ثم يتحوَّل الأسـلاف شـيئاً فشيئاً إلى أصنام. كيف؟.

إن الابـن يُقـدِّس أباه أو جده، فيضع لـه صورة في أفضل مكان مـن البيـت، ثم إنه يُقـدِّس قلمه أو ثيابـه، إلى أن تتحوَّل هذه الأشـياء وأمثالها مُقدَّسـات عنده لا يمكن المسـاس بها، ثم تـراه يظن خطلاً أن روح أبيه أو جده قد حلّت فيها!.

وهكذا يتواصل التقديس الأعمى حتى يصبح وثنية. ولا ريب في أن الوثنيـة إذا تفشَّـت، وضعت للأصنام بيوتـاً، ثم تبدو الحاجة لمن يرعـى تلكـم البيوت، فتكـون ثمة مكانـة لراعي بيت الأوثـان، فينال الشـهرة والمـال والقدرة، حتى يتحوَّل إلى محـور اجتماعي. وهنا تصبح المشكلة أزمة اجتماعية.

فإذا أردنا تخطي هذه الأزمة، فلا بد أن نعلن الحرب عليها، وفي البـدء يلزم تحطيم الغـل الداخلي، لكي ننتقل -من بعدُ- إلى الخارجي. وحسب التعبير القرآني، نبدأ بالجبت فنكفر به، ثم نتجنب الطاغوت.

إن الجبـت هـي الحقيقـة الداخلية للطاغـوت، بينـما الطاغوت صورة الجبت الظاهرية.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾.

فإنْ تجسَّد الطاغوت وظهر، أصبح متسلطاً، فأنشأ لنفسه جيشاً

وابتدع ثقافة وإعلاماً، حتى يصبح سدًّا اجتماعيًّا أمام حركة الأمة.

إن النبـي الأكرم ﷺ بُعِثَ ليدعو أهل مكة إلى الله عز وجل، ومـا أدراك مـا مكـة، إنهـا مدينة تتضمـن الكعبـة، والكعبـة هي محور التوحيـد ومحل التسـبيح والتنزيه لله عن الشرك، وهـي بيت الله الحرام الـذي أمر أن يُطهَّـرَ للطائفين. ولكن هذا البيـت تبدل إلى محل للشرك وعبادة الأوثان. يا للمأساة!

ثم إنه لم تكن الأصنام -تلك التي نُصِبَت فوق الكعبة وأطراف البيت- لم تكن المشكلة الأساسية فحسب، إنما المشكلة الأكبر والأخطر منهـا، والتي كانت تقف سـدًّا في طريق المؤمنين، كانت تتجسـد في أبي سـفيان وأبي لهـب وأبي جهل ومن هم على شـاكلتهم، ممن كان يُقدِّس الأصنـام. فقـد كانت هـذه الأخيرة تقتـضي أن يدافعوا عـن الأوثان. وهكذا فعلوا وظلموا وتآمروا.

موت الشعور

حينما تحيط بالإنسـان السـدود من بين يديه ومـن خلفه، عندها يعجز عن الحركة.

فـإذا قيـل: إذا أُغلقـت الطرق مـن أمامه ومن خلفـه، فربما يجد طرقاً عن يمينه أو شماله.

أجيب:

أولاً: حينـما يكون للفـرد هدف أمامه فهو ينطلـق باتجاهه، فإذا حيـل دون نيلـه، فكّـر في العـودة، ولـذا فإنـه لم يذكـر السـياق اليمين واليسـار، لأن هـدف الإنسـان ليس مجـرد الحركة، وإنـما الحركة باتجاه

هدف خاص.

ثانياً: لقد استعمل السياق كلمة (سد)، والسدّ هو ما يقع بين جبلين، ولا يُشيَّد في سهل ليكون له يمين وشمال. وهكذا يبدو -بهذا الاستعمال- أن الجهات الأربع مسدودة أمام الكافرين.

ومن هنا فإن الأمل بانعتاق هؤلاء خيالٌ واهٍ، فهم -حسب السياق- مُقْمَحون من جهة، ولا طريق للتقدم ولا سبيل إلى العودة من جهة أخرى، وهم في نهاية المطاف عميٌ بفعل ما غشيهم من الضلال. وهذا التصوير القرآني البديع يُجسِّد فداحة الضلال ومدى الخسران ومدى الابتعاد عن ينابيع الحق. كل ذلك أصيبوا به بسبب كفرهم وعنادهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى موت شعورهم، فلم يكن ثمة فرق عندهم بين أن يُنذَروا أو لا يُنذَروا.

عندما يتحول الجبت إلى الطاغوت

قدمنا القول بأن المشكلة الأولى للبشر هي الأغلال -وحسب التعبير القرآني: الجبت-، وهي تتفاقم حتى تتحوَّل إلى طاغوت ينشر الظلم على الصعيد الاجتماعي.

وبتعبير آخر: إن الجبت طاغوت صغير، فإذا سنح له ترعرع حتى أمسى الطاغوت بعينه، وكان سدًّا يحول دون تكامل المجتمع الإنساني ودون عروجه إلى الله تبارك وتعالى.

تصوروا هذا الإنسان الذي بعث الله تعالى لهدايته أنبياء منذرين، وجعل من فطرته باعثاً يسوقه إلى الله تعالى، كيف يولّي ظهره لكل هذه البواعث، بل قد يذهب أبعد من ذلك، حين تراه يواجه المنذِر بدلاً من

انصياعه للحق، وربما رفع بوجهه السيف.

من هنا كان على الإنسان أن يقارع جبته الداخلي، ويسعى إلى تحطيم أغلاله الداخلية قبل أن يستفحل جبته وتتحوَّل أغلاله إلى سد منيع.

اطردوا الطاغوت الصغير

ولكن لماذا ترانا نتهاون عن الخطوة الأولى، ولا نعارض الجبت الذي قد يتهاوى بأقل الزجر، وندعه يتحوَّل إلى مرض نفسي عضال وسد اجتماعي منيع؟.

في البحوث السالفة أشرنا إلى مسألة نعود ونذكرها هنا إجابةً عن هذا السؤال، وهي أن الإنسان قد لا تتوافر لديه فرصة الهداية على الدوام. فقد تسنح الفرصة للناس لكي يهتدوا، إذ يُبعث نبي فينذرهم، ويستمر في أداء مهمته لبعض الوقت، حتى تكتمل الحجة عليهم. فأما إذا أنكر البشر نبيهم وكذَّبوا رسالته، سُلِبت منهم تلك الفرصة، حتى يصل الأمر بهم إلى ضياع قدرة الاستقبال والاهتداء من قلوبهم وآذانهم وأعينهم. قال الله عز وجل: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1]. ولكن عدم الاهتمام بهذه الحقيقة هو الذي يجعل الناس يتهاونون في مواجهة جبت نفوسهم قبل أن يتعاظم خطره.

وهل فرصة الاختيار بعد الإنذار والاختبار أبدية؟ كلَّا؛ ففي الدنيا -مثلاً- قد يُعرَّض الإنسان إلى امتحان، فإذا لم ينجح، قيل

(١) سورة البقرة، آية ٧.

له: أيها السيد! سنوفر لك فرصة أخرى لتمتحن حظك. وهذه هي فرصتك الأخيرة، فإن لم تنجح سَتُسلب منك جميع فرصك، ولن يعود أمامك مجال للاستدراك. كذلك الآخرة فإن الاختيار محدود وبعده يُختَم على القلب.

بلى؛ إن عقوبة الختم على القلوب والسمع ووضع الغشاوة على الأبصار، يعني أنه قد سُلِبت منهم فرصة الامتحان. وهذا لعمري إنه أمر خطير.

اللّه تعالى (أرحم الراحمين) وكذلك (شديد العقاب)

لا بد أن نتنبه أن أحد أسماء الله تعالى هو المتكبر، والتكبر يعني فيما يعني أن ربَّنا لا يرضى لعباده الشرك. ولهذا ينبغي لابن آدم أن يخشى ربَّه أشدّ خشية. ولكن هل يخشاه إلّا الذي يعرفه؟ وقد جاء في دعاء الصباح المروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَنْ ذَا يَعْرِفُ قَدْرَكَ فَلَا يَخَافُكَ، وَمَنْ ذَا يَعْلَمُ مَا أَنْتَ فَلَا يَهَابُكَ»[1]. وهكذا نجد أن النبي نوحاً عليه السلام يقول لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2]. أي: إن العلم بالله يفرض عليَّ أن أخافه وأن أُخيفكم منه.

إنَّ تجلِّيات رحمة الله في خلقه، وإنَّ تواتر نعمه السابغة علينا قد يجعل البعض يغفل عن عقاب الله، بل قد ينكره، ولكن أليس لغضب الرَّبِّ أيضاً مظاهر؟ تعالوا نقصد السجون، وننظر إلى المسجونين وبلائهم، لنجد أن عدداً منهم قد وُضعوا في السجن بسبب عدم

(١) بحارالأنوار، الشيخ محمد باقر مجلسي، ج٨٤، ص٣٤١.
(٢) سورة الأعراف، آية ٦٢.

استجابتهم لهدى الرَّبِّ. ولنذهب معاً إلى المستشفيات لنجد نزلاءها وبلاءهم، وقد يكون السبب تمردهم على الأوامر والنواهي الإلهية. وهذه سُنّة الله الجارية في مناحي الأرض. هناك حيث تُرتكب المجازر الدموية الوحشية، إذ أحد أسبابها هو سلوك البشر أنفسهم، حيث تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقدموا الفرصة للجُناة والظلمة لينموا فيحكموهم، بعد أن يسلبوهم إمكاناتهم وأمانهم. أما البلايا الطبيعية كالزلازل والفيضانات، فإنها مظاهر أخرى من فتنة الدنيا، وربما غضب الرَّبِّ.

ومع أننا نشاهد كل ذلك، ونقرأ عن أمثالها من تاريخ العالم، إلَّا أننا لا نزال لا نصدق أن إنذار الله عز وجل قضية جدية، وأنه شديد العقاب كما هو أرحم الراحمين.

مرات ومرات أنذر الله عز وجل بني البشر بأنهم إذا واصلوا تمرُّدهم وارتكابهم المعاصي، فإنه سيُنزل عليهم العذاب الفلاني، ولكن الإنسان وبكل سهولة يتجاوز ذلك بقوله: سيخفف الله عني، رغم أنه طالما يشهد نتائج التمرُّد، من عذاب وبلاء يقعان على من سبقوه إلى تيه الغفلة والتمرُّد.

ينبغي أن نسعى إلى حفظ مقدار النور الذي وهبنا الله تبارك وتعالى، فلا نُفرِّط به، حيث أخطر الخطر أن يسلب منا التوفيق فلا نستطيع التسامي، ولات حين مندم!

لماذا ينسب الضالون مشاكلهم إلى اللّه؟

ثَمَّ سؤال آخر يطرح نفسه، وهو: لماذا تُنسب مشاكل الناس إلى الله عز وجل، وقد وردت في الآية موضع التدبر والتفسير مفردة

﴿جَعَلْنَا﴾ مرتين، ومفردة ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ مرة واحدة؟

الجواب: ليس هنا فحسب، وإنما في كل القرآن المجيد، نُسب كل شيء إلى الله تعالى. فهو سبحانه إما أن يقوم بكل شيء، وهذا من باب (أمر الرَّبِّ) ومشيئة الخالق، أو أنه يأذن للآخرين بالقيام بالأعمال. ونحن نعلم أنه لا يمكن إنجاز عملٍ مّا دون إرادة الرَّبِّ العظيم، حتى أنه لولا الإذن الإلهي، ما كان للشيطان أن يسعى لإغوائنا نحن بني البشر، والله سبحانه قد أذن للشيطان وأعطاه الفرصة في الإغواء ليمتحن الناس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[1].

شيطنة الشيطان!

لعل القضية التالية غير قابلة للاستيعاب من جانب الكثير من الناس، وهي: كيف أن الله تعالى فسح المجال للشيطان ليمارس شيطنته ومكائده من جانب، بينما يأمر الإنسان أن يتمرَّد على هذا الشيطان؟

فأقول: إن من الحكمة الإلهية؛ إيجاد أجواء الامتحان لبني البشر، فَيَسَّرَ للشيطان وللإنسان في وقت واحد ممارسة إرادتها.

فالله عز وجل أكرم ابن آدم بحرية الاختيار، بينما كان إرسال الأنبياء عامل تحذير وتنبيه له، وليأمروا الإنسان بالحذر والانتباه.

فإذا كان من نية الإنسان أن يعصي الشيطان، ولا يتأثر بإغوائه ووساوسه، فإن الله تعالى سيرعاه ويساعده، وهذا من حِكَم الله العظيمة، حتى إذا أخطأ الإنسان بعد عزمه على ترك الخطأ ومخالفة

(١) سورة الحجر، آية ٣٦- ٣٨.

الهوى، فإنه تعالى يقبل توبته.. ولكن لهذا الأمر حدوده. إذ يصل الأمر بالإنسان أن ينخرط ضمن الجماعة الموصوفة بقوله العزيز: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]. إذ في هذه الحال، لن ينتفع الإنسان بانذار النبي. لماذا؟.

لأنه يتجاهل الأوامر والتحذيرات والآيات النورانية التي جعلها الله تعالى بلطفه وعنايته تحت تصرفه لئلا يتأثر بالوساوس الشيطانية.

والتحذير من أن تتحوَّل الأغلال الداخلية إلى سدود خارجية، فتؤدي جميعاً إلى الغفلة، ليس تحذيراً للقوم المعاصرين للنبي الأكرم ﷺ فحسب، وإنما الأجيال اللاحقة بهم إلى يوم القيامة مخاطَبة بالخطاب ذاته، لأن الجميع معرّضون لهذه الغفلة، هذه الغفلة التي يمكن أن تستولي على أعين الجميع وقلوبهم وأسماعهم، وذلك لأن الدنيا دار الغرور والخداع، ومن طبع ابن آدم الانخداع.

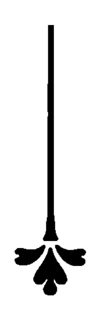
ولأن الإنسان جاء إلى هذه الدنيا لينتقل إلى دار أخرى، سيتأكد ذات حين أن كل شيء لهث وراءه كان سبباً للغرور والانخداع، وأن ما رآه لم يكن غير سراب.

ولهذا المعنى وغيره نجد القرآن قد خصَّص في هذا المقطع من سورة (يس) المباركة خمس آيات مباركات، بيّن فيها بشكل قاطع ومحكم أنه تعالى إنما يريد إيقاظ الناس من خلال رفع الحجب ودرء الأوهام ليتسنى لهم رؤية الحقائق.

(١) سورة يس، آية ١٠.

بصائر وأحكام

من الحكمة البالغة للرب سبحانه أن يسَّر للشيطان كما للإنسان ممارسة اختيارهما، ولكن إذا كان من نية البشر مقاومة الشيطان ووساوسه فإن الله سبحانه يؤيده.



أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

***

تفصيل القول

هناك شرطان للحصول على الهداية إلى الحقيقة:

١- إرادة الإنسان وحركته وسعيه.

٢- إرادة ومشيئة الله تبارك وتعالى، حيث يوفق الفرد ليحصل على الهداية. فالبشر مهما سعوا واجتهدوا، فإن سعيهم وجهادهم لن تكون له ثمرة ما لم يقترنا بالنور الآتي إليهم من جانب الله تعالى.

وعلى هذا، فإن أسباب الهداية على شكلين:

ألف: أسباب داخلية، من قبيل الوجدان والفطرة والعقل، ويمكن أن تكون أسباب ذاتية أخرى تقوده إلى الهداية.

باء: أسباب خارجية، من قبيل الوحي عبر الأنبياء، والإرشاد عبر الأوصياء والكتب السماوية.

والشرط الأول وهو الضمير قد يخفت نوره إذا أُهمل ولم يستجب له البشر. وعندئذ ما جدوى النصح الآتي من الآخرين.

لاحظوا هذه الرواية الرائعة:

قال رسول الله ﷺ: «أَيُّما رَجُلٍ رَأَى فِي مَنْزِلِهِ شَيْئاً مِنَ الْفُجُورِ فَلَمْ يُغَيِّرْ بَعَثَ اللهُ تَعَالَى بِطَيْرٍ أَبْيَضَ، فَيَظَلُّ بِبَابِهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَيَقُولُ لَهُ كُلَّمَا دَخَلَ وَخَرَجَ: غَيِّرْ غَيِّرْ، فَإِنْ غَيَّرَ وَإِلَّا مَسَحَ بِجَنَاحِهِ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَإِنْ رَأَى حَسَناً لَمْ يَرَهُ حَسَناً، وَإِنْ رَأَى قَبِيحاً لَمْ يُنْكِرْهُ»[1].

وهكذا نعرف أنه ما لم يهتم الفرد بنداء ضميره، فإن الضمير ينقلب، حتى تراه يبتهج بارتكابه الذنب بدلاً من أن يلوم نفسه. وهنا لا يتوقع للنصح والموعظة والدعوة أن تكون وسيلة لإصلاحه، وإنما عبارة القرآن خاصة بمثل هذا الفرد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾[2].

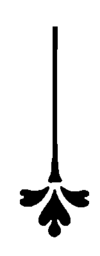
بصائر وأحكام

لا بد أن يستجيب الإنسان لضميره، لأنه إن لم يهتم بنداء ضميره، فإن الضمير قد ينقلب، حتى تراه يبتهج بارتكابه الذنب بدلاً من أن يلوم نفسه. وهكذا لا تنفعه نصيحة الناصحين.

---

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١٢، ص٢٠٠.

(٢) سورة يس، آية ٨.



إنما تنذر من اتَّبع الذكر

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

سؤال عريض يقفز إلى السطح ليقول: ماذا نفعل لكيلا نضطر للوقوع في براثن ذلك اليوم الأسود، حيث تُحرم قلوبنا من النور، أو تُحجب نواظرنا عن الحق؟ ماذا ينبغي لنا أن نفعل؟

والجواب يتجلى في بصائر ومفاهيم الآية أعلاه. كيف؟

لنعرف أن علينا للانتفاع بالنذر القرآنية أن نُهيّئ الأرضية في أنفسنا، وذلك بتوفر شرطين:

١- اتّباع الذكر (في السلوك).

٢- خشية الله في الخفاء (في القلب).

وعن الشرط الأول يُطرح سؤالان:

ماذا يعني الاتّباع؟ وما هو الذكر؟

أن يتقدَّم شخص على آخر ليخطو أمامه، فإنه يكون متبوعاً والآخر تابعاً، هذا ما تقوله العرب.

ترى هل المقصود بالذكر هو القرآن؟ إذا كان هو القرآن، فهل القرآن يتقدمنا ونحن نسير خلفه؟

يُحتمل أن يكون المقصود بالذكر شخصاً يقودنا بينما ترانا نمشي خلفه، ويتمثل ذلك الشخص بالدرجة الأولى في شخص النبي الأعظم ﷺ ومن ثم أهل البيت عليهم السلام، رغم أن أكثر المفسرين قالوا بأن المقصود بالذكر هو القرآن، واستندوا في قولهم هذا إلى الآية المباركة القائلة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1]، وهذا صحيح.

إن هذه المطالب ذُكِرت في سورة تُسمّى قلب القرآن، وبسبب هذه المطالب والحقائق الواردة في هذه السورة الكريمة، نقول:

الشرط الأول لفهم القرآن هو التسليم، إذ لا بد من روح التسليم لله تعالى، لتتوافر للإنسان بها القدرة على إدراك مفاهيم القرآن، وهذا أكبر امتحان للبشر على الأرض. ولقد فشل الشيطان من قبل في هذا الامتحان، ويحاول جاهداً في حمل البشر على الطريق المنحرف، الذي قاده إلى النار.

اطردوا الشيطان باللعن

وهكذا ينبغي للإنسان أن يستعيذ بالله من الشيطان، لكي

(١) سورة الزخرف، آية ٤٤.

يتخلَّص من صفاته الرذيلة، ومنها الكبر. فاللعن إحدى طرق التخلُّص من شر الشيطان، لأنه كائن متكبر، وما لم يُطِعْهُ ابن آدم، وما دام يلعنه، فإنه يفرّ ويبتعد. ألا ترى أن السبب في عدم سجود الشيطان لآدم كان التكبر والأنانية؟ كان الشيطان أنانياً، حيث ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٞ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[1]. وقد أغوى إبليس من تولاَّه من الأمم السالفة، فجعلهم يتكبرون، ولذلك كان كفرهم بالأنبياء يعود لهذا السبب، وإلَّا فما الذي كانت تُشكِّله طاعة الأنبياء من خطر على البشرية؟

لقد كانوا على مستوى راقٍ جدًّا في التحلي بالفضائل ومن جميع النواحي الأخلاقية والاجتماعية والعلمية، إذ كانوا أمناء صادقين كراماً محبوبين، وكانوا معروفين بالأمانة والصدق حتى قبل إعلانهم نبواتهم، بل إنهم عليهم السلام لو ادّعوا الملوكية بدلاً من النبوة لاتُّبعوا وأُطيعوا، ولكنهم ما أن قالوا: نحن أنبياء الله، خطَّؤوهم واعترضوا عليهم وقالوا: لا نريد الأنبياء!.

فلماذا يا ترى؟.

إنما لِكِبْر الأمم، ولأنهم لم يتمتعوا بروح التسليم لله تعالى.

والله عز وجل يُحذِّر الإنسان من هذه الحالة المريرة، ليكفَّ عن التكبر والأنانية، ولِيُسلِّم للأوامر والنواهي الإلهية فيطيعه ليفوز بخير الدنيا والآخرة.

إن هذه هي حكمة الله المتعال سبحانه، ولو أراد لبعث بدلاً من الرسول الإنسان هيكلاً ضخماً كبيراً ذا قوة استثنائية ومالٍ وفير. ولكن

(١) سورة الأعراف، آية ١٢.

الناس كانوا سوف يتبعون -في هذه الحالة- أمواله وهيكله وقوته، دون علمه ودينه ووحيه.

إنّ هذه إحدى الحقائق المهمة الخاصة بالعلاقة بين الإنسان وربِّه، ولهذا السبب يقول الله في سورة (يس) أولاً: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ ثم يقول ثانياً: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾. إذ لا بد من توافر روح التسليم والإقرار بأن النبي قد بُعث من قبل الله تعالى، فإذا توافرت هذه الروح في الإنسان، تأتّى الشرط الثاني، وهو الخشية من الله سبحانه.

مصطلح (الخشية) إلى جانب كلمة (الرحمن)

هنا وردت كلمة (الرحمن) أيضاً، وحيث يريد الله سبحانه وتعالى أن تستقر خشيته في قلب الإنسان، ولكن رحمته واسعة أيضاً.

نقلوا عن أحدهم أنه تساءل قائلاً: لو كانت السماء قوساً، والبلاء سهماً، والرامي هو الله، فأين لنا أن نفر؟.

ينبغي أن يُجاب بأن القرآن يُرشدنا إلى أين نفر، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[1]. إننا نخشى عقوبة الله، ولكننا نفر ونلجأ إلى رحمته.

إن طريقة اختيار الكلمات في الآية مورد البحث من سورة (يس) المباركة ممتازة، حيث تواجهنا في البدء كلمة (الخشية) الثقيلة الوقع، ثم ننظر بعد ذلك مباشرة إلى كلمة (الرحمن) فتتنفس الصعداء، وتتوافر لنا المعادلة الإيمانية المباركة بين الخوف والرجاء.

لقد أتاح الله تعالى لنا أن نلجأ إليه وننتفع بالرحمة الإلهية الواسعة.

---

(١) سورة الذاريات، آية ٥٠.

الخوف الدنيوي والأخروي

وقع الاختلاف بين المفسرين حول المقصود بالغيب الوارد في قوله سبحانه: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، فقال البعض: المقصود أن يخاف الإنسان ربَّه حتى في بيته، ولكن ثَمَّ إشكال يواجه هذا الرأي، فإذا كان الإنسان ذا خشية من ربِّه، فلا يفرق عنده أن يخشى ربَّه في بيته أو في خارجه.

وهناك رأي آخر مفاده أن الإنسان يخشى ربَّه لئلَّا يتورط بعذاب الله وعقوبته في يوم القيامة والدار الآخرة. فالغيب يعني الآخرة، والخوف من الغيب يعني الخوف من الآخرة، وعليه يكون حرف الباء السابق لكلمة (الغيب) بمعنى المعية. وهذا المعنى أيضاً لا يُقنعنا؛ لأن مفهوم الآية قد اختُصَّ بالآخرة فحسب، والأروع أن يعمَّ الغيبُ دارَ الدنيا ودارَ الآخرة.

ويُمكن أن يكون معنى الغيب هنا كل الغيب، بأن يكون إيمان الفرد بالغيب إيماناً تامًّا، فيقر بكل أبعاد الغيب ويؤمن بجميع ما في الغيب، ولا يكون مثل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وذلك لأننا نقرأ في القرآن المجيد: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1]. حيث نستفيد أنه ما لم يكمل الإيمان، ولم يبسط جناحه على جميع زوايا الحياة، فلن تكون له ثمرة تُذكر. أما إذا تم الإيمان وشمل الغيب، فإنه يصار بصاحبه إلى حيث رحاب قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾.

في هذه الآية المباركة قرن كل معنى واصطلاح إلى قرينه: (اتبع الذكر) و(خشي الرحمن) وكذلك (فبشره) مع (إنما تنذر) بالإضافة إلى: (مغفرة) و(أجر كريم).

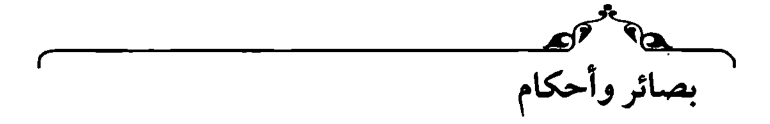
(١) سورة المائدة، آية ٢٧.

كيف تُمحى الذنوب السابقة

ثم المغفرة ومحو الذنوب السابقة مشروطان بالقيام بصالح الأعمال، فمثلاً حين قال رسول الله ﷺ: «**الإِسْلَامُ يَجِبُّ مَا قَبْلَهُ**»[1]؛ بمعنى محو الذنوب التي ارتكبها الإنسان قبل اعتناقه الإسلام، فإنه ليس مطلقاً وإنما لمن أصلح عمله بعد الإسلام، حيث رُوي عن فضيل بن عياض قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنِ الرَّجُلِ يُحْسِنُ فِي الْإِسْلَامِ أَيُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟

فَقَالَ: **قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ**[2].

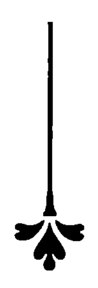
ومن هنا فمن وأد ابنته في الجاهلية مثلاً، فإنه لن يُقتصَّ منه في الظاهر، ولكنه في الواقع سيُؤاخَذ على فعلته يوم القيامة إن لم يحسن إسلامه. وهكذا نعرف شرط المغفرة أن يكون التائب صادقاً، وإلَّا فإن السيئات المدونة في كتابه ستُكشف مرة أخرى.



بصائر وأحكام

من دون إتّباع الذكر وخشية الله بالغيب، لا يمكن للإنسان أن ينتفع بالنُّذُر الإلهية التي جاء بها رسل الله.

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٧، ص٤٤٨.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٤٦١.



كل شيء أحصي في إمام مبين

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ طَالِباً، أَلَا وَإِنَّ طَالِبَهَا يَكْتُبُ ﴿مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾»(١).

وعن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ: اتَّقُوا الْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا طَالِباً. يَقُولُ أَحَدُكُمْ: أُذْنِبُ وَأَسْتَغْفِرُ. إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهَآ إِن

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٢٨٨.

تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾»[1].

تفصيل القول

بعد التذكرة بالرسالة في مفتتح آيات هذه السورة، يُذكِّرنا ربُّنا سبحانه بالقيامة حيث يحيي الله الموتى وقد كُتِبت أعمالهم وآثارهم وأُحصِيَت -وكل شيء- في إمامٍ مبين.

في هذه الآية عدة تأكيدات:

(إن) من حروف التأكيد، وصيغة الجمع تفيده التأكيد أيضاً، كما أن الجملة وردت اسميةً وهي تأكيد إضافي، إضافة إلى استعمال ضمير الفصل في الجملة مما يوحي بالتأكيد أيضاً.

وقد يقول البعض: لِمَ كلّ هذا التأكيد؟ فلو كان للإنسان أذن واعية، كان في غنىً عن التأكيد، لأنه سيستوعب ويقرَّ من فوره، ولو أنه لم يقرّ بدءاً، ما كان كل هذا التأكيد ينفعه.

الحقيقة أن أزمة البشر ليست في عقولهم وأنها لا تدرك الحقائق الغيبية، وإنما البشر غافلون، وينبغي أن يُنَبَّه الغافل بالتأكيد والتذكير، وربَّما بالصيحة الصاعقة، ذلك لأن القرآن لا يُنبِّه الكافر فحسب، وإنما يُنبِّه المؤمنين أيضاً.

فنحن نقرّ بالآخرة ولا نقرّ. كيف؟ نقرّ بها لأننا نقول: أخبرنا الله ورسوله بالآخرة. ولا نقرّ بها، لأننا لم ننظم برنامج حياتنا وفقاً لمتطلبات الآخرة.

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج١٥، ص٣١١.

فنحـن غافلون إذن ولسـنا بكافرين. وهكـذا فنحن بحاجة إلى طي المسافة بين الإيمان النظري والعملي.

١ - ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾

الصيغـة في الآية الكريمة صيغة مضارع، دون اسـتباقها بحرف سـين أو سـوف، لئلَّا يكون المفهـوم خاصًّا بالمسـتقبل، إذ المـراد -كما يبدو- يدل على الاستمرار ممَّا يشمل الحال والمستقبل.

وهكذا وبما أن التعبير بـ﴿نَكۡتُبُ﴾ غير المسبوق بحرف سين أو سوف، فإنه قد يعني أننا نكتب مباشرة كل عمل صادر عنهم، جملةً جملةً، وحرفاً حرفاً، كما نكتب ما تركوا من تراث وأثر.

وواضح أن الكتابة تعني الإثبات، وواضح أن لكل حركة آثارها على المحيط القريب، حتى قيل: إن لكل كلام يُلفظ ذبذباته الصوتية في الفضـاء، مع أن هـذه الذبذبات تتبخَّر في الجو كـما يتطاير دخان التبغ، إلَّا أنهـا لا تنعـدم تماماً، وقد يـأتي يوم يمكن للعلـم ملاحقتها ومعرفة أبعادها، ذلك لأنه لا من شيء يُمحى أو يزول تماماً، ولذلك فإن أشياء كثيرة ستشـهد على ابن آدم في يوم الحسـاب؛ الشـأن في ذلك كشأن من يُصاب بكسر في سـاقه مثلاً، فهـو وإن عالجها وبرئت في الظاهر إلَّا أن الجينـات تبقى حاملة لما أصاب السـاق من ضعـف، حتى أنه قد ينتقل بالوراثـة إلى الأجيال اللاحقة. وهذا نوع من تثبيت الحوادث والوقائع الحاصلة لبدن الإنسان.

وهكذا؛ فإن كل الآثار تُكتب، وهذه الكتابة لا تعني مجرَّد إثباتها في ورقة أو لوحة أو ما أشبه، بل البقاء في الأرض والسماء.

بلى؛ من مصاديق ذلك، ما يُدوَّن في الكتاب ويحمل في الأعناق،

كما قال ربُّنا سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1].

ونتساءل: أين تُكتب أفعال الإنسان؟

وللإجابة يقال:

تُدوّن آثار الإنسان في محال شتى؛ في اللوح المحفوظ، في الملف الشخصي، في السماء والأرض والطبيعة، في بدن الإنسان نفسه، في العقل والنفس، ولدى الملائكة الكرام الكاتبين.. قال تعالى:

٢- ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

إحصاء كل ما في الدنيا

للمحاسبة على العمل مرحلتان: إحداهما تدوينه وكتابته، وثانيتهما إحصاؤه. فمثلاً: إذا قلنا: إننا تحدثنا في ليلة الاثنين عن الآية الفلانية، فهذا يعني كتابتها ولكن لا يعني إحصاءها. أما إذا قلت: حضر في المجلس عدة أشخاص وقد استغرق اجتماعهم ساعة كاملة، وأن من حضر يتصفون بصفات كذا، وكذا.. فهذا إحصاء وهو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾.

الإحصاء هو الدقة في العدّ، وربّما في بيان سائر الخصوصيات. والإنسان عادة يُخطئ في إحصائه، ولكن إحصاء الله لا نقص فيه.. وفيه نجد حتى أنفاس الإنسان قد عُدَّت، وكم مرة أغمض وفتح عينيه، وكم من الطاقة بذل، وكم خلية استهلك، وما هي الوساوس

---

(١) سورة الاسراء، آية ١٣-١٤.

التي خطرت على قلبه؟.. ولهذا قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَهُ﴾.

الإحصاء يعني العد بكل تفصيله.. ولم يقصد في هذه الآية الإنسان فحسب. فالقرآن لم يقل: كل إنسان أحصيناه، وإنما قال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ أي كل شيء في هذه الدنيا له عدُّه وإحصاؤه، حيث تُعدّ الذرات بجزيئاتها.. ذرات التراب والماء والهواء و.. و..

قال لي طبيب: هل تريد أن تضعف بدنك.

قلت: نعم.

فقال: لك أن تتناول ألف وخمسمائة وحدة حرارية في الصباح، وستمائة وحدة حرارية عند الظهيرة.

قلت: ولكنني لا أعرف كم تحتوي الأطعمة التي أتناولها على الوحدات الحرارية.

قال: ينبغي أن تحسب!.

لقد حددوا اليوم كم تحوي قطعة محدّدة من الخبز وحدات حرارية للبدن. ومعلوم كم من الحديد في بدن الإنسان. فقالوا: إن كمية الحديد في البدن تعادل مسماراً من الحديد، وقالوا: إن حوالي خمس وسبعين بالمئة من الدماغ يتشكل من الماء.. إنها معلومات عن حقائق عالم الوجود، ووزن الهواء، وحركة النور، ووزن البحار والجبال.. كل ذلك قد تم إحصاؤه وكُتِب في محله.

هذا عن علم الإنسان المحدود في كل شيء، فما بالك عن علم خالقه وخالق كل شيء؟.

لو أمعنا النظر في القرآن المجيد، لعرفنا أن أسلوب كتاب الله

أن يذكر مثلاً لحقيقة شاملة ثم يبيِّنها ويبصِّرنا بأبعادها. وهنا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ فبيَّن لنا كيف يكتب ربُّنا ما يُقدِّمه البشر من أعمال، ثم ما يخلّفه من بعده من آثار. ولكن هذا مجرَّد مثال، أما الحقيقة الكلية، فقال عنها سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ بدقة تامة. ولكن أين يتم هذا الإحصاء التام والدقيق؟ هو ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أي: إمام موضِّح وكاشف.

ملاحظة الفرق بين (نكتب) و(كتاب)

قد قال الله تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ فالحديث عن الكتابة والتدوين. ولكن لماذا غيّر السياقُ الكلمةَ من كتاب إلى إمام، كما غيَّر من الكتابة إلى الإحصاء، والحال أنّ (نكتب) و(كتاب) يصدران عن مادة لغوية واحدة؟

استعمال كلمة (إمام) بدلاً من (كتاب)

ينبغي أن يقال بخصوص السبب وراء استعمال كلمة (إمام) في سورة (يس) بدلاً من كلمة (كتاب):

إن الإمام هو شخص يُقتدى به، وإنه يتقدَّم ويتبعه الآخرون. وصفة (مبين) تعني المبيِّن والكاشف والموضِّح، وهي اسم فاعل من: أبان، وهو فعل متعدي، وبان: فعل ثلاثي مجرَّد ولازم بمعنى ظهر، أي: اتّضح. ولكن: أبان، يعني فرّق بين شيء وشيء.

وحينما يقال: أبان، فيعني: نطق بكلام مفصَّل، أو: تكلَّم وهو ناوٍ للتفريق بين معانٍ شتّى. فما هو هذا الإمام المبين؟

قال المفسرون: إنه اللوح المحفوظ.

ويؤخذ على هذا التفسير: لِمَ لَمْ تتم الاستفادة من كلمة (اللوح المحفوظ) في الآية مباشرة؟

وعليه؛ لا ينبغي قبول التفسير أعلاه بعين مغمضة، والقول بأن الإمام المبين هو اللوح المحفوظ، حيث إن الظاهر أن البيان هنا للناس، واللوح المحفوظ لا يُبيِّن الحقائق للناس مباشرة.

ومن هنا نقول: إنه يبدو أن الإمام هنا بمعناه الحقيقي والمتبادر للذهن، وهو الشخص القائد والقدوة الحقيقية. وهناك ما يؤيد هذا التفسير، وهو الآية التالية القائلة: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. كيف؟

لأنه في هذه الآية أراد الله سبحانه وتعالى بيان مَثَلٍ، وماذا يعني المَثَل؟ المَثَل هو أن يتم الحديث عن حقيقةٍ مطلقةٍ مّا، ثم إذا أريد بيانها، ضُرِبَ مَثَلٌ. فإذا كان المَثَل غير منطبق على منحى الحديث، كان مدعاة للتعجب. فإذا قلنا: كل فاعل مرفوع، ثم قلنا للتمثيل: مثال ذلك: الله واحد. أصبح الأمر غير مألوف، لأن ما مثّلنا به غير مناسب للموضوع.

ولكن القرآن المجيد بعد قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. وهذا التمثيل يوضح ويكشف أن (الإمام المبين) هو (المرسَل). فكأن الله تعالى حينما قال: ﴿فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ انبثق سؤال على قوله هذا، فيقال: مِثْل ماذا؟ فيجيب عز وجل قائلاً: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

وبناءً على هذا؛ فإن الإمام المبين، يتجسَّد في الأنبياء والأوصياء، وفي مقدمة هؤلاء نبينا الأعظم محمد ﷺ، والإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

هذا ما نستفيده من الآية الكريمة.

وهناك احتمال آخر بأن يكون المقصود بالإمام في الآية هو كتاب، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

ولكن يُستبعد هذا الاحتمال، حيث إن لفظ ﴿إِمَامًا﴾ في الآية ليس بدلاً أو عطف بيان على (كتاب) حيث المفروض آنئذٍ أن يكون مرفوعاً، طبقاً لقواعد اللغة العربية، بينما نراه في حالة نصب، ويحتمل أن يكون تقدير الآية: ومِنْ قبل ذلك جاء كتاب موسى الذي أنزل، إذ كان موسى إماماً ورحمة.

وقد ورد في عديد من الروايات أن الإمام المبين هو مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، حيث رُوي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: «**لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى رَسُوْلِ الله ﷺ ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قَامَ رَجُلَانِ مِنْ مَجْلِسِهِمَا فَقَالَا: يَا رَسُوْلَ الله؛ هُوَ التَّوْرَاةِ؟**

قَالَ: كَلَّا.

قَالَا: هُوَ الإِنْجِيْلُ؟

قَالَ: كَلَّا.

قَالَا: هُوَ القُرْآنُ؟

(١) سورة الاحقاف، آية ١٢.

قَالَ: كَلَّا.

قَالَ: فَأَقْبَلَ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلِيٌّ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: هُوَ هَذَا، إِنَّهُ الإِمَامُ الَّذِيْ أَحْصَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيْهِ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ»[1].

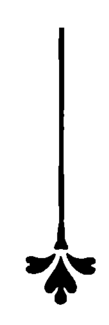
بصائر وأحكام

١- إن أزمة البشر لا تتمثَّل في أن عقولهم لا تُدرك الحقائق، بل في غفلتهم، وينبغي أن يُنبَّه الغافل عبر التذكرة والصيحة والصعقة.

٢- إن كل الأعمال والآثار تُكتب، وهكذا فهي باقية؛ ومن مصاديق ذلك، ما يُدوَّن في الكتاب ويُحمل في الأعناق يوم القيامة.

٣- والله سبحانه أثبت كل شيء وبدقة فائقة عند إمام مبين.

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٢٣٥.



واضرب لهم مثلاً

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

* * *

تفصيل القول

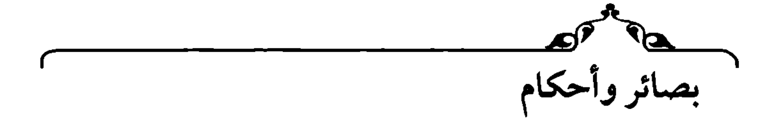
القرية -كما في التفاسير- هي مدينة أنطاكية.

والمَثَل هو مصداق واضح من الحقيقة.

وبخصوص كلمة ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ التي استُعمِلت بدلاً من كلمة (بلد أو المدينة) في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قال البعض: يُراد بالقرية في الثقافة القرآنية المنطقة التي يقطنها الظالمون، أما (البلد) فَيُقْصَد به المكان الذي يحكمه حاكم عادل أو يسكنه الصالحون.

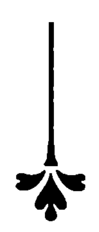
ونتساءل لماذا قال ربنا سبحانه: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ دون أن يقول: إذ جاءهم، حيث جاء المرسلون إلى ساكني القرية، وليس القرية ذاتها؟.

لعل الجواب: إن هذا التعبير للدلالة على شمول الأهالي كلهم. فمن أراد أن يقول: أنا رأيت جميع أهل القرية، قال: رأيت القرية، لأنه إذا قال: رأيت أهل القرية، فإنه قد يفهم منه أنه رأى بعض أهلها ولم ير بعضهم الآخر. وفي هذه الآية حيث نُسِب الكلام إلى القرية وليس لأهلها، أدَّى التعبير إلى مفهوم عام وشمولي.



بصائر وأحكام

جاءت الرسالات الإلهية شاملة إلى كافة الناس ودون تمييز، ولعله لذلك كان التعبير بالقرية وليس بأهلها.



إنا إليكم مرسلون

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

* * *

تفصيل القول

المرسَلون الثلاثة الذين تتحدَّث عنهم الآية الشريفة، يُحتمل ألَّا يكونوا أنبياء، وإنما هم مبعوثون من قبل الأنبياء، ويصعب علينا التأكيد على أسمائهم، لأن مثل هذه الأسماء ربَّما اعتمد المفسِّرون فيها على مُدوَّنات أهل الكتاب، وما ذكرتها لا يمكن أن نصدقه جملة واحدةً.

بلى؛ قد نُقِل عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قصة هؤلاء كما يلي:

قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ بَعَثَ اللهُ رَجُلَيْنِ إِلَى

أَهْـلِ مَدِينَةِ أَنْطَاكِيَـةَ فَجَاءَاهُمْ بِمَا لَا يَعْرِفُونَهُ فَغَلَّظُـوا عَلَيْهِمَا فَأَخَذُوهُمَا وَحَبَسُـوهُمَا فِي بَيْـتِ الْأَصْنَامِ، فَبَعَـثَ اللهُ الثَّالِثَ فَدَخَـلَ المَدِينَةَ فَقَالَ: أَرْشِدُونِي إِلَى بَابِ المَلِكِ.

قَـالَ: فَلَـمَّا وَقَفَ عَلَى بَابِ المَلِـكِ. قَالَ: أَنَا رَجُلٌ كُنْـتُ أَتَعَبَّدُ فِي فَـلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْبُدَ إِلَهَ المَلِكِ، فَأَبْلَغُوا كَلَامَهُ المَلِكَ، فَقَالَ: أَدْخِلُوهُ إِلَى بَيْتِ الْآلِهَةِ، فَأَدْخَلُوهُ فَمَكَثَ سَـنَةً مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَقَالَ لَهُمَا: بِهَذَا نَنْقُلُ قَوْماً مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ لَا بِالخُرْقِ، أَفَلَا رَفَقْتُمَا؟.

ثُـمَّ قَالَ لَهُمَـا: لَا تُقِـرَّانِ بِمَعْرِفَتِي، ثُـمَّ أُدْخِلَ عَلَى المَلِـكِ فَقَالَ لَـهُ المَلِـكُ: بَلَغَنِي أَنَّـكَ كُنْتَ تَعْبُـدُ إِلَهِي فَلَـمْ أَزَلْ وَأَنْتَ أَخِي فَسَـلْنِي حَاجَتَـكَ، قَـالَ: مَا لِي حَاجَةٌ أَيُّهَـا المَلِكُ، وَلَكِنْ رَجُلَـيْنِ رَأَيْتُهُمَا فِي بَيْتِ الْآلِهَـةِ فَمَا حَالُهُمَا؟ قَالَ المَلِـكُ: هَذَانِ رَجُلَانِ أَتَيَـانِي يُضِلَّانِ عَنْ دِينِي وَيَدْعُوَانِ إِلَى إِلَهٍ سَمَاوِيٍّ.

فَقَـالَ: أَيُّهَا المَلِكُ، فَمُنَاظَرَةٌ جَمِيلَةٌ، فَـإِنْ يَكُنِ الحَقُّ لَهُمَا اتَّبَعْنَاهُمَا وَإِنْ يَكُـنِ الحَـقُّ لَنَـا دَخَلَا مَعَنَـا فِي دِينِنَا، فَـكَانَ لَهُمَا مَا لَنَـا وَعَلَيْهِمَا مَا عَلَيْنَـا، قَـالَ: فَبَعَثَ المَلِكُ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا دَخَلَا إِلَيْـهِ قَالَ لَهُمَا صَاحِبُهُمَا: مَا الَّذِي جِئْتُمَانِي بِهِ؟.

قَالَا: جِئْنَا نَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَيَخْلُـقُ فِي الْأَرْحَـامِ مَا يَشَـاءُ، وَيُصَـوِّرُ كَيْفَ يَشَـاءُ، وَأَنْبَتَ الْأَشْـجَارَ وَالثِّمَارَ، وَأَنْزَلَ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ.

قَالَ: فَقَالَ لَهُمَا: إِلَهُكُمَا هَذَا الَّذِي تَدْعُوَانِ إِلَيْهِ وَإِلَى عِبَادَتِهِ، إِنْ جِئْنَاكُمَا بِأَعْمَى يَقْدِرُ أَنْ يَرُدَّهُ صَحِيحاً؟.

قَـالَا: إِنْ سَـأَلْنَاهُ أَنْ يَفْعَـلَ فَعَلَ إِنْ شَـاءَ، قَالَ: أَيُّهَـا المَلِكُ، عَلَيَّ

بِأَعْمَى لَا يُبْصِرُ قَطُّ، قَالَ: فَأُتِيَ بِهِ، فَقَالَ لَهُمَا: ادْعُوا إِلَهَكُمَا أَنْ يُرَدَّ بَصَرَ هَذَا، فَقَامَا وَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ فَإِذَا عَيْنَاهُ مَفْتُوحَتَانِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ، عَلَيَّ بِأَعْمَى آخَرَ، فَأُتِيَ بِهِ، قَالَ: فَسَجَدَ سَجْدَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا الأَعْمَى بَصِيرٌ، فَقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ، حُجَّةٌ بِحُجَّةٍ، عَلَيَّ بِمُقْعَدٍ، فَأُتِيَ بِهِ، فَقَالَ لَهُمَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَصَلَّيَا وَدَعَوَا اللهَ فَإِذَا المُقْعَدُ قَدْ أُطْلِقَتْ رِجْلَاهُ وَقَامَ يَمْشِي، فَقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ، عَلَيَّ بِمُقْعَدٍ آخَرَ، فَأُتِيَ بِهِ فَصَنَعَ بِهِ كَمَا صَنَعَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَانْطَلَقَ المُقْعَدُ.

فَقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ قَدْ أَتَيَا بِحُجَّتَيْنِ وَأَتَيْنَا بِمِثْلِهِمَا، وَلَكِنْ بَقِيَ شَيْءٌ وَاحِدٌ فَإِنْ كَانَ هُمَا فَعَلَاهُ دَخَلْتُ مَعَهُمَا فِي دِينِهِمَا، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ، بَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ لِلْمَلِكِ ابْنٌ وَاحِدٌ وَمَاتَ فَإِنْ أَحْيَاهُ إِلَهُهُمَا دَخَلْتُ مَعَهُمَا فِي دِينِهِمَا، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: وَأَنَا أَيْضاً مَعَكَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: قَدْ بَقِيَتْ هَذِهِ الخَصْلَةُ الْوَاحِدَةُ قَدْ مَاتَ ابْنُ المَلِكِ فَادْعُوا إِلَهَكُمَا أَنْ يُحْيِيَهُ، قَالَ: فَخَرَّا سَاجِدَيْنِ للهِ وَأَطَالَا السُّجُودَ، ثُمَّ رَفَعَا رَأْسَيْهِمَا وَقَالَا لِلْمَلِكِ: ابْعَثْ إِلَى قَبْرِ ابْنِكَ تَجِدْهُ قَدْ قَامَ مِنْ قَبْرِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ، قَالَ: فَخَرَجَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ فَوَجَدُوهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ التُّرَابِ، قَالَ: فَأُتِيَ بِهِ إِلَى المَلِكِ فَعَرَفَ أَنَّهُ ابْنُهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَالُكَ يَا بُنَيَّ؟.

قَالَ: كُنْتُ مَيِّتاً فَرَأَيْتُ رَجُلَيْنِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّيَ السَّاعَةَ سَاجِدَيْنِ يَسْأَلَانِهِ أَنْ يُحْيِيَنِي فَأَحْيَانِي، قَالَ: يَا بُنَيَّ، فَتَعْرِفُهُمَا إِذَا رَأَيْتَهُمَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَخْرَجَ النَّاسَ جُمْلَةً إِلَى الصَّحْرَاءِ فَكَانَ يَمُرُّ عَلَيْهِ رَجُلٌ رَجُلٌ فَيَقُولُ لَهُ أَبُوهُ: انْظُرْ، فَيَقُولُ: لَا لَا، ثُمَّ مَرَّ عَلَيْهِ بِأَحَدِهِمَا بَعْدَ جَمْعٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ: هَذَا أَحَدُهُمَا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَيْهِ، ثُمَّ مَرَّ أَيْضاً بِقَوْمٍ كَثِيرِينَ حَتَّى رَأَى صَاحِبَهُ الْآخَرَ فَقَالَ: وَهَذَا الْآخَرُ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَاحِبُ الرَّجُلَيْنِ: أَمَّا أَنَا فَقَدْ آمَنْتُ بِإِلَهِكُمَا، وَعَلِمْتُ أَنَّ مَا جِئْتُمَا بِهِ هُوَ الحَقُّ، فَقَالَ المَلِكُ:

وَأَنَا أَيْضاً آمَنْتُ بِإِلَهِكُمَا، وَآمَنَ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ كُلُّهُمْ»[1].

وما ذُكِر هنا من إيمان الملك لا يتفق مع سياق الآيات التالية، إذ لـو أنـه آمن الملك وأهل القرية لما نزل بهـم العذاب، والحال أن الآيات أشارت إلى عذاب نزل بساحتهم.

ويمكـن أن نقـول: إن حاكـم أنطاكيـة الـذي كان محبًّا لشـعبه، أصبح مُوحِّداً، ولكن قيصر الروم وسكان فلسطين (كنعان) لم يكونوا كذلك. وتشـبيهاً لذلك، نقـول: إن الملك المذكـور كان كالحر بن يزيد الرياحـي الـذي انضم إلى معسـكر الإمام الحسـين عليه السلام، أما القيصر الـذي يفوقه مرتبـة فقد كان كيزيد أو ابن زياد أو عمر بن سـعد الذين سقطوا في حضيض العذاب وسوء العاقبة.

أوصياء النبي رسلٌ

في البـين بحث وقع بين المفسرين، وهو: هل إن المرسـلين الذي جـاؤوا إلى أنطاكيـة، بُعِثوا مـن جانب الله تعالى مباشرةً، أم أنهم رُسُـل للنبي عيسى عليه السلام؟

يُحتمـل أن يكـون الذي بُعِث من جانب رسـول الله لأداء مهمة ما، يسـميه القرآن العظيم رسـولاً، هذا مع إمكانية أن يُسـمّى أوصياء الأنبياء رسـلاً، وقـد وصف أمير المؤمنين عليه السلام نفسـه في حادثة تبليغ سـورة براءة لقريش قائلاً: «**إِنِّيْ رَسُـوْلُ رَسُـوْلِ الله**»[2]، بـل إن القرآن الكريـم ذهب أبعـد من ذلك إذ وصف أمـير المؤمنين عليه السلام بأنه نفس

---

(١) بحار الأنوار، ج١٤، ص٢٤٠.

(٢) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج١، ص١٨.

رسـول الله ﷺ كـما هـو الـوارد في آيـة المباهلـة الشريفة: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[1].

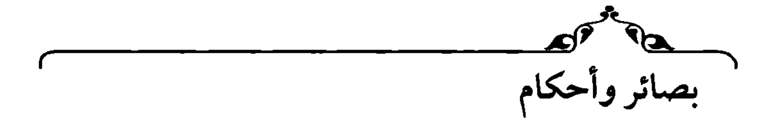
ثم قال ربُّنا سبحانه:

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾

لدعم الرسولين الأولين، أُرسِل شخصٌ ثالث.

وهـذا الإرسـال الثالث له جـذر وصلة برحمة الله تعـالى. فأهل القريـة قد كذبوا الرسـولين الأولين، ولم يقرّ لهـما أحد. ولا ريب في إن التكذيب بالرسل يتبعه عذاب.

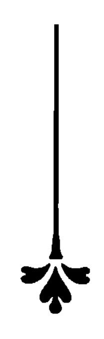
وقـد وقع هذا العذاب الماحق بعد أن تمـت الحجة، بعد أن عزَّز الله رسوليه برسول ثالث؛ لم يعرّف عن نفسه باعتباره رسولاً حقًّا، لئلَّا تُثار مشـاعر الناس كما أُثيرت مع الرسـولين اللذين سبقاه، وكل ذلك مـن أجل هدايتهـم، ولكن الناس اسـتمروا في عنادهم وتكبُّرهم، فلم يؤمنوا. فلمَّا تمت الحجة عليهم، نزل بهم العذاب.



بصائر وأحكام

مـن رحمـة الله سـبحانه بعباده أن يُتِـمَّ حجته عليهـم بكل معنى الكلمة قبل أن يُقدِّر لهم العذاب.

(١) سورة آل عمران، آية ٦١.



إنكار وتحدي

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

الموقف الذي اتّخذه أصحاب القرية، هو الموقف ذاته الذي طالما كان الكفار يمارسونه عبر التاريخ. فقالوا لهم:

١ - ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾

فنظروا إلى المرسلين وأجسامهم، فرأوها نفس أجسامهم، ورأوا حاجاتهم البدنية ذات حاجاتهم البشرية، فلم يستوعبوا كيف أرسل ربُّ العالمين إليهم من أمثالهم أنبياء، استصغاراً لدور الإنسان في حمل رسالات الرَّبِّ أو استكباراً من التسليم لبشر مثلهم. ثم قالوا:

٢- ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾

ترى كيف تحوّل اعتراضهم إلى إنكار للرسالة، حيث نفوا الرسالة رأساً وذكروا أن الرحمن لم يُنزل شيئاً من الوحي. حقًّا كان ذلك يعبِّر عن طغيانهم، فهم حيث أنكروا الفضل على المرسلين راحوا ينكرون أصل النبوة، بزعم أنه لو كان ثم إله رحمن لأرسل رحمته على غير هؤلاء الذين لا يختلفون عنهم في شيء من ظاهرهم.

وفيما بعد راحوا يتَّهمون المرسلين بالكذب علناً، فقالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

وجذوة القول: إن كافري هذه القرية ألقوا الشبهة على المرسلين، وأنكروا رسالتهم، وتحدَّوهم في مُدَّعاهم الصادق.. وكل ذلك يتجسَّد فيما يلي:

١- لم يستطيعوا تجاوز العقبة المتمثلة في كِبْرٍ في صدورهم، منعهم من اتّباع مَنْ هم أمثالهم في الظاهر.

٢- أنكروا الوحي والعلاقة بين الغيب والشهود.

٣- اتَّهموا نبي زمانهم بالكذب وتحدَّوه علناً.

وعلى مر العصور، ولا سيما في عصرنا الراهن، نجد مواجهة الحق خاضعة للمراحل الثلاث المشار إليها. فمن ينهاني عن المنكر ويقول لي مثلاً: لا تكذب، فإن رد فعلي الأول، أن أقول له: وما علاقتك أنت؟ أنت إنسان وأنا إنسان، فما الذي حدث لكي تتجرأ فتأمرني وتنهاني؟

ورد الفعل الثاني أن أقول له: ومن يقول: إن الكذب حرام؟

والـرد الثالـث أن أقول له: ولمـاذا أهنتني أساسـاً، ثم بعد ذلك أواجهه واتحدَّاه علناً وبلا حياء!

قـال رسـول الله ﷺ: «**بِئْسَ القَـوْمُ قَـوْمٌ يَقْذِفُـوْنَ الآمِرِيْـنَ بِالَمَعْرُوْفِ وَالنَّاهَيْنَ عَنِ المُنْكَرِ**»[1].

امتحان البشر الأكبر

لعل أكبر امتحان يتعرَّض له الناس -وكانوا يعانون منه الأمرّين طيلة التاريخ- هو أنهم أُمروا باتّباع بشر مثلهم.

وما لم يستطع الإنسان من تجاوز عقبة الكِبْر هذه والتي تدعو إلى عدم اتّباع المثل، فإنه سـيعجز عن حل مشـاكل أخـرى. فالله عز وجل بإرادته التامة امتحن ابن آدم عن عمدٍ بإنسـان مثله، فإذا فشـل في هذا الامتحان فإنه يفشل في سائر مراحل الامتحان قطعاً.

ولقد كانت المشكلة المشتركة بين الناس هي: أن هذا النبي مثلنا في الحاجة إلى الطعام والعمل والكسب، فهو يمشي في الأسواق، ويُعِدُّ لنفسه الطعام.. فما هذا النبي؟[2] ولطالما امتحن الرَّبُّ عبيده بما يرغبون فيـه ويميلـون إليه، فردعهم عنه لكي يمتحن مـدى طاعتهم. وكذلك كان إبليس يرغب في أن يسجد لله تعالى طيلة أربعة آلاف سنة بدلاً من سجدة واحدة لآدم عليه السلام في لحظات، ولكن الله أراد منه هذه السجدة بالذات، رغم ما أعلن إبليس أنها صعبة عليه وهي مُرة في مذاقه.

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١٢، ص١٨٣.

(٢) ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾. سورة الفرقان، آية ٧.

فكان يصعب على الإنسـان أن يستوعب هذه الحقيقة؛ كيف أن إنسـاناً آخر يهديه، وعليه اتّباعه والاقتداء به؟ ولكن الله شـاء أن يُمرِّغ أنـف الإنسـان المتكبر في التراب، فأرسـل إليه إنسـاناً مثلـه في الظاهر ليتَّبعه وينصاع لأمره ويقتدي به.

ولعـل هـذا هـو المراد ممـا تلوناه في الآيـة الثانية عـشرة من هذه السـورة المباركة، حيث تم التأكيد على مقـام من مقامات الإمام، ذلك القائـد القدوة الـذي جعله الله تعـالى امتحاناً للناس، فقـال في فضله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

ولكننا ومع الأسف نرى أن زرافات زرافات من الناس فضَّلوا الدخـول في النار على الإقرار بفضل الإمام الـذي جعله الله تعالى نوراً وهدىً وقدوة.

وكـم أرادوا التهـرُّب من مصطلـح (الإمام) وسـعوا إلى تأويل هـذه المفردة المقدسـة بالكتاب، ليتجنبوا التسـليم والانقيـاد والاقتداء بالإمام، لكبر في أنفسـهم، كيف يطيعون بـشراً مثلهم؟! وهكذا أوّلوا هذه الكلمة.

ولنا أن نتسـاءل: ما الفرق بـين أن يُحصي ربُّنا كل شيء في كتاب أو في قلب الرسول والإمام؟

يبدو أن إصرارهم هذا، كان بسـبب تكبّر الإنسـان الذي يجعله يُحبِّـذ مـا يكتب في القـرآن أكثر مما هو محـصى في قلب النبـي الأكرم أو قلـب أمير المؤمنين صلـوات الله عليهـما وآلهما، وذلك لأنهـم لو أقرّوا بالشـق الثاني لاضطـروا أن يقبلوا ما يصدر عنهم مـن تعاليم وأحكام ومناهـج، وهم يعلمون أن هـذا القبول مناقـض لأهوائهم، وأيضاً لا يتَّفق وحسدهم.

مسألة الإمامة والافتراق إلى فرق

ومن هنا كان أئمتنا المعصومون عليهم السلام لا يفتؤون يؤكدون على الإمامة، ولم يكن يتعلَّق ذلك فقط باختلاف الشيعة ومعارضيهم، بل وأيضاً بالنخبة من المؤمنين ممَّن حولهم وكان فيهم عظماء، مثل زرارة ومحمد بن مسلم وأبي بصير وذريح وغيرهم، حيث كانوا يخاطبونهم محُذِّرين بألَّا يُصابوا بداء الرغبة في التهرُّب من هداية النبي والأئمة، لأن الإصابة بهذا الداء العُضال يعني السقوط إلى درك الشرك والكفر.

مشكلة خطيرة!

نحن كطلبة ومثقفين سواء في الدراسة الدينية أو الأكاديمية نتعرَّض أكثر من غيرنا لمشكلة التسليم للرسول والإمام. فالطالب قد يدرس سنين معينة ويتفوَّق على سائر الناس، فيتحلَّق حوله الناس، فيشعر بالغرور العلمي.. ثم إذا صادف رواية تخالف رأيه أو هواه، رغب في أن يتلاعب بها شيئاً ما، فيُنقص منها أو يزيد عليها لتنتظم وهواه أو مصالحه.. وفي هذا امتحانه الكبير.

صبغة علمائنا الأعلام

كانت أكف بعض علمائنا الأعلام ترتجف قبل أن يكتبوا فتوى شرعية، وذلك خشية الخطأ؛ لأنهم كانوا يرون أنفسهم مسؤولين أمام الله والرسول والأئمة. بينما ترى البعض يقول بكل يسر وجرأة: هذه الرواية ضعيفة، أو تلك الرواية مخالفة للعقل، أو ما أشبه.. في محاولة

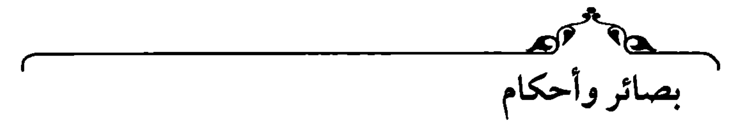
لـرد النصوص التـي تخالف آراءه أو أهـواءه. هذا في حـين أن فقهاءنا بذلـوا غاية جهدهـم في التحقيق في الروايات، ومع ذلـك كانوا قلقين جـدًّا في إصـدار الفتوى. وهـذا كله حاكٍ عـن مدى تسـليمهم للحق وتواضعهم لربِّهم ولرسولهم ولإمامهم.

نبوة للتظاهر

قـد نرى جماعـة يُقـرُّون بوحدانيـة الله ظاهـراً، ولكـن دون أن يخضعـوا لأحـكام الديـن؛ ومثلهـم مثل من يحـب أباه ولكنـه يكره في الوقـت نفسـه أن يخضع لتربيتـه ورعايته. وكذلك تـرى البعض يُظهر المحبة للأئمة عليهم السلام، فيُقيم شعائر العزاء أو مراسم الولادة لهم، ويقدم عـلى حبهم النذور، ولكنه لا يتمتع بثقافة التسـليم لهـم فيما يُبيِّنون من أحـكام.. فهو إذا ما واجه روايـة عنهم لا تتواءم ورغباته، اتَّهمها زوراً بالضعـف، حتـى أن أحدهم تجرَّأ على كتـاب (علل الشرائع) للشـيخ الصـدوق، مُدَّعياً أنه جمع ما فيه مـن كلمات ضعيفة، والحال أنه يحتوي في الغالب كلمات الإمام الرضا عليه السلام.

فلماذا يا ترى نجد من يرد على المعصومين عليهم السلام رواياتهم؟

السـبب في ذلـك أنه لا يقرّ في عمقه بمن بعثـه الله للهداية، وإنما يريـد نبيًّا يختاره للتفاخر به والتظاهر باسـمه، فلا يأمـر ولا ينهى.. إنه يريـده ألَّا يتدخَّـل في دنيـاه، ويرغـب في أن تكون شـهواته بـلا رادع، وتجارتـه بلا مانـع، فإن كان كذلك فهو نِعْمَ النبي.. كما أنه يريد للعلماء ما أراده للنبي والإمام، عالماً لا يتدخل في شـؤونه ولا يأمر ولا ينهى.. حتـى قـال قائلهـم بالفصـل بين الديـن والتجـارة. وهكذا بـين الدين والسياسة والقضاء والاجتماع.. وماذا سيبقى من الدين إذن؟



بصائر وأحكام

إن أكبر امتحان يتعرض له الناس -وكانوا يعانون منه الأمرّين طيلة التاريخ- هو أنهم يلزمون باتّباع بشر مثلهم. وما لم يستطع الإنسان من تجاوز عقبة -عدم الرغبة في اتِّباع المثل- فإنه سيعجز عن حل مشاكل أخرى.



إنا إليكم لمرسلون

﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

حينما يقدم الأنبياء على أقوامهم يُعرِّفونهم بأنفسهم بعبارات بالغة الوضوح والتأكيد، فيقولون: نحن مُرْسَلون حقًّا، ولا ريب في رسالتنا، ولا شبهة في كوننا أنبياء، وهكذا.. ولكن هل تُعدّ العبارات القاطعة دليلاً على نبوتهم؟.

بلى؛ ولكن كيف؟.

نلاحظ في هذا القسم من سورة (يس) المباركة مثل هذه العبارات.. ففي آية واحدة تصادفنا عدة تأكيدات: عبارة ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ و﴿إِنَّآ﴾ و(لام) التأكيد في كلمة ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾.

لا شك في إن كل هذا التأكيد نافع ومفيد، لأننا نعلم أن أولى

أزمـات البشر هي الغفلـة، ولا بد أن تُزاح، وبهذا التأكيد يمكن أن يتم ذلـك. فاذا أوشـك أحدهم بالسـقوط في بئر، فلا يلـزم أن تأتيه بدليل على وشـيك سـقوطه، وإنما عليك أن تناديه أو تصرخ فيه لينتبه وينجو من الهلكة.

وهكـذا الأنبياء، إنهـم مُذكِّرون للنـاس الذين وُصِفـوا في هذه السـورة المباركـة بأنهـم غافلون، ولم يتـم نعتهم بالجهل. لمـاذا؟. لأنهم كانوا يعرفون بوجدانهم، أو عقلهم، أو تراث أسلافهم، بأصول حقائق الدين، ولكنهم ابتُلوا بداء الغفلة، فاحتاجوا إلى التذكير. ومادام الفرد غافـلاً، فهـو بحاجة إلى التذكـير. وهكذا فإن تكـرار الموعظة لا يبعث عـلى الملل، ولطالما تمـت الاسـتفادة في القرآن من كلـمات التذكير مثل (هذا) و(أولئك) و(لام التأكيد) و(إن) و(قد).

هكذا اقتلوني

في قصـة أصحاب الأخدود حادثة عجيبـة تناولتها الأحاديث، حيـث ذكـرت قضية ذلك الغلام الذي آمن بالله تعـالى وأُخِذَ إلى الملك فأمر بقتله، فسـيق مع جماعة إلى البحـر فَرُمي فيه، فغرق جلادوه ونجا الغلام بإذن الله وعاد إلى الملك، وأخبره كيف أغرق الله جلاديه ونجّاه. فأمـر أن يُرمى به من قمة جبل، ولكنه مـرة أخرى نجا من الموت بإذن الله بعد أن قُتِل الذين أرادوا قتله. وهكذا تكرَّرت مرات نجاته بفضل الله، ولم يسـتطع الملك قتله بأية وسـيلة. إلَّا أنه قال لهم أخيراً: الحيلة في قتلي أن يتناول الملك في حشـد من الناس قوسـاً ويطلق السـهم نحوي بعد أن يقول: بسم الله ربِّ هذا الغلام.

ففعـل الملك ذلك، فاستُشـهِد الغـلام، واهتـزت ضمائر الناس

بذلك، وآمن كثير منهم[1].

إن في هذه القصة عبرة تتمثَّل في أن الهدف من الرسالات تذكير الغافلين. وهكذا جاء الرسولان إلى أهل تلك القرية، وقالا لهم:

جئناكم لندعوكم إلى دين التوحيد وعبادة الرحمن، ونحن جادون في دعوتنا كل الجد، فنحن الاثنين مبعوثان من قبل الله الواحد الأحد العالم بحقيقتنا.

إن هذه التعابير وأمثالها من شأنها أن تهز الضمائر، فراح قومهم يُفكِّرون بذلك، رغم أنهم تظاهروا باللامبالاة والسخرية، ولقد عرفوا أنهم على حق وأنهم لا يتقمصون دور المبعوثين من قبل السماء.

إثارة العقل العاطل

على أية حال؛ هل لأدوات التأكيد أن تؤدي وظيفتها وتفعل فعلها في إيقاظ الغافلين النائمين، وأن تثير العقول المعطلة أو الصدئة؟

بلى؛ إنّ ذكر اسم الله عز وجل في محضر الطاغوت المُتجبِّر يهزّه من إعماقه إذا ما كان الناطق جادًّا صادقاً، لأن الله موجود قائم بالحق والقسط، ولأسمائه الحسنى (حقيقة صادحة)، كما إنّ ذكر اسمه المتعال يفيض بالخير والبركة. أرأيت لو تعثَّر المرء وسقط أرضاً، فإنه لو ذكر الله تعالى من صميم قلبه، أليس كان ذلك درعاً له وردءًا عن الشر والأذى؟ كذلك حينما نواجه طاغوتاً أو شخصاً كافراً، إذا ذكرنا اسم الله -كما ينبغي- سيكون هذا الذكر أثره الحقيقي في نفسه وفي تغيير موازين الصراع معه.

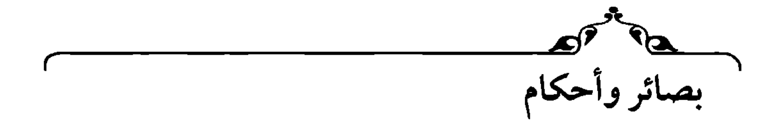
(١) سنن الترمذي، ج٥، ص١٠٩.

ولعل الوجه في قوله عز اسمه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(1) أنك حينما تذكر اسم الله جل جلاله، لا تترك فقط فيمن يواجهك من الناس أثراً عظيماً، وإنما يكون للاسم العظيم هذا أثر بالغ في الخلق برمته. وفي الحقيقة أنت تتصل بحبل الله المتين لدى تلفظك باسم الله، وهو المفتاح الفعَّال لما في العالم، من سُنن وحقائق وأسرار.. حتى كأنك لتصطحب معك مفاتيح كل الخلق، فلا تقلق من الوحدة، وإنما سوف تجعل العدو وراء ظهرك.

وهكذا قد تتحوَّل أبسط الأعمال إلى منجزات عظيمة، إذا ما تمت ممارستها بصدق النية.

وواضح أن خطاب الأنبياء وأوصيائهم خطاب مؤثر في الناس، وذلك لأنهم يذكرون الله معه في كل حرف من حروفه. فاسم الله له خاصية التأثير في الحجر، ناهيك عن البشر.

إن التأكيد المكرر في القرآن على سنة الله في إرسال الرسل يدرأ الغفلة عن العقول من جهة، ومن جهة أخرى يجعل الطرف المقابل يشعر بأن هذا النبي الداعية الهادي مؤمن بما يقول ومستقيم على دعوته، وأن دعوته ليست إلى ذاته أو أي شيء يتَّصل بذاته من حزب أو قوم أو أرض.. وإنما إلى ربِّه المتعال.

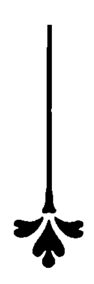


بصائر وأحكام

لأن ضمير البشر قد فُطِرَ على حقائق الرسالة، فإن تأكيد الرسول

(1) سورة الأنعام، آية 91.

والدعــاة إلى الله ســبحانه في التذكير بالله يزيد من فـرص الإيمان بما فيه مــن هزة بالغة للضمير، وهكـذا كان على الداعية ألَّا يتوانى في ذكر الله سبحانه والدعوة إليه.



ما علينا إلا البلاغ

﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾.

* * *

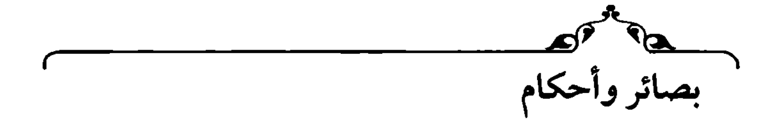
تفصيل القول

كل امـرئٍ مسـؤول عن الاهتداء إلى الحق بعـد أن وفَّر الرَّبُّ له كل أسـبابها، من فطرة جُبِلت على الدين، وعقل قادر على معرفة الرَّبِّ ورسـله وشرائعه، وإرادة تتحدَّى كل العقبات المحيطة، وبالتالي رسل مبشريـن ومنذريـن. فإذا توانى الإنسـان عن الاسـتفادة مـن كل تلك الأسباب، فإنما يتحمَّل هو وليس غيره مسؤولية فشله.

ومن الناس من يظن أن على الله تعالى إجباره على الاهتداء، عبر آيـات مبـصرات تتنزل عليه أو وسـائل ضغط تتواتر عليـه، فاذا لم يجد مثـل ذلك تراه يكفر بالله ويُلقي مسـؤولية كفـره على ربِّه، تعالى الله عمَّا يصفون.

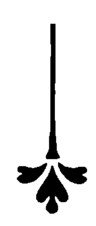
ولعله لذلك نجد التأكيد في كلمات الرسل أنهم غير مسؤولين إلَّا عن إبلاغ الرسالة. أَوَلَيست الهداية هي في مصلحة البشر، كما الضلالة في ضرره؛ فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها؟

وحقًّا التذكرة بهذه الحقيقة قضية هامة وذات أثر كبير في تحمل الإنسان واجب السعي نحو الهداية، واختراق الحواجز النفسية أو الاجتماعية التي تعترض طريقه.



بصائر وأحكام

لأن الله سبحانه قد وفّر للبشر كل أسباب الهدى، ومنها إبلاغ الرسالة، فإن على الإنسان أن يخترق الحواجز النفسية والاجتماعية التي تعترض سبيل الهدى. أَوَلَيس الاهتداء في مصلحته؟



لماذا تَطَيَّرَ الكافرون؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «**أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ** عليه السلام: **يَا دَاوُدُ، كَمَا لَا تَضِيقُ الشَّمْسُ عَلَى مَنْ جَلَسَ فِيهَا، كَذَلِكَ لَا تَضِيقُ رَحْمَتِي عَلَى مَنْ دَخَلَ فِيهَا. وَكَمَا لَا تَضُرُّ الطِّيَرَةُ مَنْ لَا يَتَطَيَّرُ مِنْهَا، كَذَلِكَ لَا يَنْجُو مِنَ الْفِتْنَةِ الْمُتَطَيِّرُونَ**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**كَفَّارَةُ الطِّيَرَةِ التَّوَكُّل**»(٢).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الطِّيَرَةُ عَلَى مَا تَجْعَلُهَا،**

---

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٣٨٢.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص١٩٨.

إِنْ هَوَّنْتَهَا تَهَوَّنَتْ، وَإِنْ شَدَّدْتَهَا تَشَدَّدَتْ، وَإِنْ لَمْ تَجْعَلْهَا شَيْئاً لَمْ تَكُنْ شَيْئاً»[1].

تفصيل القول

قبل الخوض في البحث، من الضروري أن نشير إلى حقائق عن القصص الواردة في القرآن المجيد، فنقول: إنها لم ترد للتسلية، بل هي حقائق تجري في كل زمان ومكان. ولنا أن نشاهدها في أفراد المجتمع، وإذا أمعنَّا النظر، تمكنَّا من الانتفاع بها في إطار ما على المبلغ الديني اتِّخاذه من سلوك تجاه من يعظهم، وما قد يتعرَّض له من أذى من قبلهم، حيث إن أزمة المجتمع الإنساني تتمثَّل في أنه حينما ينبري الفرد الحريص على سلامة ومصلحة الناس، فيؤشر على نقطة ضعف فيهم، فإن مشاعر الاعتراض تُثار ضده، وهكذا ترى الناس ينظرون إلى من ينتقدهم أو ينصحهم بنظرة سلبية، وإذا ما وقعت أعينهم في أول الصبح عليه، فإنهم يزعمون أن ذلك اليوم برمته قد أسودَّ.

ولو قال طبيب لمريض: إن حالك سيئة وعليك أن تحتمي، وإن مرضك خطير، سترى المريض لا يبتئس تجاه مرضه أو يحزن فقط، وإنما يغضب من قول الطبيب أيضاً.

ولكن لو لم يفصح الطبيب عن واقع المرض، وكذب على المريض قائلاً: أنت بخير، ولا يحذره ولا يوصيه باتِّخاذ الحمية، فهل سيكون طبيباً صالحاً؟.

إن الحكمة من وجود الطبيب هي تحذير مريضه وإنذاره والعمل

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص١٩٧.

على علاجه.

في كثير من الأوقات نجد الناس يجلّون القيم في إطار القول فقط ومن أجل المجاملة فحسب، ولكنها على الصعيد العملي تفقد قيمتها لديهم. مثال ذلك: إنهم يكذبون صباحاً ومساءً دون وازع من ضمير، ولكنهم إذا قيل لهم: أنتم كاذبون، استشاطوا غضباً وهمّوا بمعاقبة من كشف لهم حقيقتهم. وهنا ينبغي أن يُقال لهم: كيف لا تهتمون لما تمارسونه من الكذب طيلة يومكم ولا تلومكم ضمائركم، ولكنكم تُستثارون لمجرد لفظ (كاذبون) فلا تتحملون أن يوجّه لكم؟

وهكذا نجد الناس في عصر المرسلين، كيف خاطبوهم..

١- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾

وبما إن الطيرة هي اتِّخاذ الموقف النفسي تجاه قول أو عمل أو ظاهرة، لا يفرق أن يكون الموقف موقف التشاؤم أو التفاؤل، ولكن لّما كثر استخدام كلمة (الطيرة) في التشاؤم، فقد أخذ منحىً سلبيًّا. وهكذا نجد أن كافري أنطاكية قالوا لرسلهم: نحن نستاء من دعوتكم ونتشاءم من كلامكم. وهكذا تراهم لم يبتئسوا من الممارسات المعيبة، ولكنهم استاؤوا وتشاءموا ممن انتقدهم ووصفهم بصفة تتفق وأعمالهم، فقال لهم مرسلوهم: نحن لم ولن نقول غير الحقيقة، فمجتمعكم خاوٍ من الداخل وهو في طريقه إلى الفناء، سواء كشفنا الحقيقة لكم أم لم نكشف، فأنتم تعيشون في مستنقع متعفن.. وإنما صوَّرنا لكم واقعكم وجسَّدنا حقيقتكم بقولنا، وإنّ كتمان الحقيقة والتغطية على مرض الفرد أو المجتمع، والاكتفاء بالصمت أو التزوير ليس سوى خيانة لكم ولقيمنا ودعوتنا.

فقال الكافرون للأنبياء:

٢- ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾

الكفر بدعوة الأنبيـاء شيء، وخوض الحرب عليهم شيء آخر، وهـو أخطر.. والكافرون هنا بعد إعلانهم الرفض لقيم السماء راحوا يُهـدِّدون أنبياءهم بالرجم. وليس بعيـداً أن يكون المقصود بالرجم هنا غـير الرجم بالحجارة؛ لأن التهديد بالعذاب البدني سيشـير إليه المقطع التالي من الآية، حيث سيقولون لهم: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وعلى هذا؛ فإن المقصود بالرجم هو توجيه التُّهم، وقد استعمل هـذا الاصطـلاح في كلـمات قرآنيـة أخـرى، ولم يعـطِ معنـى الرجـم بالحجارة؛ مثال ذلك ما ورد في قصة أصحاب الكهف حيث نقرأ قوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾[1]، وليس المراد به الرجم المادي، كما أنه وصف إبليـس بصفة (الرجيم) أُريد به رجمه باللعن والطرد من الرحمة الإلهية، دون الرجم بالحجر.

وعلى أية حال؛ فإن أول وسـيلة كانت الأمم الماضية تستخدمها لمناهضة أنبيائها هي وسـيلة الاتِّهام المتواصل والمتنوع، كحرب نفسـية يُراد منها منع الأنبياء والأوصياء من ممارسـة ومواصلة دعوتهم إلى الله الحق.

وفي المقطع التاريخي الذي بيَّنته سـورة (يس) نجد الكفار آنذاك قد اسـتخدموا أداة الرجـم النفسي وكَيْل التُّهـم والأكاذيب وإلصاقها بشـخصيات الرسـل والأنبيـاء، وكانـت التُّهمـة الأولى إذ ذاك -كـما هـو الشـأن في جميـع الفـترات والأزمان- أنهـم اتَّهموهم بكونهـم نُذُر

(١) سورة الكهف، آية ٢٢.

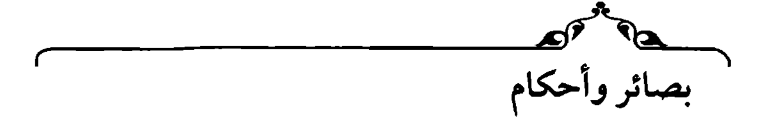
شُـؤم ويبعثون على اليـأس، وأنهم مثيرو الاضطـراب ومُخِلّون بالأمن الاجتماعي، وقادمون بأخبار مُحبطة وسيئة.

أما الوسـيلة الثانية التي اسـتخدمها الكفار، فهي تهديد الرسل بالتعذيب البدني، فقالوا:

٣- ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: إنكم إذا لم تكفُّوا عن الدعوة إلى أفكاركم وعقائدكم، فإننا سنُعرِّضكم إلى عذاب جسماني رهيب.

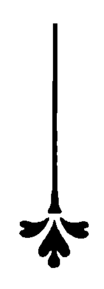
وهناك تفسـير آخـر بخصوص هـذا المقطع من الآيـة، وهو أن المقصود بالرجم هو الرجم بالحجـارة حقًّا، والمقصود بالعذاب الأليم هو تعذيب بدني آخر، وقد اختلف المفسرون بخصوص نوعه وأدواته. فقـال بعـض: العـذاب الأليـم هـو أن تُحمـى مسـامير كبيرة وتُسـمل بـه عيـون من يُـراد تعذيبهم. وقـال آخـرون: كان يتم بواسـطة أعواد القصب، حيث تُشـطر إلى شطرين وتُشد على بدن المعذَّب بعد أن تنقع في الماء، ثم تُسحب، وبسحبها يُسلخ جلد الفرد. أو أن يُصلب المعذَّب دون أن يُقتل، فلا يُعلَّق بالحبل من رقبته، وإنّما يُصلب على خشبة بهيئة الصليب، فَيُترك على هـذه الحال حتى يموت. وقد ادَّعى النصارى أن الكافرين صلبوا المسيح عليه السلام بهذه الصورة، وادَّعوا أيضاً أنه بقي حيًّا على صليبه طيلة أربعة أيام ثم مات.



بصائر وأحكام

لقـد اسـتخدم الكفـار أداة الرجـم وكَيْـل التُّهـم والأكاذيـب

وإلصاقها بشخصيات الرسل والأنبياء، وكانت التُّهمة الأولى إذ ذاك -كما هو الشأن في جميع الفترات والأزمان- أنهم اتُّهموهم بكونهم نُذُر شؤم ويبعثون على اليأس، وأنهم مُثيرو الاضطراب ومُخلّون بالأمن الاجتماعي، وقادمون بأخبار محبطة وسيئة. ولم يكتفوا بذلك، وإنما راحو يُهدِّدونهم بالتعذيب البدني، ولكن الرسل استقاموا فنصرهم الرَّبُّ تعالى.



طائركم معكم

﴿ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

١ - ﴿ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾.

بعد أن سمع المُرسَلون هذا التهديد من قومهم الكافرين، ردّوا عليهم بالقول الكريم أعلاه.

من هذه الآية نستنبط درساً قيّماً مفاده: أننا لا ينبغي أن نستسلم إزاء من يكيلون التُّهم. فإذا قيل لنا: أنتم نحس علينا لكونكم تأمرون بالمعروف، لزم أن نرد قائلين: كلّا؛ نحن لسنا نحساً، وإنما الذي تفعلون منكر ونحس. وعلى حد التعبير القرآني: ﴿ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾. فلو كانت المرآة صافية صادقة، وبيّنت لكم عيوبكم، فأصلحوا أنفسكم

بدلاً من أن تحطموا المرآة.

٢- ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

هذا ما قاله المرسَلون لقومهم الكافرين.

لقد أجابوهم في المرحلة الأولى وقالوا لهم: أنتم النحس، وإن النحس منكم. ثم إنهم ارجعوهم إلى أنفسهم وقالوا: إن تذكّرتم، أدركتم أن دودة الشجرة من الشجرة ذاتها. ثم إنهم راحوا يحددون لهم داءهم النفسي والروحي، ويوضحون لهم السبب في انحرافهم، فقالوا لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

ويمكن تفسير هذه الآية بآية أخرى من سورة (هود) حيث قال جل وعلا: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[1].

حيث تشير هذه الآية إلى سبب انحراف الإنسان، حيث إنه لا ينحرف لأنه يأكل أو ينام أو يتزوج. كلّا؛ لأنه إن انتفع من نعم الله تبارك وتعالى بشكل طبيعي، فلن يُعدّ هذا إسرافاً، ولكنه إن زاد عن الحد الطبيعي، أصيب بالانحراف والضلال.

كلّا؛ لا ضير في أن نأكل الخبز بمقدار حاجتنا، ولكن متى رغبنا في تجاوز حدودنا، فنتناول خبز الآخرين غصباً، فإنه الإسراف بعينه.

ولو أنني طمحت لنيل ما يناسبني وما أستحقه من مقام ومنصب، فلا إشكال في البين، ولكنني إذا أردت تقمّص شخصية غيري وإضافتها إلى شخصيتي، فهذا هو الظلم والبغي.. وإنما يبدأ

(١) سورة هود، آية ١١٦.

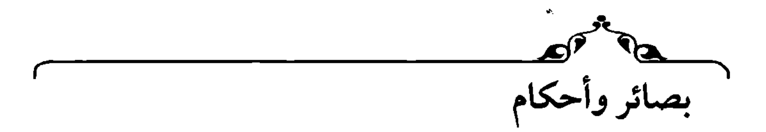
انحراف البشر في اللحظة التي يطلبون فيها أكثر من حاجتهم أو يسرفون في استعمال ما لديهم. لذا قال ربُّنا سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾.

من هذه الآيات يُعلم أن المُتصدي للأمر العقائدي والثقافي في المجتمع عليه أن يلتفت إلى ثلاث مسائل:

١- ألَّا يستسلم ولا يخضع لإساءات الناس القولية وإهاناتهم. والقرآن الكريم يؤكد قائلاً: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾[1].

٢- أن يُبيِّن لهم أن الإساءة التي يتعمدون إلحاقها به، ليست لأنه أساء إليهم من قبل، وإنما ذلك نابع عن مرض دفين فيهم. ولذلك فهو بيّنه لهم مقدمةً لعلاجهم، فلا ينبغي أن يلوموه، بل عليهم أن يلوموا أنفسهم: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾[2].

٣- أن يجري عليهم ما يمكن تسميته بعملية تشريح نفساني، ليكتشف السبب في انحرافهم وفقدهم لقابلية الاستماع إليه.

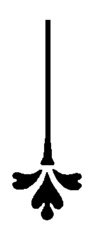


بصائر وأحكام

يجدر بالدعاة ألَّا يستسلموا لإساءات الناس القولية وإهاناتهم.. وإنما يستمروا في إظهار الحق وبكل بسالة.

(١) سورة المائدة، آية ٥٤.

(٢) سورة إبراهيم، آية ٢٢.



وجاء رجل يسعى

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

الرجل الذي جاء مسرعاً من أبعد نقطة في المدينة هو حبيب النجار، إذ جاء حين هَمَّ الكافرون في أنطاكية باعتقال المرسَلين وزجِّهم في السجن لإعدامهم فيما بعد.

ولكن؛ من هو حبيب هذا؟.

هو ممَّن لم يكفر بالوحي طرفة عين، بشهادة رسول الله ﷺ، حيث قال: «**ثَلاَثَةٌ لَمْ يَكْفُرُوا بِالْوَحْيِ طَرْفَةَ عَيْنٍ: مُؤْمِنُ آلِ يَاسِينَ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** عليه السلام**، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**»[1].

(١) الخصال، الشيخ الصدوق، ص١٧٤.

وكذلك رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**السُّبَّاقُ ثَلَاثَةٌ: حِزْقِيلُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ إِلَى مُوسَى، وَحَبِيبٌ صَالِحُ يَاسِينَ إِلَى عِيسَى، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»(1).

وما قيل عن حبيب النجار أنه ممَّن لم يكفر بالله طرفة عين تصوير لمنزلة عظيمة وسامية للغاية، ويخالف قول بعض المفسرين أنه كان كافراً ثم آمن.

وما يبدو صحيحاً أن حبيب النجار، كان شخصاً مؤمناً يخفي إيمانه ويعيش بين الكفار، مثل أبي طالب عليه السلام وسائر المؤمنين الذين اضطروا لكتمان إيمانهم.

حينما شعر حبيب النجار بأن المرسَلين شارفوا على القتل والإعدام، أظهر إيمانه وانبرى يدافع عن الحقيقة، فانتهى به الأمر إلى الاعتقال والأذى والتعذيب. أما القرآن الحكيم وكذلك النبي الكريم ﷺ فقد جازياه حق الجزاء لدفاعه عن الحق ونطقه بالحق.

لقد اعترض حبيب النجار على قومه الكافرين لأنهم كذَّبوا المرسَلين ولم يتَّبعوهم، فاعتقلوه بل ووصلوا به إلى حافة القتل، فاقتادوه وضربوه حتى قتلوه. وقد قيل بخصوص هذا الأمر: إنهم وطؤوه بأرجلهم حتى مات، وقيل: إنهم رجموه حتى قُتِل(2).

القرية والمدينة في الاصطلاح القرآني

لماذا استعمل القرآن لفظ المدينة بدلاً من لفظ القرية؟.

---

(1) بحار الأنوار، ج ٢٤، ص٧.

(2) تفسير التبيان، الشيخ الطوسي، ج٨، ص٤٥٣.

المطالب أدناه قد تُوضِّح الأمر:

١- إن هذا الشخص حبيب النجار كان مُتَّقياً ويستخدم التقية، ولم يكن منساقاً مع الكفار، وقد اختار العزلة. كان شخصاً مُتديِّناً مؤمناً يعيش خارج دائرة الكفر وبعيداً عن السلطة الجائرة، ولعله لذلك سُمِّي موقعه بالمدينة.

٢- هذا الشخص جاء مسرعاً من مسافة بعيدة حتى دخل المعركة، ولهذا أهميته الخاصة؛ فهو لم يقبل لنفسه أن يقف موقف المتفرج، أو ينطق بكلمات بسيطة دفاعاً عن الحق.. إنما تحمَّل المشاق حتى أوصل نفسه إلى قلب الصراع ليقول كلمة الحق ويُؤدِّي مسؤوليته.

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾ أي: يأتي مسرعاً جادًّا.

٣- كلمة ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ المستعملة هنا ينبغي أن تتفاوت وكلمة (القرية). فهي إذا وُصِفت بالقرية، فلأن أهلها ظالمون بجملتهم، إذ كانوا كافرين منكرين لله. أما تسميتها بالمدينة فلأن فيها رجلاً مؤمناً واحداً على الأقل، فبمجرَّد أن يُعثر فيها على مؤمن، تُسمى مدينة، بما يعني أن الأمر لا علاقة له بصغرها أو كبرها، وإنما بالإيمان أو انعدامه.. وقد قال تبارك وتعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾[1] وهو البلد الذي فيه النبي ﷺ، إذ يتسم بقيمة فذة لوجوده فيه، ويمكن أن يُقسم به. أما البلد الذي يطرد أهلُه نبيَّهم، فلن يعود بلداً، وإنما يوصف بالقرية، استصغاراً لشأنه واحتقاراً لشأن ساكنيه.. ولا ريب في أن ما قلناه يبقى احتمالاً، ولا نريد للآخرين أن يقبلوه جزافاً.

(١) سورة البلد، آية ١.

امتحان مصيري

لم تتم الإشـارة في الآيات والروايـات الخاصة بقصة أنطاكية إلى ما إذا كان المرسَـلون قد قُتلوا أم لا، ولكن الظاهر من الأمر أنهم نجوا مـن البـلاء، وإنما حبيب النجار وحده هو الـذي ضحَّى بحياته بعد أن صار مصداقاً تاماً لمن (قال كلمة حق عند إمام جائر).

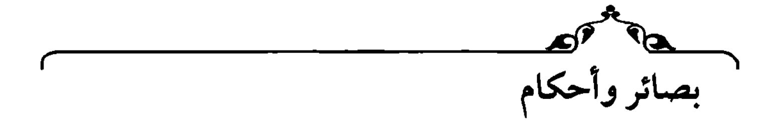
لعـل الإنسـان يعيش مـن العمر سـبعين عاماً، ولكـن امتحانه المصـيري لا يسـتغرق أكثر من لحظـة واحـدة، لتكون السـبعون عاماً كلهـا بمثابة تمهيد لذلـك الامتحان، وليصل إلى نقطة يفترض أن ينطق فيهـا بكلمة، فإذا قالها لم يُضيِّع عمـره، وكان ما عمّره مفيداً، وإلَّا فمن ينهـض في مجلـس ظالم مثـل ابن زياد ويعـترض عليه بشـدة ويقول: يا عـدو الله... تقتـل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقـام الصديقين -كما فعـل الأزدي-؟[1] لقد كانت لحظة النهضة لعبدالله بن عفيف الأزدي لحظة الامتحان المصيري.

حقًّا يكون الإنسـان جاهلاً -عادةً- متى تحـلُّ به لحظة امتحانه المصيري، ولكنه ملزم بالاسـتعداد دومـاً لمواجهة تلك اللحظة بإيجابية ليكون جريئاً جسوراً واعياً، فلا يسقط في ذلك الامتحان.

وحبيـب النجـار الـذي لم يكفـر بالله طرفـة عين كان مسـتعداً كل الاستعداد حينما حَلَّت به لحظة الامتحان. ولهذا؛ فقد نهض وأعلن موقفه الحاسم. كان يعلم أنه ميت ذات يوم أو يُقتل، وكان يؤمن بأن التهرُّب من قـول الحق تهرُّب من الموت المفاجئ، ولكنه كان على يقين بأنه غير محُصَّن من الموت، فارتأى أن يختار نوع الموت الذي يريد، وهو الاستشهاد.

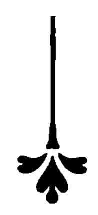
(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، ج٢، ص١١٧.

وهنـاك تفسـير آخر بخصـوص (حبيـب) وهو أنـه لم يكن من الملأ وعِلْية القوم، وإنما كان مُجرَّد راعي غنم شـعر بمسـؤوليته الدينية والجهادية، فتقدَّم نحو سـاحة الوغى.. ممَّا يُشـير إلى أهمية ألَّا يستصغر المـرء شـأنه، مهما كان موقعـه الاجتماعي، حيث يجـب عليه أن يصدح بالحق.



بصائر وأحكام

صاحـب يـس حجة على كل مؤمـن، إذ لم يقبل لنفســه أن يقف موقـف المُتفرِّج في الصراع بين الحق والباطل، وإنما تحمَّل المشـاق حتى أوصل نفســه إلى قلب الصراع بسرعة فائقة ليقـول كلمة الحق ويُؤدِّي مسؤوليته.



اتبعوا من لا يسألكم أجراً

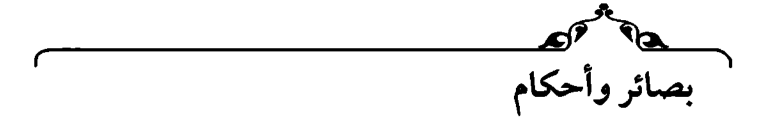
﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

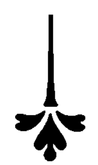
جاء هذا الأمر الحاسم من جانب حبيب النجار إلى قومه، حيث أشار لهم بأن من علامات صدق المرسَلين أنهم لا يطلبون منهم مالاً أو جاهاً أو منصباً على إبلاغهم، بل لا صبغة مادية في رسالتهم؛ فلا هي حزبية، ولا هي قومية، ولا هي عنصرية.. مما يدل على أنها نقية من رواسب الدنيا، خالصة لوجه الله سبحانه. ولا بد لهم أن يتعرَّفوا على صدق كل دعوة بهذا المقياس، وذلك انبعاثاً من وحي عقولهم ودلالة فطرتهم. كما أن الاتِّباع من جانب القوم ينبغي أن يكون لمن هو مهتدٍ بهدى الحق، بمعنى أن النبي أو الوصي يلزم أن يكون معصوماً عن كل خطأ، ليصبح جديراً بالاتّباع. فَمَنْ لم يهتدِ إلى الحق، كيف يهدي غيره.

وهذه علامة ثانية تدل على صدق كل داعية أن يكون بذاته مهتدياً، قد بلغ الحق، ثم دعا الناس إليه.



بصائر وأحكام

مـن علامات صدق المرسَـلين أنهم لا يطلبون مـن قومهم مالاً أو جاهـاً أو منصباً على إبلاغهم، كما أن الاتّباع من جانب القوم ينبغي أن يكـون إلى مـن هو مهتدٍ بهدى الحق. حقًّا إنهـما علامتان لصدق كل دعوة.



وما لي لا أعبد الذي فطرني

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

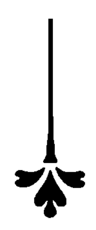
تفصيل القول

لقد جعل حبيب النجار في حسبانه أن قومه يُقرِّون في ذواتهم أن هناك من خلق العالمين، فتراه -لذلك- يُحرِّضهم على أن يعرفوا هذا الخالق.

فكان قصده من قوله هذا: إنكم يا قومي تُقرِّون بأن الله تعالى هو الأول وهو مبدئ كل شيء ومعيده، وأن كل شيء راجع -لا شك- إليه، وإنني استمد من فطرتكم وأتساءل عن السبب ألّا يكون هذا الرَّبُّ معبودنا جميعاً. وبهذه الكلمة أتم الحجة عليهم، حيث إنه ذكَّرهم بأن الإيمان ليس بالرسل وإنما بربِّهم الذي يدعونهم إليه. فلماذا تُردّ هذه الدعوة الصادقة؟.

بصائر وأحكام

خلاصـة دعوة الأنبياء الدعـوة إلى عبادة الله، الذي فطر الناس، وهم إليه راجعون. وهذه أعظم برهان على صدقهم.



أأتَّخذ من دونه آلهة؟!

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

* * *

تفصيل القول

١ - ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾.

ترى لـو أن هذه الآية الشريفـة كان ينقصها تعبير ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ فهل كان المطلب لينقص؟ ولماذا قال تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ بدلاً من القول: أأتَّخذ آلهة؟.

من جانبي أستعرض بياناً دقيقاً هنا، ولعله يكون صحيحاً:

ينبغـي لنـا أن نعبد الله عز وجـل، ولكن من أيـة طريق؟. فكل شخص يظن أن الطريق التي يسلكها تنتهي به إلى الله تعالى، إلَّا أن أكثر الناس الذين يظنون هذا الظن هم على خطأ. إذ يلزمنا أن نسلك سبيلاً

قد رسمها الله تعالى وحددها بنفسه لنا كمخلوقين، فإذا سلكناها حقًّا، وصلنا إليه عز اسمه، أما إذا سلكنا طريقاً دونها، فلن نصل إلى بارئنا.

ولعل هذه الآية تريد القول: إن الشاهد على أن هذا الطريق ينتهي إلى الله تعالى، أنه هو الذي أمر بطيه، وأنه هو الذي يوصل إليه، ولكنه ما لم يصفه بهذا الوصف، فذلك وثنية وعبادة للآلهة من دون الله العلي الأعلى، حتى إن لم يكن ثَمَّ صنم من حجر أو خشب في ظاهر الأمر.

فالذين يعبدون الطاغوت الحي، ويتَّبعون المدارس الوضعية المتنوعة، هم في الحقيقة لا يعبدون الله تعالى، وإنما يعبدون آلهة من دونه سبحانه.

وأنا لم أجد نصًّا تاريخيًّا يُشير إلى أن أهل أنطاكية كانوا وثنيين؛ بمعنى أنهم كانوا يسجدون للآلهة الحجرية أو الخشبية، فلم تكن الوثنية لديهم بهذا المعنى، ولكن سكان تلك المنطقة كانوا تابعين للقيصرية الرومانية، ولكونهم كانوا تابعين للطاغوت ومستسلمين له، ذلك المسمّى بالإمبراطورية، فذاك الذي عُدَّ عبادة لما هو دون الله عز وجل.

يُذكر هنا أن بعض المفسرين أشاروا إلى وجود أصنام من سنخ اللّات والعزى وهبل في تلك الديار، ولكنني لدى مراجعاتي للتاريخ، لم أعثر على صنم خاص، كما أنه لم يرد في خطاب المرسَلين إلى أنطاكية في الآية إشارة إلى كونهم عُبّاد أصنام.

طبعاً قد ذُكِر في قصة النبي نوح والنبي إبراهيم عليهما السلام أن قوميهما كانوا يعبدون الأوثان، أما في قصة فرعون، فالصنم لم يكن جامداً بلا حياة، ولم يكن لفرعون معبد للأصنام، وإنما كان يعتبر نفسه ربًّا، بل وربًّا أعلى.

إن جميع الفراعنة على الأرض والطواغيت الذي يدعون الناس إلى عبادتهم، ويكثرون من استعمال كلمة (أنا) في خطاباتهم، إنما يُعبِّرون عن ذواتهم الشيطانية التي تُريد صدَّ الناس عن عبادة الله الواحد الأحد، إذ حينما كان أحد يقول: أنا، فكأنه يقول: الله. حتى أن أحد الشعراء المُتزلِّفين خاطب الحاكم بلا حياء ذات يوم قائلاً:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

حينما يجهل المرء ربَّه، سيظن أن الحاكم الظالم هو ربُّه، ولعله لطمع في مال أو طعام وما يشبه من متاع الدنيا القليل تراه يصف الحاكم بألفاظ من قبيل: الآلهة أو ظل الله، التي طالما يرحب بها الطواغيت وينتفعون منها.

إن جميع الطواغيت في الأرض يعبدون ذواتهم، ويدعون الناس إلى عبادتهم، ولم يكن الأمر لينتهي إذا ما قام الأنبياء عليهم السلام بإنزال صنم من الأصنام. لقد كان الأنبياء يدعون الناس إلى تغيير النظام الطاغوتي، لكي يعبد الناس ربهم الواحد الأحد، ويجعلوا دينه في صدر قيادتهم.

ومن هنا يفترض بنا حقًّا أن نتعلَّم حقيقة التوحيد من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام. فالتوحيد ليس مجرَّد القول بأننا نعبد الله، أو ألَّا نقتني أصناماً في بيوتنا، وإنما للشرك والتوحيد درجات ومراتب كثيرة.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: **«مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ»**[1].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٦، ص٤٣٤.

وروي عن أبي بصير قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[1] قَالَ: أَمَا وَالله؛ مَا دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَوْ دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ مَا أَجَابُوهُمْ، وَ لَكِنْ أَحَلُّوا لَهُمْ حَرَاماً وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالًا، فَعَبَدُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ»[2].

إن العبادة لا تعني لزاماً أن يسجد المرء لمثله، إنما الطاعة له عبادته، وإطاعة من هو من دون الله شرك.

ومن كلمة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ نستنتج أننا إذا لم نرغب بالوصول إلى الله تعالى من الطريق الحق ولم يكن الله سبحانه أكبر شيء عندنا، بل جعلنا غير الله سبحانه أعلى في أعيننا مثل الحاكم الظالم، فتلك هي عبادة الطاغوت.

وحيث يجعل الإنسان لنفسه آلهةً، فإنه يسقط في بؤرة الحرام. وهكذا علينا السعي إلى طاعة ربِّنا عبر الطريق الصحيح وبالصورة التي حدّدها الله دون غيره.

أما عبارة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ لوحدها، أو اقترانها بكلمة (أولياء) فقد تكررت في القرآن المجيد، ولدى التدبُّر في سياقها قد نصل إلى أن معنى ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ إنما هو: دون إذنه. وعلى هذا؛ فإن قوله تعالى في سورة (يس): ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يعني: ترى هل نعبد آلهة دون إذن من الله؟

ومقاربة لهذا الأمر نجد أن فرعون الذي ادّعى الربوبية، وهاجم

(١) سورة التوبة، آية ٣١.

(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي،ج١، ص٢٤٦.

السحرة الذين آمنوا بالنبي موسى عليه السلام، قال لهم معترضاً: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾[1].

بلى؛ إن محور الخلاف بين الحق والباطل هو الطاعة.

وما يؤيد رأينا هو المعنى اللغوي لـ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، إذ الكلمة تعطي معنى (الإلغاء) لغةً. فمثلاً حينما يقال: هل جئتَ بشيء معك؟ يجاب: لا؛ من دونه جئتك؛ أي أنه لم يأت معه وإنما خالياً عنه. وهكذا فإن معنى قوله سبحانه: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾: هل أَدَعُ الله جانباً واختار آلهة؟ حيث تحوي ضمناً مفهوم إلغاء دور طاعة الله وعدم الالتفات والاهتمام لإذنه سبحانه وتعالى.

وفي القرآن الكريم نماذج متنوعة تُشير إلى بطلان الإقرار بشيء دون رضا الله وتأييده.

ولا مناص لي في هذا المجال إلَّا أن أتقدم باللائمة على بعض المفسرين، حيث لم يلتفتوا إلى أن الآلهة لا تعني بالضرورة الصنم الوثن. في حين أن بعض مفسري المسلمين ما فتئوا يصورون لنا أن المقصود بالآلهة -كلما ذُكِرت في الكتاب الكريم- الأصنام الحجرية. وهم بقولهم ربَّما أرادوا الدفاع عن حكام الجور وحفظهم عن احتمال التمرُّد عليهم من جانب الناس؛ ذلك لأن الناس لو عرفوا أن الآلهة لا تعني بالضرورة مجرَّد الأصنام والأوثان، بل قد تشمل الأصنام البشرية فإنهم سوف يثورون ضدهم، على أن البحث الحقيقي في كثير من المواقع كان قد ورد حول الأصنام البشرية كفرعون ونمرود. إنني في حيرة حقًّا تجاه عدم التفات الكثير من المفسرين إلى هذه النقطة بالذات.

(١) سورة الاعراف، آية ١٢٣.

لقد بينت روايات النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام بوضوح هذا الموضوع، وقد أشار إليه أهل البصائر من مفسري الشيعة، ونحن لم يكن لزاماً علينا أن نُسيء إلى مفهوم كلمة (الآلهة) في الآية، بالاعتماد المباشر على أقوال الذين ضيَّقوا معنى كلمة الآلهة بهدف تبرئة الطغاة.

الرسالة بين القائد والنصير الأول

في نهاية هذا البحث، نود الإشارة إلى قضية مهمة تتمثَّل في أن النبي وباعتباره منصوباً من جانب الله تعالى، ولكونه داعياً للناس إلى الصلاح والفلاح، فإن مقامه مقام سامٍ لا يرقى إليه شك. أما مقام الذي استجاب للنبي أولاً واعتبره الله تعالى شاهداً على نبوة النبي، وعده الشخصية الثانية والتالية لشخصية النبي، حتى أنه يُعدّ في تعاليم النبي مناسباً لأن يُتَّخذ قدوة صالحة من بعده وإماماً، فإنه قد يتجاهله الناس، وهذا خطأ عظيم.

فالإمام الحسين عليه السلام هو سبط النبي ﷺ، وقد بلغ الله به مقام المخلصين، أما مولانا أبو الفضل العباس عليه السلام، فلم يرقَ إلى مستوى شخصية الإمام الحسين عليه السلام ولكنه قد أحرز مقامه العظيم حينما استجاب لإمام زمانه وأصبح حامل راية الإمام الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء فصار الشخصية الثانية، وعلينا هنا بالذات أن نقتفي أثره.. ولكن لماذا؟

لأننا ينبغي أن نستوعب دوره، إذ نعجز أن نُؤدِّي دور الإمام الحسين عليه السلام مثلاً، ولكننا نستطيع أن نستنير بشعاع شخصية مولانا العباس عليه السلام ونكتسب من فيضه. فالإمام واحد، أما من ينصره فهم كل من أراد أن يتقمَّص دور النصير الأول والنصير القدوة، مثل الإمام

علي عليه السلام بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ومالك الأشتر بالنسبة إلى الإمام علي عليه السلام، والعباس عليه السلام بالنسبة إلى الإمام الحسين عليه السلام.

ويصدق هذا الحديث على السابقين من الرسل وأنصارهم. مثلاً النبي موسى عليه السلام، كان نبيًّا من أولي العزم وله مقامه الرفيع، ولكن أخاه النبي هارون عليه السلام كان قد آمن به منذ اليوم الأول لبعثته، لا سيما وأن موسى عليه السلام كان قد دعا الله تعالى أن يجعل له من هارون أخيه وزيراً وللمؤمنين قدوة، وكان على بني إسرائيل اتِّباع نهج هارون في نصرة النبي موسى عليه السلام.

لقد تكرَّر عبر التاريخ وفي القرآن الحديث عن الشخصيّات الثانية في الدين، إذ كان لهم دورهم الهامّ جدًّا إلى جانب الشخصيّات الأولى، ولطالما ذكرهم الله تعالى وعظّم شأنهم، ومنهم الصِّدِّيق حبيب الذي فصَّل الكتاب قصته في سورة يس، حيث ينبغي أن يتَّبعه الناس في نصرة الأنبياء.

٢- ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

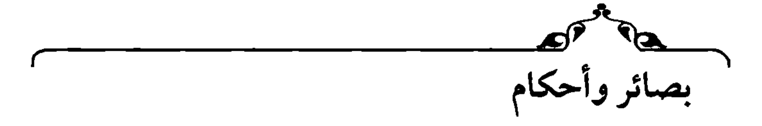
في الإنسان شعور يدفعه إلى توفير هامش أمني لمستقبله من دون الله، ليلجأ إليه عند الحاجة، بل وليهرب من الخطر الذي قد يُهدِّده في زعمه من جانب الله تعالى. حقًّا سنعثر على شفيع ولكنه ليس من دون الله، إذ لا يشفع شفيع عند الله تعالى إلَّا بإذنه.

أما الآلهة التي يصنعها الناس لأنفسهم ويُريدون من خلالها البحث عن كيف يأوون إليه من دون الله، فتلك هي الكارثة العقائدية عندهم. ولقد قدمنا الحديث بهذا الصدد، وقلنا بأن ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ بمعنى أن الله تعالى لم يقل للناس بأن هذه الآلهة طريق إليه. وعليه؛ فإن

هذا الطريق سينتهي إلى ضلال مبين.

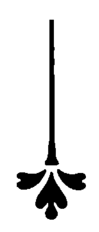
وقد أشار حبيب النجار إلى هذه النتيجة، فقال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

إذ لا قدرة مستقلة للآلهة، ولا تتمتَّع بمكانة عند الله تعالى لتكتسب منه قدرة وصلاحية، فهي عاجزة عن تحدي الله وعن إنقاذنا من نار جهنم التي قد يُعِدُّها الله لنا، ومن هنا؛ لا ينبغي لنا أن نرمي بأنفسنا إلى مستنقع الضلال والضياع باتِّباعنا وخضوعنا لهذه الآلهة.



بصائر وأحكام

يلزمنا أن نسلك سبيلاً قد رسمها الله تعالى وحددها لنا كمخلوقين، فإذا سلكناها حقًّا، وصلنا إليه عز اسمه. أما إذا سلكنا طريقاً دونها، فلن نصل إلى بارئنا، ولا أحد قادر على الشفاعة من دون أذنه.



لفي ضلال مبين

﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ ﴾.

* * *

تفصيل القول

أي ضلال أكبر وأوضح من أن يتَّخذ المرء شفعاء، فيعبدهم طيلة عمره، ثم يجد في نهاية المطاف أنها لم تكن إلَّا وبالاً عليه. ما أحرى به أن لو كان تركها منذ البدء؟.

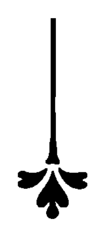
لقد كانت لغة الخطاب عند ذلك الصديق ذاتية، لكيلا يزعم الكفار أنّه يدعوهم إلى ما يخالفه هو.

كلَّا؛ إنه يسبقهم إلى العمل بما يدعو غيره إليه. وهذا لعمري أبلغ تأثيراً، وأقوى حجةً.

* * *

بصائر وأحكام

ما أعظم خسارة من يتَّخذ من دون الله شفعاء، ثم يعرف بعد فوات الأوان أنه كان في ضلال مبين.



آمنت بربكم

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾.

* * *

تفصيل القول

السبيل الصحيح أن نؤمن بالله -وهو ليس ربَّ حبيب النجار فحسب- بل ربّ الجميع، وبهذا الإيمان سوف نُنجي أنفسنا. ولماذا نختار ربًّا غيره؟ فهل غيَّر ربُّنا سبحانه عادة إحسانه إلينا حتى نُفتِّش عن غيره؟ ومتى بخل علينا لنُعذر في الطلب من غيره؟.

ترى من هو مخاطب حبيب النجار من قوله ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾؟.

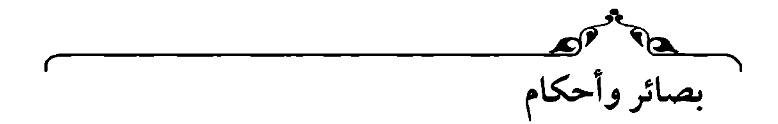
قال بعض المفسّرين: مخاطبه هم المرسَلون إلى أنطاكية، حيث أراد منهم أن يشهدوا له عند الله تعالى على أنه أصبح مُوحِّداً. قد يكون هذا صحيحاً، إلَّا أن من المحتمل أنه خاطب قومه الكافرين، لا سيما وأن السياق قد تجاوز ذكر المرسَلين، وبقي طرفا الحوار حبيب وقومه،

إذ قال لهم: اسمعوا وعوا، إنني مؤمن. وكان هدفه بذلك حسب هذا الاحتمال التحدي. ولعل في تضاعيف معنى التحدي نستبين تعرضه للعذاب، إذ معروف أن مثل هذا التحدي ومن قِبَل شخص واحد كيف يُواجَه من قبل قوم متجبرين ومعاندين.

لقد كان حبيب النجار مصداقاً للإنسان المتكامل، حيث يسّر الله تعالى له تجارة رابحة، وذلك حيث باع لربِّه عمره لقاء الجنة. وبهذا البيع ضمن لنفسه مكاناً مرموقاً في قائمة المكرمين.

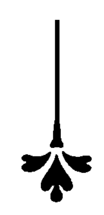
إن على الإنسان أن يشتري الجنة شبراً شبراً، وأن يطلب من ربِّه الحور العين، بعد أن يسدّد مهورهن في الدنيا.

أدى خطاب حبيب النجار (القصير) إلى أن يفقد حياته، ولكنه لازال يحتفظ بطراوته رغم مرور ما يقرب من ألفي عام عليه، ولو أن الدنيا استمرت ثلاثمائة قرن أخرى، فإن كلمات الخطاب ستبقى عظة جديدة، وذلك لأنه تكلم عن أعمق وأهم القضايا الإنسانية، ولهذا فإن خطابه يبقى يدوي عبر الأجيال.



بصائر وأحكام

لقد وفَّق الله عبده حبيب لصفقة رابحة مع ربِّه، حيث باع عمره القصير بكرامة الأبد، بالجنة التي ينبغي لكل إنسان أن يشتريها بعمله الصالح، وأن يدفع ثمنه من عمره وجسده وحياته.



ادخل الجنة

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

قال أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاة له: «**مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ، وَمَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الجَنَّةُ**»(١).

في هذه الجملة درس عظيم؛ إن علينا أن نُولي كل اهتمامنا بالنعيم الأبـدي، والخلاص من العذاب الدائـم، ولا نأبه كثيراً بها في الدنيا من نعيم ناقص وزائل، فعلينا أن نصبر على ما قد يُصيبنا من أذى أو خسارة أو متاعب في الدنيا.

حقًّا إن أفضل ما أتقنه أولياء الله تعالى أنهم وضعوا هذا الدرس

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٨٧.

نصب أعينهم، وأحد هؤلاء الأولياء كان حبيب النجار، إذ إن قومه قتلوه لفضحه واقعهم المرير، بعدما عرَّضوه لعذاب أليم، حتى أنه ورد في بعض التفاسير عن ابن مسعود: أن قومه لما سمعوا منه هذا القول، وطؤوه بأرجلهم حتى مات. وقال قتادة: رجموه حتى قتلوه[1].

والملفت للنظر هنا أن القرآن الكريم لم يتطرَّق لهذا الجانب من القصة وقفز السياق إلى الحديث عمَّا بعد استشهاده، فقال: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾.

وبمجرد أن رأى مقامه الكريم في الجنة، ونظر إلى الحور العين والقصور والظل الممدود والفواكه الكثيرة والأسرّة والعيون.. دخل عليه سرور عظيم وقال: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾. وبهذا وحسب ما ورد في حديث مرفوع: «نَصَحَ قَوْمَهُ حَيًّا وَمَيِّتاً»[2].

لقد قال لهم حينما كان حيًّا: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[3]، وقال بعد مماته: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾.

لم يذكر الله في القرآن كيفية مقتل حبيب النجار، وإنما اكتفى بالعبور إلى وصول البشارة إليه بدخول الجنة. وهذه إشارة لعمري عظيمة فيما يتعلّق بضآلة خطر المصائب الدنيوية، قياساً بما ينتظر المؤمن من نعيم الجنان.. إذ ما هو مهم بالنسبة للقرآن الكريم -وهو عين الحقيقة- هو العاقبة؛ وهكذا نجد (حبيب النجار) طوى طريقاً انتهى به إلى الجنة.

(١) تفسير التبيان، الشيخ الطوسي، ج٨، ٤٥٣.
(٢) تفسير جوامع الجامع، الشيخ الطبرسي، ج٣، ص١٣٦.
(٣) سورة يس، آية ٢١.

حينما يُدعى حبيب إلى ضيافة الله تعالى ينسى ما تعرَّض له من التعذيب والحرق والذر، وإنما يذكر أقاربه وقومه ويتمنَّى لهم أن يتعرَّفوا إلى عاقبته الحسنى.

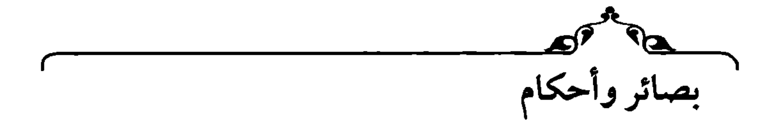
قال بعض المفسرين: قال الحسن: لما أراد القوم أن يقتلوه، رفعه الله إليه، فهو في الجنة، ولا يموت إلَّا بفناء السماء وهلاك الجنة. قال مجاهد مثل ذلك. وقالا: الجنة التي دخلها يجوز هلاكها. وقال قوم: إنهم قتلوه، إلَّا أن الله أحياه وأدخله الجنة[1].

وهكذا نرى هذا الصِّدِّيق قد قُتِل، وحظي بدرجة الشهداء وهو في عداد السابقين، حسبما جاء في الرواية: «السابقون أربعة: ابن آدم المقتول، والسابق في أمة موسى وهو مؤمن آل فرعون، والسابق في أمة عيسى وهو حبيب النجار، والسابق في أمة محمد ﷺ وهو علي بن أبي طالب عليه السلام»[2].

والشهادة هي الحياة، طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[3].

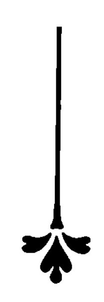
إن بقاء الشهيد حيًّا له معنى سام جدًّا، فالشهيد لا يموت. إن له حضوراً بيننا. ولكي يثبت الله تبارك وتعالى هذه القضية جيداً، فإنه استعمل مفردة (الرزق) في الآية المذكورة: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. فالرزق من خصوصيات الفرد الحي، أما الميت فلا رزق له، من هنا يُعلم من احتياجه للرزق أن الشهيد حيٌّ.. وفي الآية المباركة ذاتها ورد أيضاً أنّ الشهداء يستبشرون، والبشرى والاستبشار من علامات الحياة.

(١) تفسير التبيان، الشيخ الطوسي، ج٨، ص٤٥٣.
(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٩، ص٣٥٨.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٦٩.



بصائر وأحكام

لم يذكـر الله في القرآن مصير حبيب النجار في الدنيا، وإنما اكتفى بالعبـور إلى وصول البشـارة إليـه بدخول الجنة. وهذه إشـارة لعمري عظيمة فيما يتعلَّق بضآلة خطر المصائب الدنيوية، قياسـاً بما ينتظر الفرد المؤمن من نعيم الجنان.



وما كنا منزلين

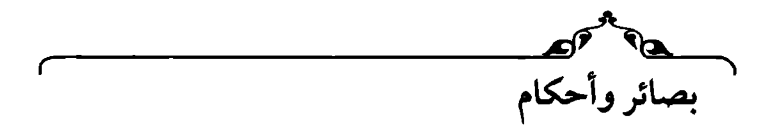
﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾.

* * *

تفصيل القول

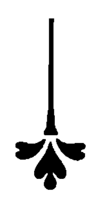
كل شيء في العالمين في قبضة الرَّبِّ سبحانه، ومؤتمِر بإرادته، ومنزجِر بمشيته. وهكذا فليست هناك حاجة لتجنيد الجنود أو إنزالهم من السماء، إنما بمجرد مشيئة الرَّبِّ بهلاك قوم فكل شيء محيط بهم يمكن أن يُمسي وسيلة هلاكهم، فقد تبتلعهم الأرض التي كانت تُقلّهم، أو تمطر السماء التي كانت تحفظهم مطرَ السَّوْء، أو تنطبق عليهم الجبال التي كانت تأويهم، أو تُغرقهم المياه التي كانت مصدر رجائهم، وهكذا..

* * *



بصائر وأحكام

كل شيء في العالمين في قبضة الرَّبِّ سبحانه، مؤتمِر بإرادته، ومنزجِر بمشيته. وهكذا فلا حاجة إلى نزول جنود من السماء لتدمير قرى الكفار، بل بمجرد أمره تعالى ينقلب كل شيء ضدهم.



فإذا هم خامدون

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾.

تفصيل القول

كيف هَلَك أولئك المعاندون؟.

لقد عصفت بهم صيحة واحدة أهلكتهم وجعلتهم خامدين، كما الشمعة التي تنطفئ فجأة. لقد كانت الصيحة صاعقة لم تدع لهم مجالاً للفرار. وبقيت من قصتهم عبرة بالغة الوضوح لمن يريد الاعتبار، كيف أنّ تمنِّيات الكفار بالخلاص من جزاء كفرهم لن تتحقَّق، وأن عليهم أن يواجهوا نهايتهم الفضيعة عاجلاً أم آجلاً.

بصائر وأحكام

الكفار سوف يواجهون نهايتهم الفضيعة عاجلاً أم آجلاً، ولن تكون النهاية إلَّا بصعقة خاطفة لا بد أن نخشاها أبداً ونتَّقيها بكل وسيلة.



يا حسرة على العباد

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

***

تفصيل القول

حَسَرَ الماء وانحسر الماء، يعني: نَضَبَ الماء حتى بدا ما تحت الماء من الأرض.

والقلب الحسير: القلب المنقبض، والقلب المتلهِّف.

الحَسْران: من هو نادم وحزين على فقده شيئاً ما.

الحَسْرة: ضيق القلب وانقباضه، وقيل: أشدّ النوم. وتحسَّر فلان: يعني ضاق صدره ووصل به الأمر إلى عجزه عن فعل شيء.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾، أي: وا أسفاً عليهم.

وحينما ننادي شخصاً، فإننا ندعوه للمجيء. وحينما نقول: يا ويله؛ فيعني: تعالَ أيها الويل. وهذا أبلغ من أن نقول: الويل له؛ لأن الجملة الأخيرة تعني أن الويل في مكان ما وسيكون من نصيبه.

وحينما نقول: يا حسرةً؛ فيعني: أيتها الحسرة أقدمي فقد حان حينك.

من ذا الذي يتحسَّر على العباد؟ الله؟ الملائكة؟ الأنبياء؟ أو أشخاص آخرون؟ من ينطق بهذه الجملة؟

تارة لا تبدو لدينا حاجة إلى قائل، وذلك حين يكون الوضع بحيث يدعو كلَّ من يواجهه بأن ينطق بمثل هذه العبارة، فهي في الحقيقة تعبير عن لسان الحال دون لسان القال.

قد تقع حادثةٌ مّا بشكل يضطر كل من يواجهها أن يصدر عنه رد فعل معين، شاء أم أبى.

حينما يبعث الله تعالى رسلاً للناس لِيُعلِّموهم طريقة الحياة والمعيشة الصحيحة، ويُزيحوا عن كواهلهم القيود والأغلال، ثم حين لا يستجيب أولئك، بل ويسخرون منهم بدلاً من أن يُرحِّبوا بهم ويهتدوا بهداهم.. أفلا تستحق هذه الحالة المُزرية أسفاً وحسرة؟

لذلك؛ لا يلزم أن يتحسَّر الله كما يتحسَّر العباد، ذلك لأنه عز وجل عالم بالوضع المؤسف للناس، والمهم هنا بيان هذا الوضع المؤسف.. وليكن الأمر حسب التعبير المعروف: خذ الغايات واترك المبادي.

إن صفات مثل صفة الرضا والحب والكراهية التي تُنسب إلى البشر وإلى الله معاً، لا تعني أن الخالق والمخلوق متصفان بها على نحو

واحد. فالانسـان يسـمع، وكذلك الله، ولكن سـمع الله ليس كسـمع البشر، إذ هؤلاء محتاجون لجهاز السمع، وإنما العلم والإدراك الذي يتحصَّل لدى الإنسـان عن طريق السـمع، موجود بـدءاً لدى الله عز وجل.

ويمكـن أن يقفـز إلى الذهن احتمال صـدور جملة ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ عـن حبيـب النجـار؛ صاحب ياسـين. ولكن ذلك لا يتَّسـق وسـياق الآيـات؛ لأن حديث صاحب ياسـين قد انتهـى، وقد بيَّن الله تعـالى نهايـة قومه، وهـو أنهـم أُهلكوا بالعـذاب الإلهـي. والآية مورد البحـث بصـدد بيان مطلب هام كلّي، يعتبر بمثابة اسـتنتاج من الواقعة وهو الحسرة على العباد الذين ما أن يأتيهم رسول هادي حتى يستهزئوا به، فيستحقون لأجل ذلك عذاباً ماحقًا.

بلاغة الآية

كلمـة ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ لم تـرد إلَّا في هذا الموقع من القرآن المجيـد، وهذا من اللطائف التي صارت سـورة (يس) لأجلها تُسـمَّى بقلـب القرآن. طبعاً إن كلمة (حسرة) لوحدها وردت في مواقع قرآنية أخرى، مثل:

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾[1].

ولكـن ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ لم ترد بهـذه الصيغة في مكان آخر من القرآن الكريم.

---

(١) سورة الزمر، آية ٥٦.

إن هـذه العبارة بليغـة للغاية.. وقد استُعمِلت كلمـة (العباد) هنـا، ومع أن لمفردة (عبد) صيغ جمع أخرى، مثل: عبيد وأعبد وعَبَدة. ومفردة (العباد) غالباً ما تُستعمل في القرآن للإشارة للأفراد الصالحين دون الطالحين، مثل: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[1]، و: ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾[2].

إذن، ينبغي أن يُتحسَّر على هؤلاء الناس كثيراً، وهم الذين كانوا عبـاداً، أو كان ينبغي أن يكونوا عباداً صالحين، لأن أصل خلقتهم كان طيبـاً، وكان ينبغي أن يبقوا على أصـل الطيبة، ولكنهم انحرفوا. وثانياً لأنهـم عبيد الله، وليس جديـراً بعبد الله أن يترك عبوديتـه ليكون عبداً لغيره سبحانه.

وهـذه العبـارة ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ تضمَّنـت جميـع هـذه المفاهيـم، وهـي في البلاغة كأن نقـول: الرحمن عذَّب هـؤلاء؛ أي: إن هؤلاء قد أسـاؤوا السـلوك بدرجـة كبيرة حتى اسـتحقوا العذاب من جانب الرحمن، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء حيث لا حدود لها.

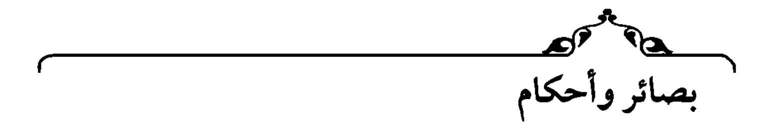
الاستهزاء أسوأ من التكذيب

يُفهـم من هذه الآية أن الاسـتهزاء أسـوأ مـن التكذيب ظاهراً، وأن الاسـتهزاء أقرب درجة إلى مرحلة الشـقاء.. فقد لا يقبل الإنسان الإقرار بحقٍّ مّا، ولكن أن يسـتهزئ بهذا الحق، ويُحرّض الآخرين على رفضه، فهذا درك أسفل وأخزى.

ويُعلـم مـن الآيـة أن جميـع الأنبيـاء قـد تعرَّضـوا للتكذيـب

(1) سورة الفرقان، آية ٦٣.
(2) سورة الفجر، آية ٢٩.

والاستهزاء من قبل أممهم.. فماذا يفعل الله تعالى بهذه الأمم؟ لقد أرسل لهم النبي بعد النبي، ولكنهم كذَّبوهم واستهزؤوا بهم الواحد تلو الآخر.. أَوَلَيس ذلك حريًّا بالحسرة؟ لِمَ لا يستحق الحسرة، في حين أن مصير البشر كان الهلاك، عقاباً على سلوكهم تجاه أنبيائهم، فهل يشك الناس أن الله تعالى، وهو أرحم الراحمين سيعذبهم؟



بصائر وأحكام

يبدو أن الاستهزاء أسوأ من التكذيب، وأن الاستهزاء أسفل دركاً في الشقاء، وأن البشر الذين حباهم الرَّبُّ ليكونوا عباداً له تسافلوا إلى درك الاستهزاء بالرسل الذين جاؤوا لإنقاذهم من درك الشقاء، ذلك مثار الحسرة الكبرى عليهم إذ خسروا فرص النجاة وإلى الأبد.



لا يرجعون

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) ﴾.

* * *

تفصيل القول

لكي يُزاح الشك عن الأذهان، ويعرف الذين لا تزال الفرصة سانحة لهم للنجاة أنّ الغرور برحمة الله لا ينفع، عليهم أن يدرسوا التاريخ وينظروا ماذا فعل الله بأسلافهم.

ألم يرو أن العذاب قد حل بساحة من كان قبلهم؟ وهم الذين أُهلِكوا بسبب الكفر؛ ليس أُهلِكوا فحسب، وإنما انقطعت دونهم الأسباب، حتى أنهم قد ذُهِب بهم إلى حيث أنهم لا يرجعون وأُزيحوا إلى الأبد، ولا أمل في عودتهم ولا رجاء في نجاتهم. بلى؛ فاتت فرصتهم.

وهذه الحقيقة التاريخية تُشير إلى أن الله عز وجل إذا أَنذَر

بالعـذاب، فإنه يقصـد العذاب حقًّا، وقـد أنزله بالأمم السـابقة حقًّا، فكيـف نجرؤ على التصوُّر بأننا غير معنيين بهـذا الإنذار؛ مع أننا نفعل مثل فعل أولئك تماماً؟

معنى القرن والقرون

في هذه الآيـة وردت كلمة ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ وهي جمع (قرن)، فينبغي أن نعرف معنى القرن.

المعنـى المتـداول لكلمة القرن أنه وحدة قيـاس زمنية تعادل مئة عام. بينما يُسـتفاد من اللغة أن المقصود بالكلمة الجماعة الذين يعيشون معـاً ضمـن عصر واحـد، فيقال للجيـل: إنه قرن؛ لأنهـم مقترنون إلى بعضهـم، فيحتمل أن يكون كل ثلاثين عامـاً قرناً، ولا يلزم أن يتعدَّى إلى المئـة عـام؛ ذلك لأن كل جيل من الناس يُقدَّر بثلاثين عاماً حسـب علـماء الاجتماع اليـوم، مع أن الوجه في أن يكون القـرن مئة عام كاملة وجيه، لا سـيما وأن الحد الأقصى ليجتمع الناس معاً هو القرن. والمهم هنـا هـو أن القرن يعنـي الجيل، وقد يطـول أو يقصر عمرهم حسـب المتغيرات.

لقد نبّه الله تعالى في هذه الآيات الشريفة إلى أمرين:

١- أن الهلاك مصير الذين يُكذِّبون الأنبياء عليهم السلام ويستهزئون بهم.

٢- ينبغـي للناس أن يعـوا الحقيقة ويعرفـوا أن الله تعالى هو أرحم الراحمين، وهو في الوقت ذاته أشـد المعاقبين. أَوَلَيس هو القائل عز اسـمه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]؟

(١) سورة السجدة، آية ٢١.

فـلا يظننَّ أحـد أن الله المتصف بأنه أرحـم الراحمين، لن يُعذب أحـداً أبداً، وإنما الجنـة والنار عنوانان للترغيـب والترهيب المُجرَّدين، في حـين أن الله سـيرحم الجميـع في الوقـت المناسـب. كلَّا؛ إنـه أُمنيّـةٌ شـائقة، ولكـن لا ضمانـة لتحقّقها. فلـو كان الأمر كذلـك، لما تعرَّض أحد في الدنيا للعذاب، بينما نقرأ في سورة (يس) الشريفة قصص أقوام انتهوا للهلاك، ليُثبت أن الله عز وجل أشـد المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

ثـم إننـا كبـشر يتعـرَّض كل فـردٍ منّـا للعـذاب أو الحرمـان أو الضعف أو الآلام خلال حياته.. وهذا يعكس جانب العقاب في سُنن الله سبحانه.

بلى؛ إن علينا أن نؤمن بأن ربَّنا، هو أرحم الراحمين، وهو الودود الغفار، بل إن رحمته سـبقت غضبه، ولكن كل هذه الحقيقة لا تسـمح لنا بأن ننساق وراء الظنون الخاوية، فنرجو ما لا أساس له من الصحة، ذلـك لأن مثـل هذا الرجـاء هو الذي قـد يُجرِّئُنا على اجـتراح الذنوب وارتكاب الخطايا.

نعم؛ قد تتسـبب كثـرة النعم الإلهية علينـا في غفلتنا عن غضب الله تعـالى ونقمته، وقـد قال الإمام زين العابديـن عليه السلام في مناجاة له: «أَذْهَلَنِيْ عَنْ إِقَامَةِ شُكْرِكَ تَتَابُعُ طَوْلِكَ»[1].

إن النعـم الإلهية الكثيرة أذهلتنا عـن الالتفات إلى هذه القضية؛ وهي احتمال أن تُسلب منا ذات يوم، ولولا أن الشمس تغيب ما عرف الناس أن النور من الشمس، ولظنوا أن كل شيء بذاته نوراني.

---

(١) بحارالانوار، الشيخ محمد باقرالمجلسي، ج٩١، ص١٤٦، مناجاة الشاكرين.

وبسبب هذه الغفلة، كان الإنذار أساس عمل الأنبياء، فيما التبشير كان يتبعه في المرتبة، وقد أُشير إلى الإنذار منفرداً في آيات قرآنية كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[1].

أما الآيات التي أشارت إلى كون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مبشراً بالرحمة وسراجاً منيراً، فذلك -كما يبدو- للتعبير عن مقام الرسول الذي أُرسِل رحمة للعالمين. وقد تجلَّت معاني الرحمة الإلهية في وجوده صلى الله عليه وآله، ولهذا السبب تقدَّم ذكر التبشير ثمّة على الإنذار.

بصائر وأحكام

لا يظنَّنَّ أحد أن الله لن يُعذِّب أحداً أبداً، لأنه أرحم الراحمين، ثم يظن أن الجنة والنار عنوانان للترغيب والترهيب المجرَّدَيْن. كلَّا؛ فلو كان الإنذار بالعذاب مجرَّد تهديد فارغ لما تعرَّض قوم في الدنيا للعذاب الشديد. كلَّا؛ إن الله عز وجل أشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة، كما هو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة.

(١) سورة يس، آية ٦.



الكل لدى اللّٰه محضرون

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

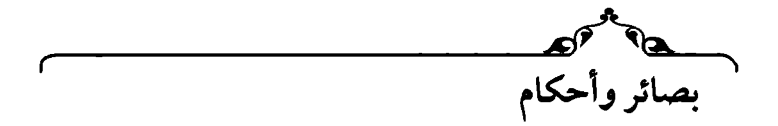
* * *

تفصيل القول

ترى هل الأجيال التي غادرت الدنيا بالعذاب الإلهي أو بالموت الطبيعي، ولم يعودوا لذويهم في الدنيا، لن يرجعوا إلى الله تعالى خالقهم؟ ترى هل أن الحياة لن تعود لهم مرة أخرى؟.

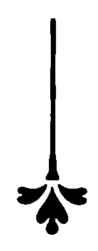
كلَّا؛ ليس هؤلاء فحسب، وإنما جميع القرون سيحضرون عند الله عز وجل، بل إن ذلك سيحل بهم دونما اختيار منهم فيُحضَرون. إنهم سيُحضرون رغماً عنهم.

* * *



بصائر وأحكام

البشريـة في إطـار حكومـة خالقهـم، وأنّـى لأحـد أن يفـرَّ من حكومته؟ كلَّا؛ الجميع يحضرون يوماً للحسـاب، وهكذا فإن هلاكهم في الدنيا ليس نهاية المطاف، إنما هو مرحلة في طريقٍ طويل.



وآية لهم الأرض الميتة

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

إن جميع حقائق العالم تجليات لأسماء الله الحسنى، وإذا ما اكتشف الإنسان العلاقة بين الحقائق والأسماء الإلهية، ووصل عبر الحقائق -وهي الآيات حسب التعبير القرآني- إلى تلكم الأسماء، اتَّضحت له كثير من الأمور، مثل حقيقة البعث إلى يوم القيامة، وحقيقة المسؤولية، والثواب والعقاب والجنة والنار.. فإذا كانت هذه الحقائق قضايا غيبية بالنسبة للناس فإنها تصبح حقائق شهود لديهم، لأن أسماء الله تعالى ستكشف كل حقائق الحياة.

* * *

١ - ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾

ولطالما دعا الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم إلى التفكر في آياته لبلوغ أسمائه. ومن الحقائق التي تتَّضح وتصبح مشهودة بفضل معرفة أسماء الله الحسنى الجواب عن السؤال التالي: كيف يُعيد الله عز وجل الحياة للموتى؟

إدراك هذه الحقيقة كان على الدوام أمراً مُشكلاً للبشر، فهذا الإبهام يشعر به كل إنسان حتى وإن لم يُفصح عنه، بل إن هذا السؤال كان مهمًّا بالنسبة للأنبياء عليهم السلام، قال عُزير عليه السلام: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1]، حينما رأى قريةً أهلها صرعى.

أما إبراهيم الخليل عليه السلام فقد طلب إلى الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[2].

وعلة هذه المشكلة أمران:

١ - كون البشر جاهلين، فهم إما أن يجهلوا معرفة الله عموماً، وإما أنهم يعرفون الله تعالى نوعاً ما، ولكنهم يجهلون حقائق أسمائه.

٢ - كون البشر غافلين، والغفلة كما الذباب، كلما أبعدتها عنك عادت إليك تارة أخرى.

وحتى يتبدَّل الجهل يقيناً ينبغي بذل المزيد من التعب والجهد، وقد ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**الإِيْمَانُ فِي القَلْبِ، وَاليَقِيْنُ خَطَرَاتٌ**»[3].

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٩.
(٢) سورة البقرة، آية ٢٦٠.
(٣) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٤٩.

فكثيراً ما يتَّفق للإنسـان أن يغفل، فهو مؤمن وحائز على نسـبة مـن اليقـين، ولكن الغفلة قـد تعتريه، ولعله يكون في كل يوم ذا شـأن مختلف ومتفاوت من الإيمان وعدمه.

وكثيراً ما يسـألني بعض الأفراد قائلين: ماذا نصنع؛ فقد نقصد مراسـم تشـييع جنـازة أو مجلس فاتحة، أو نسـمع خبراً عـن زلزال، أو نذهـب إلى مقـبرة، أو أية حالـة تُذكِّرنا بالآخرة وتُحرِّضنـا على التفكير بالموت والحساب، وما أن تنقضي الحالة تلك، ولربَّما بعد بضع ساعات ترانا نعود إلى الغفلة ونتعلَّق بالدنيا ومتاعها؟.

بـلى؛ هذه هـي طبيعة البشر، وهـذه فتنة الإنسـان، ونحن نتقلَّب بين أصابع الفتنة إلى آخر لحظة، وعلينا الاجتهاد للبقاء على حالة الوعي والاسـتعداد لتحمّل المسؤولية وبصورة مستمرة. والآيات مورد تدبُّرنا لا تُخاطب منكري المعاد فحسب، وإنما هي تُخاطبنا أيضاً؛ لأن علينا أيضاً إزاحـة الغفلة عن أنفسـنا لننعم باليقظة وبدرجة اليقين، وإن لم نسـتطع العيش في نطاق اليقظة واليقين دوماً، فلتكن غفلتنا مؤقتة على الأقل.

وإن نظرنـا بعـين البصيرة، سـنرى الحياة بعد المـوت من خلال موت وحياة النباتات، لعلنا نُزيح بذلك غشاء الغفلة عن عقولنا.

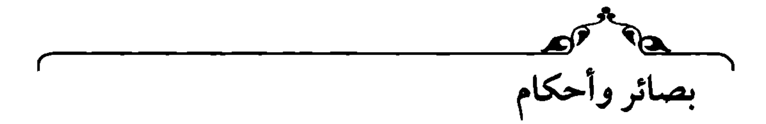
إن مسـألة الموت والحيـاة قد أذهلـت الناس، والعلـماء يعلنون بـين الحين والآخـر اكتشـافهم جيناً خاصًّـا بمرض معـين، ولكنهم لم يسـتطيعوا حتى الآن أن يفهموا حقيقة الموت ومعنى الحياة، حيث يحيا كائـنٌ مّا فجأة ويعيـش ويتعرَّض لحالات كثـيرة ومتفاوتة ثم في لحظة واحدة يسقط ويتلاشى.

ما هذا السر الكبير؟ إنهم لا زالوا يجهلون هذا السر، فهل ينالونه يوماً، أم أنه يبقى في عداد الحقائق الغيبية إلى الأبد؟.

٢- ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾

الحبوب هي الغذاء الرئيسي للبشر منذ البدء وحتى الآن، ومع أن أقاويل تشير إلى أن البشر كان يأكل اللحم أكثر من أي طعام آخر فيما قبل التاريخ، إلَّا أن ذلك يبقى مجرد أقاويل دونها دليل علمي يُذكر.

واليوم نجد الأمن الغذائي على صعيد الأطعمة لأي بلد، يُقاس بمقدار المخزون من الحبوب، مما يشير إلى أن الطعام الأساس لنا هو الغلَّات. إن التفكير في هذه النعمة لا يهدف فقط التحلِّي بالشكر لله، وإنما أيضاً معرفة أسماء الله الحسنى، ومنها أنه واسع القدرة والحكمة، وبالتالي لكي نزداد وعياً بالآخرة واستعداداً لها، ولننفض غبار الغفلة عن أفئدتنا.



بصائر وأحكام

ينبغي إزاحة الغفلة عن أنفسنا لكي نحظى باليقظة وبدرجة اليقين، وعلينا التفكر في آيات الله لعلنا ننال معرفة أسماء الله الحسنى.



جنات من نخيل وأعناب

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ (٣٤) ﴾.

* * *

تفصيل القول

١ - ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾

لتوفير الحاجات الغذائية للبشر من جهة، ولتنويع الطعام للتذوق من جهة أخرى، خلق الله تبارك وتعالى فواكه متفاوتة، مثل التمور والأعناب.

ثم يشير السياق إلى عيون الماء الفيّاضة فيقول:

٢ - ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾

ولكن ما هو مصدر هذه العيون؟.

لقد جرى البحث بين المفسرين السابقين في أن مياه العيون تصدر من الأرض، ولكن كيف يتم ذلك والله قد ذكر أن المياه تنزل من السماء؟.

قال بعض المفسرين: لأن الله قال: إن المياه تنزل من السماء[1]، فهي من السماء إذن، سواء عرفنا ذلك أم جهلناه.

وقد عُلِم مؤخراً أن جميع المياه العذبة مصدرها السماء، كما أن بحيرات من الماء العذب تحويها الجبال، ومنها تسيل الأنهار والروافد.

ولو زُرِعت شجيرات في وسط الصحراء، فإنه ستتشكل بفعل امتداد جذورها أحواض مائية تحت الأرض لسقياها، بل حتى الغيوم التي تمر من فوقها، يتوقف بعضها عندها لتهطل من مائها عليها بفعل الأبخرة المتصاعدة منها.

ترى كم هي تجليات القدرة والحكمة والرحمة الإلهية في تدفُّق مياه العيون؟.

لقد دعانا الرَّبُّ إلى التفكُّر والبحث، وعلينا أن نسعى أبداً إلى اكتشاف تجلِّيات أسماء الله في خلقه لنزداد وعياً بها وعرفاناً بربِّنا ولتتزكّى نفوسنا من الغفلة والجهالة.

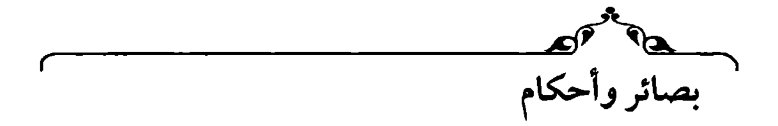
مصدر زمزم

دعنا نضرب مثلاً بماء زمزم، العين المعروفة بجنب الكعبة في المسجد الحرام؛ إنّ ماءها أفضل ماء على وجه الأرض، حيث لم يعثر

---

(١) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (الفرقان، ٤٨). وقد جاء في أكثر من عشرين آية من القرآن أن الله أنزل الماء من السماء.

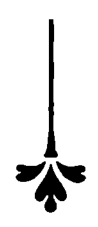
حتى الآن على مياه تُضاهي جودتها جودة ماء بئر زمزم حسب ما يقول بعض الخبراء. إن مصدر مياه هذا البئر ليس في مكة أو أطرافها، لأن مكة قد تشهد أمطاراً غزيرة فلا يزداد ماء زمزم، وقد يقلّ المطر فيزداد. وبعد بحث كثير وجدوا أن مصدر بئر زمزم عائد إلى مخازن المياه الموجودة في الطائف، وهي التي تقع على مسافة سبعين كيلومتراً من مكة المكرمة.



بصائر وأحكام

١- لتوفير الحاجات الغذائية للبشر ولتنويع الطعام، خلق الله تبارك وتعالى فواكه متفاوتة، مثل التمور والأعناب، كما فجَّر لهم عيون الماء الفيَّاضة ليرووا منها.

٢- إن علينا التفكُّر في آيات الله في خلقه، لعلنا نرى تجلِّيات بعض أسمائه الحسنى فنزداد وعياً بها وعرفاناً وتتزكّى نفوسنا من الغفلة.



أفلا يشكرون؟

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

***

تفصيل القول

يعتقد بعض المفسرين أن الغاية من بيان النعم الإلهية في الآيات المذكورة وبلحاظ الجملة الخاتمة لها: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ هي الأمر بالشكر لربِّ العالمين.

ينبغي أن يُعرف أن هذه التفاسير لا تنقض بعضها. فالآية وضمن تحريضها على الشكر، تهدينا أيضاً إلى سعة قدرة الله وحكمته سبحانه وتعالى. وهكذا ذُكِر في آيات كثيرة في القرآن الكريم اقتران بين ذكر أسماء الله سبحانه والأمر بالشكر. وهكذا ليس من الضروري أن يناقض تفسيرٌ تفاسيرَ أخرى، رغم أنه يحتمل وقوع التفاوت والاختلاف، كما أننا نلاحظ أن الأئمة المعصومين عليهم السلام قد يُوردون

تفاسير عدة لآية واحدة، والسبب في ذلك أن للقرآن بطوناً متداخلة، ولا يجوز لنا إذا فهمنا أمراً من آية، أن نمنع عن فهم أمر آخر منها. كلَّا؛ بل القرآن مائدة سماوية يحقُّ لكل فرد مؤمن أن ينتفع منها بقدر إدراكه ووعيه.

من هنا فإن هذه الآية مع أنها تلفت الأنظار إلى الآخرة والدلائل التي تهدينا إليها، فإنها تُعالج واقع الشكر، ومن خلال إدانتها للذين لا يشكرون، فإنها تأمرهم بأداء تكليفهم ليكونوا شاكرين لأَنْعُم الله تعالى؛ خالق السماوات والأرض الذي هيَّأ بحكمته وتدبيره وقدرته جميع الوسائل اللازمة للحياة السعيدة. فقال تعالى:

١ - ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾

إذا كانت كلمة ﴿مَا﴾ موصولة، فإن عبارة ﴿مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ تكون عطفاً على كلمة ﴿ثَمَرِهِۦ﴾، فيكون معنى الآية: ليأكلوا من ثمار الجنات والنخيل وكذلك مما عملوه بأيديهم.

وإن كانت الكلمة ﴿مَا﴾ نافية، ستكون عبارة ﴿مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بالمعنى التالي:

إنهم لم يعملوا هذه الثمرات، لأن استخراج الماء من الأرض ليس من شأن البشر، ولا إخراج الثمار من الزرع، بل إنها من عند الله تعالى.

وقال بعض المفسرين: لأن المقام هنا مقام بيان الآيات الإلهية، والآية بصدد تبيين دلائل عن القدرة والحكمة الإلهية، وأن لا مدخلية للبشر في صنع واحدة منها، فإن من الأنسب اعتبار ﴿مَا﴾ نافية.

وأتصور أننا نستطيع اختيار المعنى الأول، وأن نفرض كون الـ﴿مَا﴾ نافية في الوقت نفسه، ليكون للآية إيحاء وإشعار بأن ظاهر

عملية الزرع والسقي والجني يتم بيد الإنسان، ولكن جميع هذه المراحل والأسباب تُعدّ وتُنظَّم من جانب الله تبارك وتعالى، وأن البشر لا يد مستقلة لهم فيها.

ويتّفق هذا التفسير مع آيات قرآنية أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[1].

٢- ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

بعد كل ذلك التذكير بالنعم، يقول الله تعالى معاتباً بصيغة سؤال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ بمعنى: ألا تستحق النعم الإلهية بأقسامها وأشكالها ومنافعها شكراً؟ فهل يصعب على الإنسان قول عبارة: الحمد والشكر لله؟

إن الحكمة الأصلية من النعم الإلهية في الأرض هي تكامل البشر وبلوغهم مقام العبودية، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

بمعنى أن خلقة الجن والإنسان لها حكمة واحدة، وهي الانعتاق من عبودية الميول الباطلة والشهوات الشيطانية، والسمو إلى منزلة القرب الإلهي بالعبادة والمعرفة، والشكر عنوان هذا المقام وجوهره.

الحاجة؛ مدعاة للشكر

ليس الطعام هدفاً للإنسان بذاته؛ إنما أجوع، فأشعر بالحاجة إلى الطعام، فأبحث عنه لأسد جوعي، وبعد أن ألبّي حاجتي وتطمئن

(١) سورة الواقعة، آية ٦٤.

(٢) سورة الذاريات، آية ٥٦.

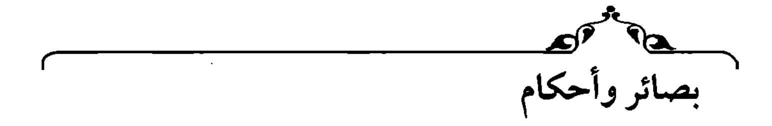
نفسي، أتذكر أنه لو لا أن خلق الله تبارك وتعالى الطعام المناسب لحاجتي لأهلكني الجوع، فآنئذٍ أشكره تبارك اسمه، وشكري له نوع عبادة.

فلو أن ابن آدم لم يحتج للطعام والشراب، ولو كان سالم البدن أبداً، لما حصل على نعمة الشكر مطلقاً، ولما تكرَّست فيه روح العبودية.

قد نطلب من الله تعالى مقداراً من المال، فيستجيب الله لطلبنا، فنتسائل: أي النعمتين أعظم يا ترى؛ المال الذي رزقنا إياه، أم استجابة دعاء العبد من جانب الله تبارك اسمه؟.

فأن يستجيب الرَّبُّ العظيم دعاء العبد الفقير، فتلك نعمة كبرى.. فإذا استشعرنا دوماً أنه تبارك وتعالى هو الذي يرسل إلينا النعم، فتلك نعمة عظيمة.

نحن نطلب إلى ربِّنا المتعال العافية، وإنما تتحقَّق إذا جُمِعت لنا كل النعم؛ ولكن بعد العافية ثَمَّةَ نعمة أخرى لعلها أعظم منها، ألا وهي نعمة الشكر على العافية، لأن الشكر بمثابة عافية الروح التي هي أعظم من عافية البدن.



بصائر وأحكام

الغاية من النعم الإلهية التي منحها الله البشر بحكمته وتدبيره وقدرته، هي الإتيان بالشكر، وهي عافية الروح التي إذا جُمِعت مع عافية الجسم تكاملت النعم.



سبحان الذي خلق الأزواج كلها

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

إلى هنـا، كان الحديـث عن صفـات الله تعالى الثبوتيـة، وانتبهنا إلى بعـض النعم الإلهية، وبالنتيجـة، تعرَّفنا إلى بعض صفات الجمال لله تعالى، والآن علينا أن نعي صفات الجلال أيضاً.

إنّ صفـات الـرَّبِّ الـذي تفضَّـل علينـا بهـذه النعـم لا تتشـابه وصفات خلقه، فهو ليس من جنسـنا ولا في صورتنا، بل إنه (سُـبّوح) و(قُدّوس). ولكي نعرف معنى هذه الصفة الخاصة بالله تبارك وتعالى، والتي هي خلاصة صفات جلاله، ينبغي أن نقطع مرحلتين:

١ - أن نتأكد من أن كل نقص في المخلوق يُشير إلى أن خالق هذا

المخلوق منزَّه عن ذلك النقص.

٢- أن نلاحظ جميع نقائص المخلوق وننفيها عن الخالق عز وجل.

فحينما نجد البشر يجوع وينام ويغفل ويفتقر و.. نُدرك أن خالق البشر لا يجوع ولا ينام ولا يغفل، وكونه غنيًّا. وإذ ننفي جميع النقائص عنه سبحانه، فإننا لا ننفيها في أذهاننا وتصوُّراتنا فحسب، وإنما نصل إلى حقيقة كونه لا نقص يعتريه، ندرك حقًّا أنه سُبّوح قُدّوس.

وإلى هذه الحقيقة أشارت الروايات بدقة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ**»[1].

١- ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾

جميع المخلوقات زوج، وجميع الأزواج مخلوقات لله.. والزوج يُستعمل في معنيين:

١- (قسم) و(فريق) كما ورد في سورة (الواقعة) المباركة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾[2].

٢- (قرين) و(نظير) كل شيء نظير شيء آخر يسمى زوجه.

والمعنى الثاني أضيق مدى من المعنى الأول، ويُمكن لشيء أن يفتقر إلى النظير، ولكنه زوج بالمعنى الأول.

وطبقاً للمعنى الثاني، فإن كون المخلوقات أزواجاً، يعني حاجة

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٦.
(٢) سورة الواقعة، آية ٧.

كل شيء إلى غيره؛ المرأة للرجل، والرجل للمرأة.. الأرض للسماء، والسماء للأرض.. والنجوم بعضها لبعض. فجاذبيتها فيما بينها هي التي تبقيها قائمة منتظمة، ولكن هذا الذي جعل الأزواج محتاجة لبعضها هو خالقها، وهو غير محتاج.

إذن؛ فلنا أن نفهم من خلال حاجة المخلوقات لبعضها أن خالقها غير محتاج.

طريق المعرفة

بالتوضيح الذي اعتمده الله تعالى في هذه الآية، يكون قد علَّمنا كيف نُنزِّهه بواسطة عبارة ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾. وقد استُعمِل في مواقع قرآنية عديدة هذا النوع من التسبيح والتنزيه؛ مثال ذلك في الموارد التي يتأثر خلالها الإنسان بالوساوس الشيطانية، ويكون بصدد تشبيه الله بأحد مخلوقيه، ترانا نواجه عبارة ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾.

لعل كلمة (سبحان الله) أهم ذكر يمكن أن يُذْكَرُ اللهُ الحق بها، أما كلمة (الله أكبر) فهي تنزيه أيضاً، حتى أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوْصَفَ»[1]. وليس كونه تعالى أكبر من هذا الشيء أو ذاك.

وهذا يعني أنّ من الخطأ أن نلصق صفة من صفات المخلوقين بالخالق.

وكلمة: (لا إله إلا الله) تنزيه كذلك، ولكن (سبحان الله) أصل التنزيه وأوضحه، كما أن كلمة (الحمد لله) توحي بمعاني التنزيه أيضاً.

---

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٤١.

فيما يتَّصل بمعرفة الله، إذا تمكَّنَّا من طرد الأشباه والنظائر عن تصوراتنا، تحصَّلت لدينا بصيرة المعرفة. أما إذا أردنا العثور على الله عبر تشبيهه بالمخلوق، فإنه لن يتم لنا عرفانه.

قال الإمام الصادق عليه السلام: **«كُلُّ مَوْهُومٍ بِالْحَوَاسِّ مُدْرَكٍ بِهِ؛ تَحُدُّهُ الْحَوَاسُّ وَتُمَثِّلُهُ؛ فَهُوَ مَخْلُوقٌ»**(1).

أي: إن منشأ ذلك الوهم هو الإنسان وشطحاته الذهنية، وأن الله تعالى شيء آخر. وكما نقول: شيء آخر، نقول: الله سبوح، الله قدوس ومنزّه، لنقترب من معرفة الله، وهذا هو طريق القرب منه.

وقد أشار البعض أن كلمة ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ تُستعمل في موارد العظمة، حيث يحتمل أن ينسب العجز والضعف إلى الله تعالى، ويُظن أن الله لا يستطيع فعل ذلك، فترد كلمة ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ ليطرد هذا الاحتمال عن الرَّبِّ المتعال وينفي العجز والضعف. مثلاً حينما عرج الله سبحانه وتعالى برسوله الكريم صلى الله عليه وآله إلى السماء، وأثار ذلك التساؤل: كيف أمكن لبشر طي المسافات بين الأرض والسماوات؟ قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(2). فوردت كلمة التسبيح هنا لنفي وسوسة البعض في قدرة الرَّبِّ، إذ هو سبحانه قادر على أن يعرج بعبده إلى أعلى عليين.

ويمكن أن تكون العلة في إيراد كلمة التسبيح قبل وصف الله بأنه هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾، وعدم وصفه بأنه الرحمن الذي خلق الأزواج، هي أنّ فيه سرًّا هاماً قد لا يُفهم ببساطة، وإنما يمكن

(1) الكافي، الشيخ الكليني، ج1، ص84.
(2) سورة الإسراء، آية 1.

فهمه بمرور الزمن وبعد كفاح مرير من العلماء والمحققين، فَيُكتَشَفُ سرها، والسر يتمثَّل في حقيقة الزوجية.

إن الزوجية هنا -كما يبدو- بمعنى الاقتران، كاقتران الأشياء إلى بعضها أو اقترابها من بعض وتكاملها ببعضها، أو كسالبية الأشياء وموجبيتها، أو كما هي الأصناف والأزواج لدى بني آدم، كأن يكون فرد عطاراً وآخر بزَّازاً، أو كالأزواج الذين قصدهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾(1)، أو حتى توزيع الإمكانات بين الشعوب من الأبعاد المختلفة؛ فترى هنا المواد الخام، وهناك القدرات البشرية، وفي منطقة ثالثة المواقع الجغرافية، وفي أخرى الآثار المهمة، وفي غيرها تجد الجمال الطبيعي.. بحيث جعل الله الشعوب بحاجة إلى بعضها، ولا يصلح أمر بعضها إلَّا بالتعاون مع الآخرين.

بلى؛ في هذه الآية الشريفة بيَّن القرآن آياتٍ تدل على توحيد الله وتقديسه من ملائمة خلقه؛ فليس كمثله شيء مما خلقه، كما أنه في الآية السابقة جعل آية إحياء الأرض وتفجير العيون من الدلائل على صفات الكمال الإلهية.

وهكذا أُشير في هذه الآية إلى أن آية (الزوجية) -التي تتلخَّص في تكامل الخلق فيما بين مفرداته، فكل شيء بحاجة إلى غيره في نظام دقيقٍ متناهٍ في الحكمة والقدرة- هي آية على التدبير الذي لا يتحقَّق من دون العلم والقدرة.

إن هيئة (الزوجية) في خلق المخلوقات تدل على أن نظام الخلقة لم يأتِ صدفةً، وإنما جاء ذلك بفعل إلهي غاية في الدقة والنظم، ولولا هذا الفعل الإلهي المحيّر لما حصلت الزوجية بين الأشياء. دعنا نتصوَّر

(1) سورة طه، آية 131.

كيف تتكامل الأرض مع الشمس ومع كواكبها السيّارة، وحتى مع النجوم البعيدة؛ ليس فقط في نظام الجاذبية الدقيق والعظيم، وإنما أيضاً في الاستفادة من أشعة تلك الأجرام في بقاء الأرض وبقاء ما فيها من حياة. ثم إذا تصوّرنا كيف توفّر غابات الآمازون أوكسجين الحياة في كافة القارات، وكيف تحافظ جبال الثلج في القطبين على ضبط حرارة الأرض ومستوى سطح البحار، وكيف تحافظ جغرافية الجبال ومواقعها على تعادل الكرة الأرضية.. كل ذلك وغيرها بالملايين من الحقائق التي كلَّما تعمَّقنا فيها زادتنا عرفاناً بربِّنا وأنه مُقدَّس عن العجز والحاجة، وأنه واسع الحكمة والقدرة، سبحانه.

وعلى هذا؛ فإن كلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ الواردة هنا تُعطي المعنى الحقيقي لها؛ أي التنزيه، كما أنها تُبيِّن أهمية وعظمة (الزوجية)، وتبطل مقولة الصُّدْفة في حصول نظام الخلقة، فلأن الله عظيم ومُنزَّه عن النقص، فهو قادر على إبداع هذه الصورة.

إنّ كلمة ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ في الآية تُشير بوضوح إلى واقع علمي دقيق، هو أن لا شيء في الدنيا إلَّا قائم على أساس (الزوجية)، حتى ولو لم نكتشف ذلك مثل حقائق الموت والحياة. فحين يموت شخص نقول: «سبحان الحي الذي لا يموت». حيث يهدينا موته إلى معرفة الله تعالى، وأن الذي خلقه لا يموت.

كما نقرأ في دعاء الصباح المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَيَا مَنْ تَوَحَّدَ بِالْعِزِّ وَالْبَقَاءِ، وَقَهَرَ عِبَادَهُ بِالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ**»(١). ففناء خلقه دليل بقائه.

ومن المعلوم أن كلمة التسبيح تُورد في مواقع مُتعدِّدة وكثيرة

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٨٤، ص٣٤١.

للإشارة إلى عظمة الرَّبِّ.

فمثلاً؛ يمكن أن نرى شيئاً ونخشى أن ننجذب إليه حتى يُلهينا الإعجاب به عن ربِّنا، فنقول: سبحان الله. لنؤكد أن ما يجذبنا حق الجذب هو ربُّنا السُّبّوح القُدُّوس، ولا شريك له من مخلوقاته.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[1].

فهو ترغيب من جانب الله تعالى على الإقرار بعجزنا عن السيطرة على الدواب لولا أن الله سخّرها لنا.

٢- ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

نعلم أن جميع النباتات تتشكَّل من ذكر وأنثى، وهما محتاجان لبعضهما، وما لم تتم عملية اللقاح لن تتكاثر النباتات.. وربَّما كان الناس حين نزول القرآن المجيد يجهلون أن النباتات محكومة بقانون الزوجية، وأن اللقاح أمر ضروري للتكاثر فيها جميعاً.

لعلهم كانوا يظنون أن لزوم وجود الذكر والأنثى خاص بالحيوانات، ولكن القرآن أكد أن جميع النباتات والبشر والحيوانات والأشياء الأخرى ممَّا لا تعلمون، كالغازات، والقوى الإلكترونية، والمواد الدقيقة، حتى داخل الذرة المتناهية في الصغر.. كلها تتشكَّل من ذكر وأنثى أو زوجين متكاملين.

في هذه الآية وردت كلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ لتنزيه الله تعالى، وهذا التنزيه ليس فقط لدرء قانون الزوجية عنه، وإنما للإشارة أيضاً إلى أهمية

(١) سورة الزخرف، آية ١٢-١٣.

هذا القانون؛ أي أنه على قدر من الأهمية بحيث قد ينبهر البعض به.

وعبارة ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ التي وردت بكلمة (مِن) أريد بها أن تكون مصداقاً للزوجية. فـ(من) أُريد بها التبيين، فإذا سئل عن هذه الأزواج التي خلقها الله سبحانه؟ قيل: إنها النباتات والأنفس الإنسانية وأخرى غير معلومة.

ولكن إن كانت (مِنْ) تبعيضية، تحصّل معنى عظيم.

تقول الآية: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

وفضلاً عن ذلك، فإن في الإنسان -ناهيك عن المواد التُّرابية والنُّطفة الحيوانية- حقيقة أخرى، وهي الروح، التي تدخل ضمن إطار ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾

بين البشر أيضاً لابد من وجود زوجين لضمان التكاثر، ولتكون بينهما المودة والرحمة والاستقرار.

﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾

فيما يخص النباتات وكذلك الحيوانات، واضحة هي مسألة الزوجية، ولكن بعض الأشياء لا نعلمها، ولعلها تُكْتَشَف بمرور الزمان، ولعلها لا تُكْتَشَف إلى يوم القيامة.

بعد أن تم اكتشاف الإلكترون والبروتون في الذرة، عُلِمَ أن بينهما علاقة إلكتريكية سالبة وموجبة، ولكي تستمر الذرة يلزم وجودهما معاً.

ونظام الخليقة قائم على أساس هذه الحاجة، وهي تشير إلى غنى

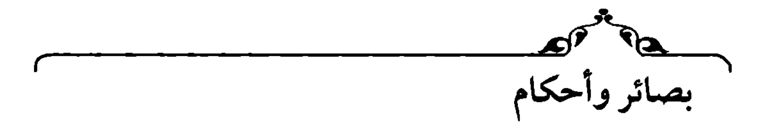
الخالق وعدم حاجته.

وثَـمَّ معنى آخر يُمكن ملاحظته لهـذا المقطع من الآية الشريفة، وقد أشـار إليـه بعض المفسريـن، وهـو الزوجية بين مجتمعـين وأمتين وجماعتين، كما سبق وأن أشرنا إليه.

وبصيرة أخيرة؛ مثل هذه الآية تُعتبر مفتاحاً يستطيع به الإنسان فتح أقفال الحقائق.

إن علينا الاستعانة بمفاهيم هذه الآية الشريفة وأمثالها، ثم نعمد إلى مطالعة الخلقة من خلال بصائرها.

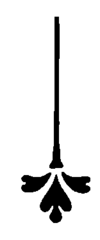
فلا نظنَّن أننا سـنعرف الله حـق معرفته فقط بالتدبُّر في مثل هذه الآيـة، بل وأيضاً بالانطلاق منها للسـير في آفاق الخلقـة والتفكُّر فيها، لتكـون بصـيرة هذه الآيـة بمثابة بدايـة لحركـة عملية تسـتمر، ولعلنا نواصـل طـرق باب المعرفة سـنين مديدة، حتـى نراها تفتـح أبوابها في لحظة تجلٍّ وإبداع بإذن الله تعالى.



بصائر وأحكام

١- إن هيئـة (الزوجيـة) في خلق المخلوقات تـدل على أن نظام الخلقـة لم يأتِ صدفةً، وإنما جاء ذلك بفعل إلهي غاية في الدقة والنظم، ولـولا هـذا الفعـل الإلهي المُحـيّر لما حصلـت الزوجية، ولمـا تكاملت حقائق الخلق بدقة متناهية.

٢- علينـا أن نتَّخـذ من بصائـر القرآن مفاتيـح لاقتحام أبواب المعرفة، ونسير بها في آفاق الخلق في محاولة لاكتشافها ودراسة خباياها.



وآية لهم الليل

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

آيات القدرة والعظمة والحكمة الإلهية في الخليقة واضحة وجليّة في كل آفاق خلقه، والتذكير القرآني بها يُعتبر بمثابة المفاتيح التي تُمكِّن البشر -وبالتوفيق الإلهي- من فتح أقفال الحقيقة لكي يتوصَّلوا إلى المعرفة على أكمل وجه.

والقرآن يُلفت الأنظار هنا إلى ظواهر طبيعية واضحة جدًّا ومتاحة لنا لكي نتعامل معها ونشهدها في كل آن، ولا يطلب منا أن نقصد المتاحف الطبيعية والمختبرات الذرية وأعماق المحيطات حتى نعرفها، بل هي في متناول الجميع.

إنّ تناوب الليل والنهار -حيث يتداخلان في بعضهما- إنه آية

لكـم، حتـى الطفل ذي اللسـان العربي إذا سـمع الآية القرآنيـة يعي هذه المسائل ويستطيع الانتفاع بها، كما أن أستاذ الجامعة ومجتهد الحوزة العلمية يستطيعان -كلٌّ حسب درجته العلمية ومدى يقينه- أن يستلهم منها.

فالقـرآن ليس محدوداً بطبقـة معينة، وهذا يُؤكِّـد كونه كلام الله تعالى، وكلٌّ ينتفع به حسب وسعه.

مـن المناسـب أن نشرح هذه القضيـة، وكل مرة نقـرأ كتاب الله نجد فيه منافع جمة لا تحصى.

تدبروا القرآن ولا تكتفوا بقراءته

ليس من الصحيح أننا إذا انتفعنا بآية مرة سـنعجز عن اسـتنباط مطلب آخر منها مرة أخرى، لأن الاستفادة من القرآن ليس كالاستفادة مـن أي كتـاب علمـي، لأنه إذا ما قُـرئ الكتاب مرة فلـن تضيف على معلوماتنـا السـابقة قراءتـه مـرة أخـرى، بينما القـرآن يُقرِّب الإنسـان -باسـتمرار- إلى عـالم الحقيقـة، ويُتيح له شـهود الحقائق، لأنـه يُوجِد العلاقة المباشرة بين روح الإنسان وعقله وبين الحقائق والواقعيات.

إن القرآن حكمة، ومعرفة، وشهود، واتِّصال بالحقيقة والهداية، وهـو ليـس جملة معلومات تسـبح في ذهـن الفرد، أو كقـرص مُدْمَج، أو كتـاب عادي، أو شريط مسـجل. ومن هنا فهو كتـاب تفكُّر وتدبُّر ووعي، وليس للحفظ فقط والقراءة الظاهرية فحسب.

إنّ حفظ الإنسان لنص من النصوص لا يبلغ به مقاماً، إذ الهدف هـو الفهـم والوعي والدرايـة، وليس مجـرَّد الرواية. لذا دعانـا القرآن المجيـد إلى أن نتدبَّر آياته، ونعي عمق مطالبـه.. القرآن ليس صحائف

أو حروف وكلمات مجرَّدة، بل ينبغي قصد عمقه وبلوغ حقائقه.

١ - ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾

تكرَّرت كلمة (آية) في هذه السورة وغيرها من سور القرآن الكريم، وهي بمعنى العلامة، ونحن نصادف ونتعامل مع علائم مختلفة في كل يوم، ومثالها الواضح علامات وإشارات المرور، وهي تُوضِّح لنا الطرق وأسلوب السياقة والقيادة.. وهي في الوقت ذاته ليست غايةً ومقصداً وهدفاً، وإنما يستفيد منها الإنسان ليصل إلى غايته، كما ينتفع الإنسان من العقل والوجدان والعلم ليصل إلى الهدف والحقيقة من خلالها.

الليل آية، فلِمَ هو آية؟

لأن الليل أصل؛ وأضيف إليه النهار، كما القماش الأسود أضيف إليه لون أبيض. فالأصل هو الظلام، وإضافة النور على هذه الآية هي آية أخرى. إن المخلوقات مُظلِمة بالأساس، على أن للظلام درجات. ومن الظلام يبدأ العدم وينسب إليه الجهل، وبين هذه وذاك حجب كثيرة.

ويقال: سَلَخَ سَلْخاً إذا نزع جلد الخروف عن بدنه، والسلَّاخ هو الذي يقوم بهذه المهمة، وقد شبّه الله تبارك وتعالى ظلمة الجو بِسَلْخ جلد الخروف عن بدنه، وهذه قضية ملموسة وواضحة للجميع. فكما يكون الخروف بلا جلد حينما يُسلخ، كذلك حينما يُعزل النور من الليل تصبح الأشياء مُظلمة.

ولكن كيف يسلخ الله عز وجل جلد الليل؟.

تماماً كما يسلخ جلد الخروف، حيث يُقبض عليه بشيء ما، ثم يلفونه ويفصلونه شيئاً فشيئاً، كذلك الأفق بعد الأفق يجر معه النور حتى يستولي الظلام وينتشر.

مـن يركـب الطائـرة، يتمكَّـن من مشـاهدة حركة الشـمس بشـكل تدريجي إذا ما اتَّفق أن تحركت الطائرة ضمن مسار حركة الشمس، في البدء تغرب الشـمس حيث يراها ولكنه بعد ذلك يراها لم تغرب بعدُ، ويمكن أن يتكرَّر هذا الأمر، حيث يستطيع مشاهدة الغروب مرات عدة في يوم واحد.

إن النهار يسـير وحركة الشـمس مثل جلد يُسلخ من الليل، ثم يبين الليل مرة أخرى.

٢- ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾

يستولي عليهم الظلام ويعودون إلى الحالة الأولى التي كانوا عليها.

وعليـه؛ فـإن الشـمس وتأثيرها في إيجـاد الليل والنهـار، وأكبر آثارهـا التي نتعـرَّض لها، السـكن في الليل والسـعي في النهار، وجميع ظواهرهـا وحالاتها مُؤثِّـرة للغاية. وإذا تفكَّرنا مليًّـا فيها كدنا نُلامس حقيقة الخلق وقدرة الله في تدبير شؤون السماء والأرض.

بصائر وأحكام

١- إن آيـات القـدرة والعظمـة والحكمـة الإلهيـة في الخليقـة واضحـة وجلية، والتذكير القرآني بها بمثابـة المفاتيح التي تُمكِّن الناس -وبالتوفيـق الإلهي- من فتح أقفال الحقيقة لكـي يتوصَّلوا إلى المعرفة على أكمل وجه.

٢- وهكـذا علينـا أن نتجاوز مجرَّد قراءة آيـات الذكر إلى التدبُّر فيها والتفكُّر من خلالها في آيات الخلق.



ذلك تقدير العزيز العليم

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾.

***

تفصيل القول

السؤال المطروح بين المفسرين هو: إلى أين تسير الشمس، وما هو الهدف من حركتها؟.

قال جماعة: يتمثَّل مسار حركة الشمس في طلوعها وغروبها في كل يوم، وإن إحدى حركات الشمس -وطبقاً للرؤية الظاهرية- طلوعها من المشرق وغروبها في المغرب، واختلاف مطالعها ومغاربها في كل يوم.

ففي أول الربيع تطلع الشمس في خط الاستواء، وهي تتحرَّك إلى جهة الشمال من أول الربيع إلى أول الصيف، وهي نسبةً إلى اليوم السابق تطلع من نقطة أعلى قليلاً، حتى تحلّ بداية الصيف لتصل إلى المدار (٢٣) درجة و(٢٧) دقيقة و(٣٠) ثانية من النصف الشمالي

للأرض. ومن أول الصيف تتحرَّك مرة أخرى إلى ناحية خط الاستواء حتى يحل أول الخريف لتصل مرة أخرى إلى خط الاستواء.

ومن أول الخريف حتى أول الشتاء تتحرَّك باتِّجاه جنوب الأرض لتصل إلى المدار (٢٣) درجة و(٢٧) دقيقة و(٣٠) ثانية من النصف الجنوبي، وتعود مرة أخرى من أول الشتاء إلى جهة خط الاستواء، لتصل في أول الربيع إلى خط الاستواء.

وعلى هذا؛ فإن الشمس في كل عام تقطع مسيراً بحدود (٤٧) درجة بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي.

حسناً؛ هذا تفسير لحركة الشمس، وهناك تفاسير أخرى قالوا بها، وهنا نتناول تفسيرين: أحدهما ما يُبحث اليوم في علم النجوم، وسنستعرضه لاحقاً. وأما الثاني فمما روي عن أهل البيت عليهم السلام بهذا الصدد.

فقد ورد عن الإمام السجاد والباقر والصادق عليهم السلام بخصوص هذه الآية المباركة، أنهم قرؤوها على النحو التالي: (لا مُسْتَقَرَّ لَهَا) بنصب الراء[1].

طبقاً لهذه القراءة يكون معنى هذه الآية: أن الشمس تتحرَّك، وحركتها دون توقف، ليس بمعنى أنها تتوقَّف عند نقطة معينة، فتكفّ عن الحركة وتسكن وتنتهي حياتها.

ويمكن أن يطفح سؤال في الذهن وهو: إذا كان الأمر على هذه الصيغة، فماذا عن الآخرة وانتهاء الدنيا؟.

يقول المحقق الطبرسي في تفسيره (مجمع البيان): أي لا قرار لها إلى انقضاء الدنيا[2].

---

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٨، ص٢٧٢.
(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٨، ص٢٧٤.

أقـول -أنا العبد الفقير-: إن تفسـير أهـل البيت عليهم السلام للقرآن حـريٌّ بإعـمال كل الدِّقة والتدبُّـر لِيُفهم ويُدرك، إذ لا يسـعنا المرور به مـروراً سريعاً. وعلى أيّة حال، فـإن ثلاثة من الأئمة الأطهار عليهم السلام قد قالوا ذلك ورفعوا بقولهم الإشـكال الذي طرأ على أذهان المفسرين أو الذين قرؤوا هذه الآية. فماذا يعني عدم مستقر للشمس؟ دعني أعترف إنني لم أفهم ما قاله الأئمة المعصومون عليهم السلام في هذا الصدد، وكثير من كلام الوحي -قرآناً وسُنّة- لا يُفهم إلَّا بعد مرور الزمان وتقدُّم العلم، ولا يعني ذلك لا إنكاره ولا تفسيره بالرأي.

ترى هل يُفترض بالإنسـان إذا سُـئل عن أمـر ولم يكن يعلم أن يُدلي برأيه حتماً؟ كلَّا؛ يكفي أن يقول: لا أعلم.

إنّ عـلى الإنسـان أن يُوفِّر في نفسـه الشـجاعة الكافيـة لكي يُقرَّ بجهله إذا ما واجه حقيقة خارجة عن إطار معرفته.

وفيما يتعلَّق بقضية البحث فلعل جانباً منه ظاهر وقابل للوعي، أمـا المهـم فهـو الهدف مـن هذا التفسـير، فلا ريـب في أنه يحـوي نكتة عميقة، وإشـارة إلى حقيقة علمية كان الناس المعاصرون للأئمة عليهم السلام قـد يفهمونها بصورة أخرى، وقد أشـاروا عليهم السلام إلى أن الأمر ليس كما فهمـه الناس، ومن اللازم أن يتصدَّى العلماء والمحققون ليُمعنوا النظر لعلهم يستنبطون من كلامهم عليهم السلام ما يفي بالغرض.

الشمس وأفراد مجموعتها

أمـا ما يُذكر اليوم في علـم النجوم فيما يتَّصل بحركة الشـمس، فلقد توصَّل العلماء حتى الآن إلى أن للشمس حركات عدة:

إحداهـا: الحركة ضمن مجرَّة درب التبانة، وإن كل المجرة تسـير بسرعة مليون ومئة وثلاثين كيلومتراً في السـاعة تقريباً، والشمس بهذه السرعة تسير مع بقية الشموس التي يُقدَّر عددها بالمليارات.

والحركة الأخرى للشمس؛ حركتها حول ذاتها، حيث يستغرق التفافها حول نفسها خمسة وعشرين يوماً.

وهناك حركة أخرى للشـمس، تلك التي تتَّجه فيها إلى شـمس أخـرى تقع في منتهـى مجـرَّة درب التبانة، وسرعتها خـلال ذلك اثنان وسبعون ألفاً وأربعمائة كيلومتر في الساعة.

والشـمس في هذه الحركات تصطحب معهـا مجموعتها، حيث تتحـرَّك هـذه الأخـيرة التـي تُسـمّى بالمجموعـة الشمسـية بمركزيـة الشمس.

حينـما نلاحظ مجموع هذه الحـركات، نرى أن في كل مجرَّة ثلاثين إلى أربعـين نوعاً مـن التحرُّك وباتِّجاهـات متنوعة وسرعـات متفاوتة، وكل ذلـك يتم بنظـام ودِقَّة بالغين. ويكفيان من ناحية الدِّقة أن نعرف: بعد أن تمكَّن المخترعون من صناعة ساعات تُحدِّد الواحد من الألف من الثانية، ثم صنعوا سـاعات تُحدِّد الوقت بالواحد من المليون من الثانية، عرفـوا أن دِقَّة حركة الأجرام أبعد حتى من هذه الجزيئة من الثانية، من هنا نظَّموا انطلاقة الأقمار الفضائية بناءً على عمل هذه الساعات.

لاحظـوا كـم هـي الدقة في هـذه الحركـة، حيـث لا تتسرع ولا تتباطأ بمقدار واحد من مليون جزء من الثانية في حركتها.

هناك نجوم أخرى لا تُعدُّ شمسـنا إلى جانبها شيئاً يُذكر، ولكن لِبُعدها عنا، لا نلتفت إليها.

بلى؛ إن الله سبحانه وتعالى يتجلَّى في جميع الحقائق؛ ليس في الشمس وحركاتها، بل في كل النجوم وأفلاكها وأقمارها ومجراتها، وتنظيم ما بينها من مسافات بالغة الدقة وتسيير حركاتها المختلفة، بل وأيضاً تحوُّلات كلّ ما في تخومها من أجسام؛ فمثلاً نحن في الأرض حيث نعيش، كل جسم هنا وكل جِرم هو تحت هيمنة الرَّبِّ، فحتى في ورقة نبات يابسة حين تسقط، وفي حبات القمح حين تُزرع وتنمو، وفي حركة كل نبتة وكل حشرة وكل شجرة وكل حيوان وكل موجود، تتجلَّى هيمنة الرَّبِّ سبحانه، إذ له العلم المحيط بكل شؤونها والتدبير التام لأمورها.

أَوَليس كل ذلك يُعبِّر عن آيات القدرة والحكمة الإلهية؟.

إن الشمس كائن مُسيّر في النظام الإلهي، ولا يسعها أن تقول ذات يوم: لن أطلع اليوم! سأطفئ اليوم نوري! كلَّا؛ الأمر ليس كذلك.. فتعطيل أو تفعيل الشمس ليس خياراً لها.

بلى؛ إن البشر تحمَّلوا أمانة الحرية، فجُعِلت لهم إمكانية التعدّي والتمرُّد. وهذه الحرية في اتِّخاذ القرار نعمة كبرى مُنِحت لابن آدم، ولكنه للأسف لا يشكر ربَّه المتعال على هذه النعمة العظيمة بظلمه وجهله، حتى أنه أضاع نفسه في هذه الحرية حتى قال بعضهم عتواً: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1]، بل بلغ الأمر ليقول كما قال فرعون: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[2]. ولكن هذه الحرية ليست دائمة، وإنما هي محدودة جدًّا وسوف تتلاشى مع الموت حيث الحساب العسير.

(١) سورة النازعات، آية ٢٤.

(٢) سورة القصص، آية ٣٨.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، الله المتعال عزيز، وكذلك عليم. فالعزيز يعني كونه يمارس قدرته في تدبير خلقه. لتوضيح ذلك نقول: قد يفسح الأب المجال لابنه ليلعب فلا يمنعه أو يزاحمه، ولكن قد يحدث أن الأب يريد لابنه أن يكون مؤدَّباً، فيستفيد من قدرته، وفي ذلك الحين يكون الأب عزيزاً. والعزة هنا بمعنى الاستفادة من القدرة، والله سبحانه العزيز الذي لا حدود لقدرته، وهو منتصر في جميع الأحوال ولا يمكن إلحاق الهزيمة به.

وبمناسبة الحديث عن هذين الاسمين من أسماء الله الحسنى نتحدَّث بشيء من التفصيل عن أسماء الله تعالى.

نقول: هناك آيات كثيرة في كتاب الله المجيد تُختم باسم أو أكثر من أسماء الله تعالى، لماذا؟

هنا نقطتان مهمتان نتذكرهما في هذا الصدد:

١ - ينبغي التأكُّد من أنّ أيَّة آية قرآنية تُختم باسم من أسماء الله تعالى، تُعتبر بمثابة دليل على ذلك الاسم، بينما ذلك الاسم غايتها. فمثلاً؛ لاحظوا عظمة الشمس لتعلموا أن الله تعالى (عظيم) والتفتوا إلى الحكمة في حركة الشمس لتتأكدوا من أن الله (حكيم). وبالتالي؛ فإن الغاية من بيان آية الشمس هو أن نعلم بأن الله تبارك وتعالى حكيم.

ولكننا غالباً ما ننشغل بالآية ذاتها ونتجاوز عن كون اسم الله الوارد فيها يُجسِّد الغاية من إيرادها، وهذا خطأ كبير، فعلينا التأمُّل بذلك الاسم، إذ هو الهدف بعينه.

٢ - حين نقول: إن الله سبحانه وتعالى لا يوصف حق وصفه، وإنه لا حدّ له، وكون قدرته وحكمته وعلمه لا حدود لها، فإنه قول

صحيح وجيد، ولكن اللازم هو أن ننتفع من هذه القدرة والحكمة والعلم والاسم اللا محدود بقدر حاجتنا المحدودة ومدى استيعابنا.

فحينما يكون نور الشمس كثيراً جدًّا، فهل لنا ألَّا ننتفع به؟ كلَّا؛ بل علينا الانتفاع منه ما استطعنا.

إن ماء البحر كثير جدًّا، ولكن أليس علينا الاستفادة منه؟

وإن المطر والبرد كثير، ولكن علينا أن نُحدِّد ما هي الفوائد التي نحصل عليها منهما؟

نادراً ما نتمكَّن من العثور على موارد قرآنية تمت فيها الإشارة إلى لا محدودية أسماء الله تعالى، وإنما الاهتمام منصب على الجوانب الإيجابية، مثل (واسع) و(عليم) ولكن طالما تم التأكيد في الروايات الشريفة على قضية (اللا محدود واللامتناهي) لأسماء الله تعالى.

ينبغي لنا أن نجتذب إلى جوهرنا وروحنا كل اسم تم بيانه في القرآن الكريم. فإذا تم الحديث فيه عن باب الحكمة أو العلم الإلهيين، لزمنا الاستفادة منه؛ فنعرف الله جل جلاله بواسطة هذه الحكمة وهذا العلم، وفي هذه الحالة سننتفع كثيراً، ونتعرف إلى ربِّنا المتعال بهذا المقدار.

إن العلم بأسماء الله تعالى يُعيننا على معرفة الحقائق، فحينما نعرف أن الله حكيم، سنُؤمن لدى مواجهة الحقائق ونقول: لا بد من حكمة وراء هذه الحقائق، فنتَّبع تِلكم الحكمة.

الجاهليون لا يعون الحكمة

كلما كان الجاهليون قبل الاسلام، وبسبب عدم معرفتهم بحكمة الله، يشاهدون شيئاً، ولأنهم لا يعون الحكمة منه، كانوا يقعون

صرعى الوساوس الشيطانية. كان يرون آذان الحمار -مثلاً- طويلة، فيقولون في أنفسهم: لماذا جُعلت للحمار آذان طويلة؛ ينبغي أن تُقصّر وتُقصّ.. وحيث لا نستطيع تقصيرها وقصّها، فلنقطّعها على الأقل.. وقد قال القرآن عن لسان الشيطان بهذا الخصوص: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[1].

وجاهلية اليوم مُبتلاة هي الأخرى بهذا المرض وللأسف الشديد، لقد كانوا يقولون حتى وقت قريب: إن الزائدة الدودية شيء باطل، وقد بقيت في الإنسان منذ أن كان قرداً، وهي غير ذات نفع بحال من الأحوال! ولذلك كانوا يجرون عملية جراحية لكل من يولد، فيقطعون هذا الجزء منه ويرمونه بعيداً.. ثم عُلِم بعد ذلك أن من ليس فيه هذا الجزء يتعرَّض للجوع سريعاً، وأن الزائدة تقوم بدور الحوصلة عند الطيور.. فتعرّفوا إلى خطئهم.

كما كانوا يقولون: لا فائدة للوزتين في البدن.

وطبقاً لتقرير نشر في مجلة (نيوزويك) فإنه في عام (١٩٦٠) ميلادي أُجريت عشرات الألوف من عمليات اقتلاع اللوزتين من جسم الأطفال، ثم عرفوا فيما بعد أن النظام الدفاعي لأبدان هؤلاء الأطفال قد ضعف كثيراً حينما كبروا.

والإنسان الجاهل -كما السابقون- لا يقول حينما يجهل فائدة شيء أو أمرٍ ما: أنا لا أعرف، ولعله مفيد، بل يقول: هو غير مفيد وزائد.

---

(١) سورة النساء، آية ١١٩.

ولكن المؤمن بحكمة الله تبارك وتعالى، يؤمن بوجود حكمة لكل مخلوق من مخلوقات الله، حتى في البعوضة التي لا يبدو منها أنها ذات دور إيجابي وأهمية تُذكر في العالم، باستثناء إلحاق الأذى بنا، ولهذا فهي مُدانة من قبلنا دوماً ومحكومة بالموت!

إنها ذات دور في منظومة الحشرات، كما أنها ذات دور في منظومة الأحياء.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ**.. (إلى أن يقول:) **وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ. وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ**»[1].

على هذا؛ ينبغي أن يكون أول مناهج حياتنا اجتذاب نور أسماء الله تعالى إلى أفئدتنا، بالرغم من أننا لن نستطيع الإحاطة بها.

الاهتداء بالأسماء الإلهية إلى الكنز الخفي

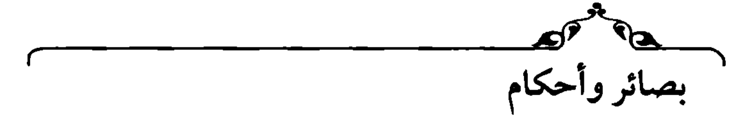
أسماء الله تبارك وتعالى كثيرة في نصوص الأدعية الشريفة، وهذا دعاء (الجوشن الكبير) يحتوي على ألف اسم منها. إن تكرار ذكرها في هذه النصوص المأثورة قد يهدف المعرفة بها ومعرفة الرَّبِّ تعالى عبرها. إن ذات الله جل جلاله في غيب الغيوب، بينما أسماؤه تتجلَّى في خلقه، ومن خلال تجلِّياتها نستطيع الحصول على قدر من ذلك الكنز الخفي.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٥.

وكَمَثَل على هذه الحقيقة دعنا نتدبَّر في آية كريمة تتناول موقع الكعبة وتربط بينه وبين علم الله تعالى، حيث إنه وفقاً لقول أحد الأساتذة الجامعيين، فإن هواء مكة وجوّها -بسبب تركيبتها المتنوعة والمناسبة لبدن الإنسان- يعتبر أفضل ما في الأرض. وجاء في كتاب الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

في هذه الآية الشريفة تمَّت الإشارة إلى علم الله تعالى مرتين، وهذا أمر نادر في القرآن الكريم حيث يرد اسم وصفة إلهيَّان مرتين في آية واحدة، مما يُشير إلى أن في البين مسألة عظيمة ومُهمَّة، وهي سِرّ جَعْلِ الكعبة في هذه النقطة من الأرض.

ترى كم يحتاج البشر من الوقت ليتطوروا ويُسخّروا علم الجغرافية والأنواء الجوية وغير ذلك، ليتأكَّدوا من أن لا بقعة في أنحاء الأرض أفضل من مكة المكرمة لتكون مركز الدنيا، ليس لهوائها النافع وماء زمزم المفيد، وإنما أيضاً لأنه مركز مغناطيس الأرض، وهذا يُشير إلى عظيم علم الله تبارك وتعالى، وهذه هي الدِّقة في أسماء الرَّبِّ المتعال؛ وهي تساعد كثيراً على الفهم العميق للقرآن المجيد، وتهدينا إلى وعي الحقائق.

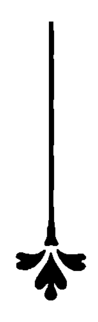


بصائر وأحكام

ينبغي أن نلتفت إلى أن الله سبحانه وتعالى يتجلَّى بأسمائه الحسنى

(١) سورة المائدة، آية ٩٧.

في جميع الحقائق؛ ليس في الشمس وحركاتها فحسب، ولا في مجرَّة درب التبانة التي تتحرَّك شمسنا فيها وسائر المجرَّات، بل وأيضاً في كل جرم صغيراً كان أو كبيراً، وحتى في كل ورقة نبات يابسة تسقط، وفي كل حبة قمح تُزرع وتنمو؛ إذ له العلم المحيط بكل شؤونها والقدرة الكافية لتدبير أمورها.



والقمر قدرناه منازل

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

الذين كانوا يعيشـون أو يعملون في بسـاتين النخيل ولهم معرفة بهذه الأشـجار، لا بد وأنهم قد تصوَّروا هذا النص الشريف من سورة (يس). فحينما يُجنى التمر من النخيل تبقى بعض الأعذاق على النخل، فيتكوَّن منها ما يُشبه الخشـبة الدقيقة المقوَّسة، وتُسمَّى عُرْجُون، وبعد أن تتيبس هذه الخشـبة وينظر الناظر إليها من الأسـفل بمسافة عشرين مـتراً مثلاً، يراها خشـبة مقوَّسـة صفـراء، فكأنه يرى هلالاً في السماء أقرب شيء إلى المحاق.

وقد فسَّرت الروايات الشريفة (العرجون القديم) بأنه العرجون ذو الأشـهر السـتة، فبعد انقضاء هذه الشـهور السـتة يفقـد العرجون

رطوبته وطراوته ويتحوَّل إلى خشبة يابسة صغيرة صفراء مُقوَّسة، وإذ ذاك سيشبه الهلال.

كيف نتحاور مع القمر؟

ترى البعض يتقوّى بقطعة خبز وجبن، فيمارس نشاطه بصورة فعّالة، بينما الشخص الضعيف جسديًّا بحاجة إلى أنواع الفيتامينات. كذلك فيما يتعلَّق بالحصول على المعرفة والاستفادة من العقل، فإن الناس على درجات. فالبعض وبمجرَّد مشاهدة غصن شجرة تتلوّى، أو طائر يُغرِّد، أو حديقة زاهية، وبستان مثمراً، وحتى حين يراقب طلوع الشمس والقمر، يُدرك المزيد من الحقائق ويعرف جانباً من أسماء الله الحسنى، وبينما تجد آخر أشد بلادة، ولا بد أن تُنقل له قصة تتضمَّن حوادث عجيبة، ليهتز ضميره وينفتح عقله.

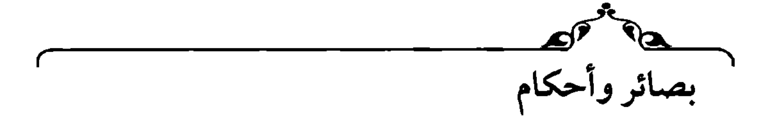
وإذا استطعنا أن نحرز الإيمان والمعرفة عبر الأمور الطبيعية، نكون قد حصلنا على نعمة عظمى، فإذا بالحياة كلها تُصبح مدرسة العرفان ومعراج التقوى.

لقد ذكَّرنا السياق القرآني في هذا القسم من سورة (يس) المباركة بآيتي الشمس والقمر والتحوُّلات الطبيعية التي يلاحظها البشر بكل سهولة، فإذا نظرنا إلى هاتين الظاهرتين العاديتين بشكل عادي، لم نلمس فيهما العبرة، ولكننا إذا غيّرنا نظاراتنا، أُتيح لنا أن نعتبر من خلال هذه الظواهر، بل وحتى أن نتحاور مع هذين المخلوقين اللذين يبدو أنهما جمادان، فنقول للشمس: أين كنتِ أيَّتها الشمس؟ هل لكِ ألَّا تبزغي؟ أو لكِ أن تتمرَّدي على أمر الغروب؟.

وفي أول الشهر، حين نرى الهلال نقرأ الدعاء المأثور عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام عند النظر إليه: «**أَيُّهَا الخَلْقُ المُطِيعُ، الدَّائِبُ السَّرِيعُ، المُتَرَدِّدُ فِي مَنَازِلِ التَّقْدِير..**»[1].

لا نقول هذا الكلام للقمر فحسب، وإنما لأنفسنا أيضاً. فإذا كان القمر بكل هذا الجمال والضياء مطيعاً لله تعالى، فَلِمَ لا نُطيعه نحن أيضاً؟

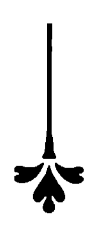
وهكذا على الإنسان أن يُهيِّئ نفسه بحيث يستفيد من الشعائر الدينية بأقصى قدر ممكن، فإذا صلى الفرد مثلاً ركعتين أو قرأ أيَّ دعاء مأثور -بحضور القلب حقًّا- تراه قد ارتفعت معنوياته وتكرَّس إيمانه.



بصائر وأحكام

إذا استطعنا أن نُحرز اليقين عبر النظر في ظواهر الأمور الطبيعية وعبر إقامة الشعائر الدينية، نكون قد حصلنا على نعمة عظمى.

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص٥٤١.



كلٌّ في فلك يسبحون

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يقول: **«الشَّمْسُ سُلْطَانُ النَّهارِ، وَالْقَمَرُ سُلْطَانُ اللَّيْلِ، لَا يَنْبَغِي لِلشَّمْسِ أَنْ تَكُونَ مَعَ ضَوْءِ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ، وَلَا يَسْبِقُ اللَّيْلُ النَّهَارَ. يَقُولُ: لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ حَتَّى يُدْرِكَهُ النَّهَارُ. ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يَقُولُ: يَجِيءُ وَرَاءَ الْفَلَكِ بِالِاسْتِدَارَةِ»**[1].

وَرُوِيَ أَنَّ الإِمَامَ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام حَضَرَ يَوْماً مَجْلِسَ

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٢١٤.

المَأْمُونِ وَذُو الرِّئَاسَتَيْنِ حَاضِرٌ، فَتَذَاكَرُوا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَأَيُّهُمَا خُلِقَ قَبْلَ صَاحِبِهِ. فَسَأَلَ ذُو الرِّئَاسَتَيْنِ الرِّضَا عليه السلام عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ عليه السلام لَهُ: **تُحِبُّ أَنْ أُعْطِيَكَ الْجَوَابَ مِنْ كِتَابِ الله أَمْ حِسَابِكَ؟**

فَقَالَ: أُرِيدُهُ أَوَّلًا مِنَ الْحِسَابِ. (فأجابه عليه السلام على ذلك). ثم قال: فَمِنْ كِتَابِ الله. قَالَ عليه السلام: **قَوْلُهُ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أَيْ: إِنَّ النَّهَارَ سَبَقَهُ**[1].

تفصيل القول

ذكر الله سبحانه وتعالى النهار والليل والشمس والقمر في الآيات الماضية باعتبارها آيات وعلامات، ثم إنه في هذه الآية والآيات التالية يتطرَّق إلى النظام الحاكم على عالم الخليقة، ليلتفت الإنسان إلى هذا النظام الدقيق جدًّا، النظام الذي يدل على عزّة وقدرة الله، وكذلك على العلم والحكمة الإلهية.

١- ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾

لقد سبق وأن قلنا: إنّ للشمس ثلاثة أشكال من الحركة: حركة تستمر عاماً، وحركة تسير فيها مع المجرَّة إلى هدف المجرَّة ذاتها، والحركة الثالثة في داخل المجرَّة باتِّجاه نجم آخر.

وبما أن إحدى حركات الشمس التي تمتدُّ إلى عام كامل، هي في الحقيقة أبطأ من حركة القمر، ذلك لأن القمر يطوي مسيرته في (٢٨) يوماً. وعليه؛ فإن الشمس لن تطال القمر ولن تُدركه.

---

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص٤٤٦.

٢- ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾

ولكـن الله سـبحانه وتعالى خلـق النهار والليل بشـكل لا يأخذ أحدهمـا دور الآخر، فبالمقدار الذي ينبغي أن يكـون ليلاً، يكون ليلاً؛ وبالمقـدار الذي ينبغي أن يكون نهاراً، يكون نهاراً. ولو قيل بالعكس لم يكن له معنى.

بداية القيامة

فَسَّروا هذه الآية المباركة بشـكل آخر، وهو أن الشـمس لم تُخلق لتُـدرك القمـر، إذ في حـال اصطدام هذيـن الجرمين، سـتقوم القيامة، وهنالـك يتحقَّق مصـداق قوله تبـارك اسـمه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾[1]، وباصطدامهـما ينفرط عقد جميع الكواكـب والنجوم ويتعطَّل كل شيء وتقوم القيامة.

وحيـث إنه لم يتقـرَّر حتـى الآن أن تقوم القيامـة، فلن تصطدم الشمس بالقمر، ويلزم أن يُواصل كل منهما مساره المحدد.

٣- ﴿وَكُلٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾

الفَلَـك؛ يقال لمكان يشـبه الدائـرة، ولكلٍّ من الشـمس والقمر دائرة يجب أن يسيرا ضمنها وهي مدارهما.

ورغـم أن الحديث كان عن الشـمس والقمر، إلَّا أن الله سبحانه وتعـالى اسـتعمل كلمة ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ وهـي صيغة جمـع، والجمع من ثلاثة أفراد على الأقل في اللغة العربية. ومن هنا يُعلم أن ثَمَّ كوكباً آخر

(١) سورة القيامة، آية ٩.

على الأقل غير الشمس والقمر مقصود بالحديث، ولعله الأرض.

ولكن لم يرد ذكر للأرض، ربَّما لوضوح ذلك من حيث إننا نعيش عليها فعلاً، وقد تمَّ البحث حول الشمس والقمر فيما يخصنا.. هذا أولاً، وثانياً: أين يقع النهار والليل؟ أليس في الأرض؟ وعليه؛ فقد تمَّت الإشارة إلى الأرض دون أن يُذكر اسمها.. ولكل من الأرض والقمر والشمس مسار ومدار خاص بها وينبغي أن تتحرَّك ضمنه.

استُعمِلت كلمة ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ للإشارة إلى حركة الشمس والقمر، وهي بمعنى العوم والطفو، فلماذا؟ لعل ذلك للإشارة إلى منع تصوُّر وجود الشمس والقمر وبضعة أجرام أخرى. كلَّا؛ فعالَم الوجود كالبحر اللا متناهي، وليس الشمس والقمر إلَّا جرمين صغيرين فيه، حالهما حال الجسم الصغير السابح في البحر المحيط، فهو بالنسبة إليه يعد مجرَّد ذرّة.

ويمكن أن يكون للإشارة إلى أنه ومع وجود الفراغ في الفضاء وانعدام الهواء فيه، إلَّا أن هذا لا يعني عدم وجود شيء فيه، فإن قوة الجاذبة بين الأجرام الفضائية هي بذاتها شيء يملأ الفراغ، حتى لكأنّ هذه الأجرام تسبح وتعوم في بحر هذه القوة. وهذا يعني أن عالم الفضاء عالم مترابط مُتَّصل.

العبرة من الآيات

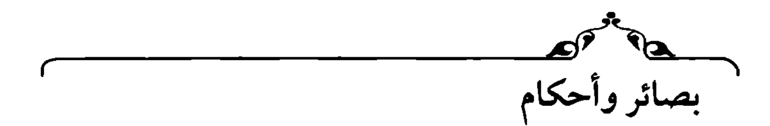
الآيات الوجدانية والفطرية، تقود البشر نحو الله تبارك وتعالى وتُضاعف معرفته.

وحينما يتمّ الحديث عن تلك الآيات؛ مثلاً عن الشمس أو القمر

أو أيـة ظاهرة أخرى، ينبغي أن ينتهي هذا الحديث إلى ما ينفع مصلحة المخاطَب، وأن يخطو به خطوة -على الأقل- باتِّجاه الكمال.

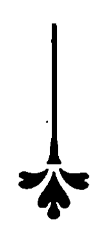
فالحديـث هنا لم يـأتِ لنعرف حجم الشـمس أو كميـة نورها، وكيف تدور، وفي أي فلك تتحرَّك، بل لكي أفهم وأعي -أنا الإنسـان المخاطَـب- ومـن خـلال الالتفـات إلى الفلـك والشـمس والقمـر والأرض، مَنْ أنا؟ وماذا عليَّ أن أفعل؟

فالله تبارك وتعالى؛ الذي خلق الشـمس سراجـاً، وجعل القمر منيراً، وخلق الليل والنهار، وساقها جميعاً ضمن مسار، وجعلها تسبح في الفضاء وتعوم.. إنه هو خلقني وقيَّض لي أن أعوم راكباً في السـفن؛ فالسـفينة تسـبح في البحـار كـما الأرض في الفضـاء، وأن أسـتفيد من السـيارات والطائرات، وهكذا أستطيع أن أعرف ربي، وأعرف نفسي، وأعرف واجبي. فهذا هو الهدف من ذكر الآيات.



بصائر وأحكام

إنَّ الآيـات الوجدانيـة والفطريـة، تقـود البشر نحـو الله تبارك وتعـالى، وتُضاعـف معرفتـه بـه سـبحانه، فعند الحديث عن الشـمس أو القمـر والأرض أو أيـة ظاهـرة أخرى، ينبغي أن ينتهـي إلى ما ينفع مصلحة الإنسـان المُخاطَب، وأن يخطو به خطـوة -على الأقل- باتِّجاه الكمال.



وآية لهم

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

* * *

من الحديث

روي أن عبدالله بن سلاّم قد سأل رسول الله ﷺ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ؟

قَالَ: يَا ابْنَ سَلَامٍ، السُّفُنُ الْمَبْنِيَّةُ فِي الْبَحْرِ[1].

تفصيل القول

هناك آيات أخرى لإثبات وجود الله تبارك وتعالى، ومنها ركوب السفن.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٥٧، ص٢٥١.

إنّ ركـوب السـفينة ليس حاجة يومية، وليسـت ضرورة عامة، ولعـل أحدهـم لا يركب السـفينة مرة واحـدة خلال عمـره. لقد قال الله تعـالى بـكل لطـف وحكمـة: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾. ولـو كان جـلَّ وعلا قـال: نحـن أركبناهـم، لاحتُمِلَ أن يعرض إشكال مفاده أن كثيراً منا لا يركبون السفينة.

مـن ناحية ثانية؛ إنّ الوجـه في قول الله تعالى هذا بدلاً من القول بأنـا حملنـا الناس في الفُلْك، أن الصغار ضعفاء نسـبة إلى الكبار، ولعل الكبـار قـادرون على حمـل وحفظ أنفسـهم أثنـاء الطوفـان والعاصفة البحريـة، ولكن الصغار يعانون ضعفاً تامًّـا، وهذا من لطف الله تعالى حيـث يحفظهم في السـفينة. وعليـه؛ فإن إيراد كلمـة ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لبيان نعمة السفينة، كان أنسب.

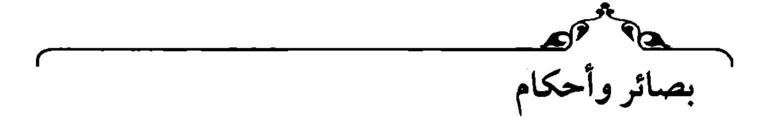
فـأن يعمد البـشر إلى حمل بضائعهم وسـط البحـر لإيصالها إلى مقاصدهـم، هـي نعمـة إلهيـة وعلامة عـلى التدبـير والقـدرة. الناس يخوضون غمار البحـار والمحيطات ليُلبُّوا حاجاتهـم ويُوفِّروا الأرضية المناسبة لحياتهم وتطورهم.

ويمكن أن يخطـر في الذهن أن المقصود بـ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ هو الأرض وسكانها، ولكن ذلك بعيد عن الواقع، إذ إنّ أذهان عموم الناس لا تتوجَّه إلى الأرض وسـباحتها في الفضاء، لا سـيما وأنّ الناس في عـصر نزول القرآن الكريم كانـوا يتصوَّرون أن الأرض مركز العالم وكونها ساكنة بلا حركة.

وهكـذا فـإن الاحتـمال القوي هـو أنّ المراد السـفن التي تسـير في البحـار وتنقل الناس وبضائعهم.. ويشـار إلى أن السـفن في العصر الراهن تنقل نسـبة كبيرة من البضائع مع وجود الطائرات والقطارات

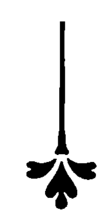
والسـيارات، إلَّا أن السفن ما تزال تحتفظ لنفسها بحصة الأسد في هذا المجال الذي تتوقَّف عليه معيشة البشرية عموماً.

ومع أن أفراداً قلائل يركبون السـفن، قياساً بعدد نفوس البشر، إلَّا أن فوائـد هـذه المراكـب البحرية تشـمل جميـع النـاس؛ بصورة أو بأخرى.



بصائر وأحكام

كـما الليل والنهار، كذلك ركوب السـفن آية ربانية تُظهِر عظمة الخالق وحكمته البالغة.



آية أخرى

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝٤٢﴾.

* * *

تفصيل القول

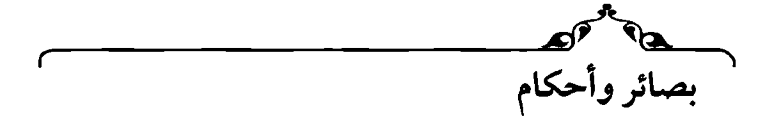
فضلاً عن سفينة البحر، فقد خلق الله تبارك وتعالى مركباً آخر، وهو مركب الصحراء؛ أي الجمل، وهو حينما يُحدى له، ينطلق جزلاً بما أُوتي من قوة. لقد خلق الله هذا المركب للصحراء.

أما مركب الجبل، فقد يكون البغل. كما أن ربَّنا سبحانه قد هيَّأ لبني البشر صناعة مركب جوي أشد عجباً من سفينة البحر، حيث تُحلِّق في جو الفضاء بأطنان من المتاع، وعلى ثلاثين ألف قدم من الارتفاع، وبسرعة قريبة من سرعة الصوت.

وفسَّر البعض آية ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ بنحو آخر، وهو تفسير له وجهه ولا يتنافى وما ذكرنا. قالوا: إنّ الآية هنا إشارة إلى طوفان النبي نوح عليه السلام،

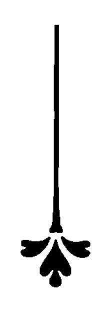
إذ نجّى الله سبحانه وتعالى نوحاً وأتباعه المؤمنين وأنواعاً مختلفة من الحيوانات من الغرق في الطوفان التاريخي الشهير، وجعل في أصلاب المؤمنين بشراً آخرين، حتى تخلَّص الإنسان من خطر الانقراض.

والمهم أن السفينة والجمل والبغل وغير ذلك مما يستفيد منه الناس في ركوبهم ونقل أحمالهم آيات، نستفيد منها لبلوغ الكمال المُتمثِّل في معرفة الرَّبِّ والتقرُّب إليه.



بصائر وأحكام

إنّ السفينة والجمل والبغل وغير ذلك مما يستفيد منه الناس في ركوبهم ونقل أحمالهم آيات لله تعالى، وعلينا الاستفادة منها في العروج إلى مقام معرفة الرَّبِّ سبحانه.



فلا صريخ لهم

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

* * *

تفصيل القول

صحيح أن السفينة خُلِقَت -وتهيَّأت أسباب صناعتها للإنسان من جانب الله اللطيف الخبير- لتسهيل حياة البشر ومُتطلباتهم، ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى قد تعهَّد لهم أنهم سيصلون إلى مقاصدهم على سبيل الحتم، إذ يمكن أن يحلَّ أجلهم خلال الطريق فيُغرقهم الله عز وجل. وهذا يعني أن يبقوا في حالة وسطى بين الخوف والرجاء.

بلى؛ قد تكون السفينة بمثابة الفنادق العائمة، حيث تتوافر فيها كل وسائل العيش، حتى أن من الأثرياء من يستأجر فيها جناحاً بمبالغ طائلة.. وصانعوا السفن هذه يبالغون في الاهتمام بجوانب السلامة، وتأمين كل ما تحتاجه السفينة لأجل المحافظة على أمنها من الغرق.

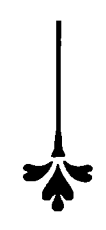
ولكـن مـع هذا، هـل هم آمنـون مائة بالمائـة؟ كلَّا؛ لا يصـح الاعتقاد بأنهم آمنون مطلق الأمن، بل يبقى خطر الغرق جاثماً على السفينة مهما أُتقِنَت صنعتها وتطورت تقنيتها.

وحـوادث غـرق السـفن، واصطـدام القطـارات، وسـقوط الطائرات، وفشـل التجارب الفضائية، ينبغي أن يكون باعثاً للإنسـان إلى ألَّا يغـرق في غـروره وغفلتـه عن ربِّـه المتعال، لأنه تبـارك وتعالى؛ الوحيـد القادر على إنقاذهم. مما يُحرِّض على التفكير بعظمته، والجدِّ في خشيته، والتواضع لقدرته.

وإن أراد الله أن يُغرق راكبي السفينة في وسط البحر، فلن يجدوا صريخـاً ولا مُنقذاً يسـتجيرون به، ولن يكون لهم ثَمَّ مَدَدٌ يسـتعينون به فينقذهـم، وقـد وردت خلال القـرآن المجيد عبارات عديـدة تُصوِّر هذه الحقيقة من جوانبها المختلفة.

بصائر وأحكام

إنّ حـوادث غـرق السـفن، واصطـدام القطـارات، وسـقوط الطائرات، وفشـل التجارب الفضائية.. ينبغي أن يكون باعثاً للإنسان إلى ألَّا يغـرق في غـروره وغفلتـه عن ربِّـه المتعال، لأنه تبـارك وتعالى؛ الوحيـد القادر على إنقاذهم. ممَّا يُحرِّض على التفكير بعظمته، والجدِّ في خشيته، والتواضع لقدرته.



إلَّا رحمة من اللَّـه

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

***

تفصيل القول

ما المقصود بهذه الرحمة الإلهية التي تشملنا؟

ثَمَّ احتمالان بهذا الصدد:

١- المقصود جميع السُّنن الإلهية الحاكمة على العالم، فهي كلها رحمة. فأن يخلق الله تعالى السفينة بشكل يستطيع الإنسان أن يستقر فيها، وأن يكون الماء بحيث تسبح السفينة فوقه، وأن تكون جاذبية الأرض بحيث تتمكَّن السفينة بواسطتها في الحركة والانطلاق... إلى سائر السُّنن التي تتكامل فيما بينها ليُبحر ابن آدم عبر السفينة ويسير في البحار؛ هذه جميعاً رحمة إلهية.

٢- فضلاً عن هذه السُّنن، فإنَّ وصول السفينة إلى الميناء الأخير

مع كل المخاطر، كالأمواج المتلاطمة والعواصف الشديد، هو الآخر رحمة؛ فإن بلغت السفينة مقصدها، لزم أن يشكر المرء ربَّه تبارك وتعالى.

قالوا في تفسير ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ رحمة شمولية وواسعة تجاه جميع المخلوقات، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ رحمة من الله خاصة تُقصد بها جماعة معينة لينتفعوا بها. طبعاً هذا مجرَّد احتمال، والاحتمال الآخر أن ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ تعني الرحمة الخاصة مثل العفو عن المذنب ودرء الخطر عمَّن يستحقه. وبناءً على هذا الاحتمال يكون معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ هي تلك الرحمة الخاصة.

فقد يتَّفق أن ينجو إنسانٌ في حادثةٍ مروعة. مثلاً: ينجو لدى الاصطدام بالسيارة صدمة قوية، وفي مثل هذه الموارد نقول لبعضنا: لقد رحمك الله، حيث أوشك الاصطدام أن يتسبب في هلاكك. لعل هذه هي رحمة خاصة.

ترى هل تُشير هذه الرحمة الإلهية الخاصة إلى أننا أصبحنا من عباد الله الصالحين؟.

قد يكون كذلك، وقد يكون الأمر مجرَّد فتنة وتأخير العقوبة إلى وقت آخر حسب ما قال ربُّنا سبحانه ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

فلا يصح أن نغترَّ بهذه الرحمة الإلهية ونسترسل في الغفلة. إنّ هذه الرحمة الإلهية لطف من ناحية، ولكنها من ناحية أخرى امتحان وفتنة. وقد أجاز الله تعالى لنا أن ننتفع بها مدة، ليُعلم موقفنا منها، وما إذا سيكون إيجابيًّا صالحاً أم سلبيًّا طالحاً؟.

إن النعم الربانية يُراد بها الابتلاء، فلا يأمن ابن آدم مكر الله عز وجل، فذاك من المحرمات التي ورد التأكيد على تجنبه. قال الله جل

وعلا: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

على الإنسان ألّا يظن أنه أنجز كل وظائفه، فيقول -مثلاً-: إنني أُصلّي وأصوم وأتعلّم وأقرأ، فماذا أفعل أكثر من كل هذا؟ إنما على المرء أن يخشى ويحذر، إذ من الممكن جدًّا أن يرتكب خطأً، بغيبة أو بُهتان أو كذب أو أي فعل قبيح آخر في لحظة من اللحظات، يستدعي نقمة وعذاباً وعقوبة حتمية.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِذَا هَمَمْتَ بِخَيْرٍ فَلَا تُؤَخِّرْهُ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رُبَّمَا اطَّلَعَ عَلَى عَبْدِهِ وَهُوَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ طَاعَتِهِ فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أُعَذِّبُكَ بَعْدَهَا. وَإِذَا هَمَمْتَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تَفْعَلْهَا، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رُبَّمَا اطَّلَعَ عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِيهِ فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَغْفِرُ لَكَ أَبَداً**»[2].

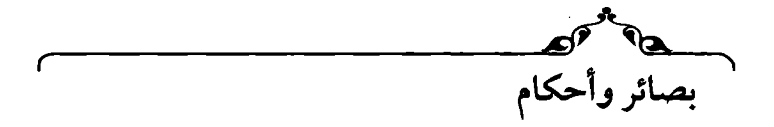
ينبغي الحذر والمراقبة الشديدة، فلا نغفل عن الذنوب فنرتكبها أو عن الطاعات فندعها.

إحذروا غضب الرحمن

الغرور سببٌ مدمِّر جدًّا، وهو قد ينشأ من النظر إلى نعم الله تعالى علينا وتواترها واستمرارها، مما قد يُؤدِّي إلى الغفلة عن الذنوب. إنه يُدمِّر مستقبل الإنسان. إن الله تعالى عظيم ومُتكبِّر ومُنتقم، كما هو لطيف بعباده وهو أرحم الراحمين. فلا ينبغي أن نُمارس ما يُسبِّب ألّا يرحمنا أرحم الراحمين.

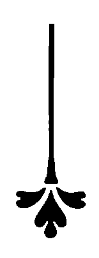
(١) سورة الأعراف، آية ٩٩.
(٢) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١، ص١٤٧.

علينا أن نُحقِّق التوازن بين الخشية والأمل، ذلك أن هذا التوازن مشهود في نظم الآيات القرآنية الكريمة، فإن وردت آية عذاب، تلتها آية رحمة. وفي هذه الآية المباركة من سورة (يس) المباركة، يقول تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ من جهة، ومن جهة أخرى يقول: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، حيث يُحدِّد وقتاً محدوداً للتمتُّع بالنعم، وهو أجل الإنسان، وقد يحين في أية لحظة.



بصائر وأحكام

إن الرحمة الإلهية لطف من ناحية، ولكنها من ناحية أخرى امتحان وفتنة. لذا فلا يصح لنا أن نُغترَّ بها، إنما الواجب تحقّيق التوازن بين الخوف والرجاء، وهو الذي نشهده في نظم كتاب الله الكريم.



لعلكم ترحمون

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

* * *

من الحديث

روى الحلبي في تفسير هذه الآية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: «مَعْنَاهُ: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ مِنَ العُقُوبَةِ»[1].

تفصيل القول

حيث رحمنا الله تبارك وتعالى وأنقذنا من الغرق وأوصلنا إلى البر، فإن من الجدير أن نُؤمر بالتقوى. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، واحذروا المستقبل والماضي لتغشاكم الرحمة الإلهية.

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٨، ص٢٧٨.

التقوى مصدر الرحمة

هناك -في الآية السابقة- قال عز وجل: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾، وهنا يقول: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

إذن؛ فاكتساب الرحمة يتمّ بالتقوى، إذ هما مقرونتان إلى بعضهما. فحينما يتَّقي ابن آدم ربَّه المتعال يُشمل برحمته، ولو كان في قلب العاصفة، أو كان في طائرة حال سقوطها، فهو سيُحفظ بحفظ الله، ولكنه إن تجرَّد عن التقوى، سيتعرَّض لأفدح الأضرار ولو كان جليس بيته.

خطر السرطان

يحوي بدن الإنسان مليارات الخلايا، فماذا يحدث إن أخطأت الخلايا في أداء مهامها؟ يحدث ما يُسمّى بمرض السرطان، ولم يكتشف المختصون حتى الآن الأسباب الدقيقة لذلك، وكيف يتعطَّل عمل الخلية فتفسد وتتكاثر بلا روية.

وقد كتب أحد أطباء السرطان، وهو لبناني الجنسية، مؤخراً كتاباً عن هذا المرض الخطير، قال فيه: لكل خلية عقل في صميمها، كما لها عمَّال منفذون خارجها؛ وبعبارة أخرى: لكل خلية قوة مقننة وقوة منفذة، والخلية بحجمها المتناهي في الصغر يكمن في داخلها عقل موجّه وقوة تنفيذية.. والقوة المقننة بمثابة النواة، وهي توعز إلى العمال وتأمرهم عن بُعْد، وقد يكون أحد الأوامر أن قسّموا الخلية! فتنقسم إلى نصفين، ويكون كل نصفٍ خليةً بحد ذاتها، ويحدث تارة

أن يُخطئ مراسلو النواة، إذ مع أن النواة الداخلية لم تُصْدِر الأمر بتقسيم الخلية، ولكن العمال التنفيذيين يقومون بتقسيم الخلية تبعاً لذلك الخطأ الصادر عن المراسلين. وهذا الانقسام والتكاثر هو نفسه المرض المسمّى بالسرطان!.

نعوذ بالله، فقد يجلس المرء في بيته وهو في وضع استراحة ممتاز، ولكنه يجهل أن خليته تعمل خطأً، ترى من الذي أمرها أن تعمل خطأً؟ أنا لا أدري! من الذي يأمر مليارات الخلايا في البدن بأن تعمل صحيحاً، أو يقول لمثلها في العدد: اعملي خطأً وتسببي بمشكلة؟.

لا أقول: لا أدري. بلى؛ إنه الرَّبُّ المُهيمن المُدبِّر، إنه هو الله سبحانه وتعالى، الذي يُحيط بكل خلقه علماً وقُدرة، ويعلم قوامه ومتانته وفعله.. بلى؛ لا بد من تقوى الله، لأنها تبعث على سبوغ الرحمة الإلهية علينا ودوامها.

(لعل) جزمٌ أم شك؟

وردت في الآية الشريفة عبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فما معنى (لعلَّ)؟.

قالوا: عبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تعني أنكم ستُشملون بالرحمة حتماً. وقال بعض آخر: إنّ (لعلَّ) بمعنى الرجاء والأمل؛ أي: يُحتمل أن تُشمَلوا بالرحمة، دون أن تكون حتماً.

يبدو أن معنى (لعلَّ) في القرآن المجيد أمر بين المعنيين أعلاه.. بمعنى: إنّ (لعلَّ) توضّح سُنَّة إلهية، ولكن لا سُنَّة ملزمة بالنسبة لله عز وجل، إذ هو تبارك وتعالى أسمى من جميع السُّنن، ولكن الله إذا أصدر وعداً، فإنه يفي به، وأمثال النصوص القرآنية القائلة: ﴿وَعْدُ

غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[1]، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾[2] تؤكد هذه الحتمية. أما إذا جعل الله تعالى سُنَّةً من قبيل حرق النار، فهي لا تعني حتمية الفعل وعدم إمكانية الاستثناء فيها لتكون النار مُحْرِقة دوماً.

السُّنن الإلهية، والتي يُسميها الناس بالقوانين الطبيعية، إنها تجري ليل نهار ولكنها محكومة بأمر الله، ولولا إذن الله تعالى لما جرت. ألا ترى أن النار تُحرق ولكنها لا تُحرق النبي إبراهيم عليه السلام، لأن الله لم يأذن لها بذلك، بل قال لها: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[3].

والسكين تفري أوداج البشر إذا مُرِّرَ عليها، ولكن تلك السكينة التي استخدمها النبي إبراهيم عليه السلام لذبح ابنه إسماعيل عليه السلام لم تفر أوداجه الناعمة.

وهكذا كل السُّنن؛ مثلاً سمعت البعض ينقل رواية مأثورة مضمونها: حينما يدخل الدواء لبدن المريض، يسأل الرَّبُّ المتعال قائلاً: هل أعمل بما جعلته فيَّ من خاصية، أم أعمل بما هو ضدها؟ وهكذا لا يعمل بما خُصَّ به إلَّا بعد الإذن.

ولذا يُشاهَدُ كثيراً أن دواءً يُستعمل، ولكنه يترك أثراً معاكساً.

يمكن أن يُطرح السؤال القائل: أليس ما قيل منافٍ لآيات شريفة من قبيل قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[4]؟

الجواب هو: إن حرق النار وتأثير الدواء الإيجابي من جانب،

(1) سورة هود، آية ٦٥.
(2) سورة المؤمنون، آية ٢٧.
(3) سورة الأنبياء، آية ٦٩.
(4) سورة فاطر، آية ٤٣.

وإذن الله تبارك وتعالى من جانب آخر، يُعدّان معاً سُنَّةً إلهية. ولذا يمكن القول بشكل قاطع: إنّ السُّنن إذا أُيدت من قبل الله الحق، فإنها تقع حتماً ولا يحدث فيها التبديل، وإذا ما لاحظنا وقوع التبدُّل والتحوُّل في السُّنن فإننا نستنتج كونها لم تحظ بإذنه تقدَّست أسماؤه.

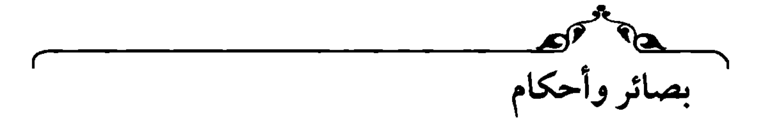
والسؤال الآخر هو: ألا يعنى بناءً على ذلك، أن الجبر حاكم؟.

والجواب: بلى؛ الجبر حاكم على عالم الخَلْق؛ دون الإنسان الذي أُوتي مساحة من الاختيار لابتلائه. فالدواء مجبَر على أن يعمل ويُؤثِّر طبقاً لإرادة الله تعالى، ولكن ليس في ذلك جبر على ابن آدم، حتى أن أحد الأمور التي يُعذر الإنسان فيها؛ هو المرض.

الآيات التشريعية والتكوينية

ثَمَّ سؤال جدير أن يُطرح في الآية الشريفة، وهو: إنّ (إذا) حرف شرط وهو بحاجة إلى جواب، فأين هو جواب (إذا) في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾؟

حقًّا؛ الجواب نجده في الآية التالية.



بصائر وأحكام

١- إنّ اقتران التقوى بالرحمة، سُنَّةٌ إلهية واضحة.

٢- السُّنن الجارية في تدبير الخلق يُجريها الرَّبُّ سبحانه، وإذا شاء بحكمته فإنه يُوقفها. وهكذا فلا تتحقَّق ظاهرة إلَّا بعد إذنه تعالى.



إلَّا كانوا عنها مُعرضين

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

***

تفصيل القول

تُعدُّ هذه الآية الكريمة إجابة عن الشرط الذي تضمَّنته الآية الشريفة السابقة.

هذا وإن المقصود من الآيات الإلهية في هذه الآية، هو الأعم من المصاديق التي تُقرَأ كالقرآن الكريم، أو تُشاهَد كالحوادث الخارقة، أو حتى مثل العذاب الشامل الذي نزل بالأمم. فإذا قيل للناس أن يتَّقوا الله، ثم قُرِئت لهم آيات أو عُرِضَت عليهم آيات، ﴿كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

العمل الصالح ولزوم المحافظة عليه

أشار بعض العلماء إلى أن هذه الآية الشريفة نظير قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[1]. ففي هذه الآية لفت الله تعالى أنظارنا إلى المستقبل وأمر بالتقوى.. فما يُواجهنا في المستقبل هو العمل الذي نقوم به، وقد أمر الله الإنسان أن يحسب للتقوى حسابها لدى قيامه بالعمل.

ولكن ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾[2].

إنّ مراعاة عامل الإخلاص في إنجاز العمل جزء من المسؤولية الشرعية.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[3].

إذ لا بد من إحراز الإخلاص حين العمل، ليحظى بالقبول؛ ثم تنبغي المحافظة على سلامة العمل، لئلّا يتعرَّض للبطلان والحبط.

ولعل شخصاً يُؤدِّي لآخر خدمة أو عملاً، ثم يَمُنُّ عليه ويقول له بعد ذلك: لولاي ما كنتَ على قيد الحياة.. وهذا ما يُؤدِّي إلى حبط العمل.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**الدُّنْيَا كُلُّهَا جَهْلٌ إِلَّا مَوَاضِعَ الْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ كُلُّهُ حُجَّةٌ إِلَّا مَا عُمِلَ بِهِ، وَالْعَمَلُ كُلُّهُ رِيَاءٌ إِلَّا مَا كَانَ مُخْلَصاً، وَالْإِخْلَاصُ عَلَى خَطَرٍ حَتَّى يَنْظُرَ الْعَبْدُ بِمَا يُخْتَمُ لَهُ**»[4].

إنّ العالَمَ كله عبارة عن أفق من الجهل إلّا ما يطّلع عليه المرء ويعلم به، وحينما يعلم يكون مسؤولاً ومكلّفاً أن يعمل بما يعلم، وإلّا فإنه يتعرَّض للمحاسبة والعقاب.

---

(١) سورة الحشر، آية ١٨.
(٢) سورة يوسف، آية ١٠٦.
(٣) سورة البقرة، آية ٢٦٤.
(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج٢، ص٢٥٣.

ثم إنّ العمل رياء كله، اللّهم إلّا ما تأسّس على الإخلاص، ممّا يدل على أن دوافع المرء في العمل مختلطة بالكثير من المؤثّرات الاجتماعية الباطلة والمُبطِلة للعمل. كما أن الإخلاص حالة محفوفة بالخطر، لعظيم أهميته ودوره المصيري في حياة الإنسان العالم العامل، اللهم إلّا أن يمتد الإخلاص إلى آخر لحظة في حياته.

وقد صرح الإمام محمد الباقر عليه السلام بالقول: «**الإِبْقَاءُ عَلَى العَمَلِ أَشَدُّ مِنْ العَمَلِ**»[1].

الإعراض منحدرٌ خطير

أحد البحوث المُهمَّة الذي طُرِح في القرآن الكريم مراراً، هو بحث (الإعراض) عن آيات الله تعالى ودلائله. فما هو الإعراض؟ وماذا يحدث لو أنه رمى بالإنسان إلى المنحدر الخطير السحيق؟ وما هو مصيره إذ ذاك؟

الإعراض هو ألَّا يُولي المرء اهتماماً عندما يُواجه الآيات الإلهية، سواء ما كان من النوع اللفظي أو العيني مثل الآيات الصامتة، فهو يسمعها أو يشاهدها ولكنه لا يلتفت إلى دروسها وعبرها، فهو لا يُرتِّب عليها أثراً يُذكر، بل قد يُحاربها ويُناقضها.. إنه يرى الشمس والقمر، ويلمس الصحة والمرض، ويمارس النوم واليقظة، ولكنه لا يعي دور ذلك كله بالنسبة إليه، ويُحجم عن الاستفادة منها.

وكذلك حينما نُواجه آيات ناطقة عندما تُقرأ علينا آيات القرآن حق القراءة، وتُتلى علينا الروايات، أو نسمع من يعظ، فإننا مُلزَمون بالالتفات والاهتمام، دون أن نبحث عن الأعذار لننفلت عنها.

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٢٩٦.

إننـا جميعـاً مُبتلـون ببعـض مفـردات الإعـراض عـن الآيات. فالآيـات تُقرأ علينـا ولكننا -والعيـاذ بالله- قـد لا نحملها على محمل الجد، وكأننا نقول: إنّ الموت حقٌّ، ولكن لجارنا.

إنّ هـذا الإعـراض والمعاجَـزة وربَّما التحدي لآيـات الله أو أية موعظة، تسـوق الـروح إلى الخواء وربما الموت. فكما يموت الجسـم ما لم يصلـه الطعام، كذلك الروح تموت ما لم يصلها الإمداد المعنوي؛ إنها تمرض، وشـيئاً فشـيئاً تُصاب بالضيق ثم الانحراف وأخيراً الصدأ، ثم يُختم على القلب حتى ينتهي إلى العقاب.

وكل هذا قد ينشـأ من التسويف في عملية إصلاح النفس. إذ يقول الفرد: سأقرأ القرآن عصراً، فإذا حلَّ العصر قال: سأفعل ذلك ليلاً، وحين الليـل يُرجئ القـراءة إلى الصباح. وهكذا.. بغـض النظر عن وعي القرآن مـن خـلال التدبُّر فيه والاستفادة من أحاديث النبـي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، ثم العمل به والاستفادة منه، وقد ينتهي الأمر به إلى قساوة القلب.

إنّ علينـا التسـليم لأمر الله، وأنه نقيـض الإعراض. فلا نكوننَّ ممَّـن تمـادوا في غيهـم ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾[1]؛ أي محجوبـة بِحُجُـب الضـلال والإعراض. بلى؛ هنـاك حالات من ضياع النفـس عبَّر عنها الوحي بكلمات مثل: (قفل)[2] و(طبع)[3] و(ختم)[4] و(رين)[5].

إنها نهاية فضيعة لا بد أن نجأر إلى ربِّنا منها.

---

(١) سورة البقرة، آية ٨٨.

(٢) مثل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد،٢٤).

(٣) ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة،٩٣).

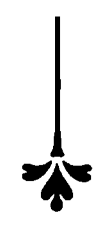
(٤) ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ (الجاثية،٢٣).

(٥) ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (المطففين،١٤).

بصائر وأحكام

١- الإعـراض عن آيـات الله أو أية موعظة، تسـوق الروح إلى الخـواء والموت. فكما يموت الجسـم ما لم يصلـه الطعام، كذلك الروح تمـوت مـا لم يصلهـا الإمداد المعنـوي، إذ تتعب وتمرض وشـيئاً فشـيئاً تُصـاب بالضيق والانحراف والصـدأ، ثم يُختم على القلب حتى ينتهي إلى حتمية العقاب.

٢- علينا ان نجأر إلى ربِّنا من هذه النهاية الفضيعة.



أنفقوا ممَّا رزقكم اللَّه

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ المُنْفِقَ بِمَنْزِلَةِ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله. فَمَنْ أَيْقَنَ بِالخَلَفِ جَادَ وَسَخَتْ نَفْسُهُ بِالنَّفَقَةِ**»[1].

تفصيل القول

يسعى المُعرِض عن الحقيقة أن يُغطي إعراضه بشيء من التبرير الذي تُسوِّل به نفسه ويخاله جميلاً؛ ونموذج ذلك، إعراضه عن الإنفاق

(١) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٦١٩.

ومساعدة المحتاجين، ثم البحث عن الأعذار، حتى ليقول: لقد أعطاني الله هذه النعمة ولم يُعطها هذا المحتاج. وهذا أقوى شاهد على أنني أنا وليس هذا المحتاج جدير بالنعمة، فكيف أتنازل عنها له؟

١- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾.

انظُروا كيف يُعطِّل الشيطان عقل البشر، ويُوقف الإنفاق ومساعدة المحتاجين عبر المعاذير الباطلة.

والإنفاق يكون من جميع النعم الإلهية. فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1].

فالعلم والقوة والوجاهة -بالإضافة إلى المال- نِعَمٌ إلهية وينبغي الإنفاق منها.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ زَكَاةً، وَزَكَاةُ الْأَجْسَادِ الصِّيَامُ»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**زَكَاةُ الْعِلْمِ نَشْرُهُ، زَكَاةُ الجَاهِ بَذْلُهُ، (زَكَاةُ الحِلْمِ الاحْتِمَالُ)، زَكَاةُ المَالِ الْإِفْضَالُ، زَكَاةُ الْقُدْرَةِ الْإِنْصَافُ، زَكَاةُ الجَمَالِ الْعَفَافُ، زَكَاةُ الظَّفَرِ الْإِحْسَانُ، زَكَاةُ الْبَدَنِ الجِهَادُ، وَالصِّيَامُ زَكَاةُ الْيَسَارِ بِرُّ الجِيرَانِ وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ، زَكَاةُ الصِّحَّةِ السَّعْيُ فِي طَاعَةِ الله، زَكَاةُ الشَّجَاعَةِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله، زَكَاةُ السُّلْطَانِ إِغَاثَةُ المَلْهُوفِ، زَكَاةُ النِّعَمِ اصْطِنَاعُ المَعْرُوفِ، زَكَاةُ الْعِلْمِ بَذْلُهُ لِمُسْتَحِقِّهِ وَإِجْهَادُ النَّفْسِ فِي الْعَمَلِ بِهِ**»[3].

---

(١) سورة البقرة، آية ٣.

(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٧٢.

(٣) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٧، ص٤٦.

فالروايتان وضمن تأكيدهما على ضرورة الإنفاق من كل نعمة إلهية، أشارتا إلى أن للجسد إنفاقاً خاصًّا وهو الصيام، كما أن للعلم إنفاقاً خاصًّا أيضاً وهو أن يُعلِّمه أهله، وأنّ لكل شيء آخر يملكه الإنسان إنفاق يتناسب معه.

لكن في هذه الآية -مورد التفسير- يُحتمل على الأكثر أن يكون المقصود بالإنفاق هو الإنفاق من المال، إذ وردت مفردة (إطعام) في الآية، وهي تُوحي بالإنفاق المالي أو المادي.

٢- ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

أي: إنكم مُنحرفون، وإن إنحرافكم واضح كل الوضوح. فقد أعطيتم النعم التي وهبها الله لكم إلى غيركم.

ولعل كلام الكافرين هذا -في الحقيقة- هو نفسه كلام أنصار النظام الطبقي، حيث يقول قائلهم: إن الله خلق الغني غنيًّا والفقير فقيراً، وهكذا يعيشان ويموتان.

وقال بعض المفسرين: إنّ هذه العبارة القرآنية إنما هي صادرة عن الله أو المؤمنين خطاباً للكفار الذي يستهزئون بالمؤمنين، فقد أُريد من الكافرين أن يُنفقوا شيئاً ممَّا أعطاهم الله ويُقدمونه للمُحتاجين والمؤمنين منهم خاصة، لكنهم صارحوا المؤمنين بالقول: ألستم تؤمنون بالله؟ نحن غير مؤمنين وقد أُعطينا المال والثروة، فَلِم لم يُعطكم ربُّكم مثل ما أعطانا؟ ولو كنتم قوماً جديرين، لأعطاكم الله مثل ما أعطانا؟ وهذا لعمري سخرية كافرة.

وللردِّ على هؤلاء الكافرين الجاهلين بحكمة الحياة، يقول المؤمنون؛ أو يقول الله تعالى لهم: إنكم لا تعون المشيئة الإلهية، فظننتم

أن كل من حاز ثروة قد أصبح عزيزاً وجيهاً عند الله عز وجل. كلَّا؛ إن الأمر ليس ما ذهبتهم.. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

إنكم أشخاص تقولون: إن الله قد تلطَّف وتفضَّل عليكم لما لكم من المكانة لديه، وأنه تعالى سلبها المؤمنين وضيَّق عليهم.. إنما تقولون ذلك لجهلكم بالله تعالى، إذ إنه القادر الحكيم يريد السمو بمقام إنسانٍ مّا عبر الفقر والبؤس والحاجة.. وهذه الحقيقة والقاعدة تُفهم بوضوح من قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾(١).

بناءً على هذا؛ فإن فريقاً يُمتحنون بالفقر وضغط الحياة؛ ليعودوا إلى ربِّهم المتعال، ولكنهم إن لم يُفلحوا في ذلك، أصحبوا ممَّن قال فيهم الرَّبُّ سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾(٢).

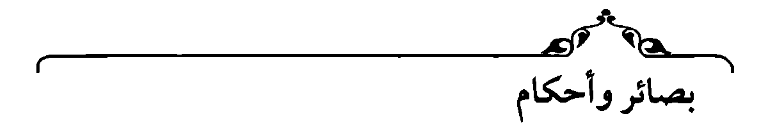
حيث نُوعز للثروة لتهطل عليهم وتلتفت إليهم الدنيا من دون حساب، ليجدوا أنفسهم في أجواء أخرى وليتعرَّضوا لامتحان جديد.. ومعلوم أن الرفاه والثروة يتسبَّبان بمعدلات كبيرة من الغفلة.. وعموماً، فإن الامتحان بالنعم والثروة أصعب من الامتحان بالفقر والفاقة، بل إن الله عز وجل إذا أراد أن يغضب على أحد، صبّ عليه النعم والرفاهية. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ هلّلوا لما أصابهم من ثراء، بغوا وطغوا حتى استحقوا العذاب، وهنا: ﴿أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

يُستفاد من هذه الآيات الشريفة أن الله تعالى يُنعم على البعض

(١) سورة الأنعام، آية ٤٢.
(٢) سورة الأنعام، آية ٤٤.

بالثروة حين يغضب، ليُقرر عاقبة السوء لمن يُساقون إلى هذا الامتحان العسير.

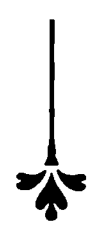
إذن؛ فالنص القرآني ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نص صادر عن المؤمنين، حيث يعيبون على الكفار المُمتنعين عن الإنفاق؛ الظانين بأن الله تعالى ما أنعم عليهم إلَّا لجدارتهم بالنعمة ولمقامهم لديه.. فيُنبههم المؤمنون ويُحذرونهم من أنهم راكسون في الفتنة، ويُوشكون على السقوط في النقمة الإلهية. ولكن هناك تفسيراً آخر أن الكفار عابوا على المؤمنين الذين أنفقوا على المحتاجين ونعتوهم بأنهم في ضلال مبين. والله العالم.



بصائر وأحكام

١- كما أن هناك فريقاً يُمتحنون بالفقر وضغط الحياة ليعودوا إلى ربِّهم المتعال، كذلك يمتحن الله تعالى آخرين بوفرة النعم عليهم وتكاثر أموالهم، فهل يُطيعون الله فيما أمرهم بالإنفاق؟

٢- على الإنسان أن يبقى أبداً متعالياً على مُتغيرات الحياة، مُتشبثاً بقيم الحق.



متى هذا الوعد؟!

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**فَإِنَّ وَعْدَ اللهِ أَصْدَقُ الْوَعْدِ، وَكُلُّ مَا وَعَدَ فَهُوَ آتٍ كَمَا وَعَدَ**»[1].

وقال عليه السلام أيضاً: «**أَنَّ الْأَمَلَ يُذْهِبُ الْعَقْلَ، وَيُكَذِّبُ الْوَعْدَ**»[2].

تفصيل القول

يقول المؤمنون في معرض إجابتهم وردّهم على الكفار: نحن الذين نُنفق لا نخسر شيئاً، وما نقوم به في الحقيقة نوع تجارة؛ فاليوم نُقدِّم جزءاً

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص١٤٩.
(٢) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص١٥٢.

من أموالنا وغداً نستعيدها أضعافاً مضاعفة، كما وعدنا ربُّنا سبحانه، حيث قال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وحيث يعي المؤمنون هذا الوعد الإلهي وأمثاله، تراهم يقولون: إنـما نُنفق على هذا الأساس. فيقول الكافرون: لو أنفقنا وكان الربح جزيلاً، فأين نستعيد ثمرة إنفاقنا؟ وهذا يُشير إلى أزمة الكافرين فيما يتعلَّق بالإيمان بما وراء الحياة الدنيا.

والقرآن المجيد وبحذفه العديد من الأسئلة والإشكالات والإجابات التي يستطيع قارئ القرآن أن يستلهمها ويعيها فيكتفي ببعضها، وبعد تبرير غير مبرَّر من جانب الكفار بخصوص عدم الإنفاق الوارد ذكره، ترى القرآن يتحدَّث عن لسان الكافرين فيقول: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟

هذا القسم في الحقيقة ردّ الكفار على قول المؤمنين وقول الله تعالى من قبل. القرآن لم يذكر مقولة المؤمنين، ولكن هذا الردّ الكافر يُجسِّد إعراضاً ثانياً منهم. علماً أن كل إعراض يُزيد أزمات الكافرين حدة. ففي الإعراض الأول كانت الرغبة في التهرُّب من مسؤولية الإنقاق، ولدى الإعراض الثاني ثبت أنهم غير مُصدِّقين بحقيقة القيامة.

فقد قالوا بدءاً: لن نُنفق، وجاؤوا بدليل على إعراضهم، فردّ المؤمنون إعراضهم وقالوا: هذا الإنفاق سينفعكم وينتهي لصالحكم، وهو مشروع رباني لحصولكم على الثواب، وإن الله تعالى كان قادراً على أن يُعطي البؤساء المال، ولكنه جعلكم وسيلة لتنالوا خيراً.

وحيث سمع الكفار هذا القول أعرضوا ثانية وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا

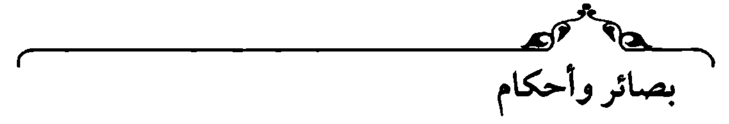
(١) سورة البقرة، آية ٢٦١.

﴿ٱلْوَعْدُ﴾؟.

من هذا النص القرآني نفهم أن الإنسان إذا تطبَّع وأصرَّ على الجدل والعناد، فإن مشاكله لن تُحلَّ أبداً، ذلك لأنه سيُعدُّ لكل دليل منطقي ردًّا تافهاً يخدع نفسه به. والقرآن المجيد يصف هذه الحالة البشرية المُزرية ويقول: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1]، ويقول أيضاً: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[2].

وفي الآية نرى -بوضوح- هذا العناد المتمثل في هذا الطبع التافه، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ استبعاد الآخرة زمنيًّا، وتسويف التوبة، والتشبُّث بأعذار من قبيل: بيننا وبين الموت والبرزخ والحساب سنوات عديدة، كل ذلك من الأسباب الرئيسة لتمادي البشر في الضلال المبين.

ومن هنا فإن معالجة القرآن الكريم لهذه العِلَّة تعتبر هامَّة لإصلاح البشر.

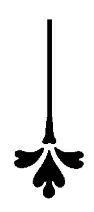


بصائر وأحكام

١- إن الإنسان إذا تطبَّع وأصرَّ على الجدل والعناد، فإن مشاكله لن تُحلَّ أبداً، ذلك لأنه سيُعدُّ لكل دليل منطقي ردًّا تافهاً يخدع نفسه به.

٢- من العلل التي تجعل الإنسان يتمادى في غَيِّه، استبعاد الآخرة زمنيًّا.

(١) سورة الكهف، آية ٥٤.
(٢) سورة النحل، آية ٤.



ما ينظرون إلَّا صيحة

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

* * *

من الحديث

جاء في الحديث: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلَانِ قَدْ نَشَرَا ثَوْبَهُمَا يَتَبَايَعَانِهِ، فَمَا يَطْوِيَانِهِ حَتَّى تَقُوْمَ. وَالرَّجُلُ يَرْفَعُ أَكْلَتَهُ إِلَىٰ فِيْهِ، فَمَا تَصِلُ إِلَىٰ فِيْهِ حَتَّىٰ تَقُوْمَ. وَالرَّجُلُ يَلِيْطُ حَوْضَهُ لِيَسْقِيَ مَاشِيَتَهُ، فَمَا يَسْقِيْهَا حَتَّىٰ تَقُوْمَ»[1].

تفصيل القول

يسأل الكفارُ المؤمنين قائلين: ما تُودعونه في مصرف الإنفاق الإلهي، متى تستردونه؟ ومَنِ الذي يردُّه لكم؟

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٨، ص٢٧٩.

فيجيبهم الله تعالى: يا من لا تثقون بالمصرف الإلهي.. حينما تحين القيامة، ما الذي سينفعكم؟ يا من تعترضون على الإنفاق وتنتظرون وعد الله وعذابه، فإذا حان العذاب لن تتسنى لكم فرصة الاستدراك.

١- ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾

أحد معاني (النظر) في القرآن المجيد هو (الانتظار)، وعليه لا يناسب أن نُفسِّره بمعنى نظر العين، وحينما نقرأ قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١) فهو بمعنى انتظار الرحمة الإلهية، وقوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾(٢) تعني منح الفرصة حتى يتيسر أمره.

٢- ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾

ماذا ينتظرون يا ترى؟ هل ينتظرون العذاب؟

إذا جاء عذاب الله، فهذا يعني إتمام المهلة. وعليه؛ فإن الذين يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ سيتضرَّرون كل الضرر إذا حَلَّ ذلك اليوم.. إن أولئك الذين ينتظرون، إنما ينتظرون -في الحقيقة- وعداً إلهيًّا، يبدأ بصرخة وصيحة، وبانتهاء فرصة امتحانهم، فيما هم منهكمون بالجدال والعناد. قال الله تعالى:

٣- ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾

في الوضع الذي يُضيِّعون وقتهم الثمين بالجدل والعناد، وفي حين قولهم المتواصل: مَنْ؟ ومتى؟ وكيف؟ تأخذهم الصيحة فجأة فيحلُّ بهم الموت، ولات حين مناص. وهذا هو الردُّ القاطع على سُخريتهم بالمؤمنين وبالحقائق التي كانوا يُذكِّرونهم بها.

---

(١) سورة القيامة، آية ٢٣.
(٢) سورة البقرة، آية ٢٨٠.

بصائر وأحكام

فيها الكافـرون منهكمون بالجدال والعناد، يأخذهم الله بصيحة من عنده، مُؤذناً بانتهاء فرصة الامتحان، عندئذ يتحقَّق وقت العذاب.



لا يستطيعون توصية

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

نشاهد في كل يوم كيف تُفاجئ الحوادث أصدقاءنا ومعارفنا؛ فهذا يمرض فيموت، وذاك يسقط من عَلٍ، وهذا يصطدم بسيارة، وذاك يتوقَّف قلبه فجأة.. ممَّا يدل على أَنّ الإنسان إذا جاء أجله وانطفأت شمعة عمره لا يستأخر لحظة ولا يستقدم.

ومن هنا كان من الأنسب أن يكتب الجميع وصاياهم ويُعلِموا من يهمه الأمر بها، وهي من المستحبات الشرعية التي كثيراً ما ورد التأكيد عليها. قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**الْوَصِيَّةُ حَقٌّ، وَقَدْ أَوْصَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُوصِيَ**»[1].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٧، ص٣.

ولا يخشى امرؤٌ من إنجاز هذا الفعل المستحب، لا سيما وأن عدم القيام به لا يُؤخِّر في حلول الأجل ولا يُقدِّم؛ هذا وقد قيل: إن كتابة الوصية تُطيل العمر أصلاً.

وليس من الجدير بمؤمن ولا عاقل أن تبقى في ذمته حقوق للناس أو حقوق لله تعالى، فلا يُوصي بها ثم يُدركه الموت فيُحاسَب عند الله.

وإنّ من الجدير بكل إنسان أن يستبرئ ذمته من الحقوق.

إن تدوين الوصية، وإعداد الكفن في كل يوم، يُخرجان المرء من حالة الغفلة. ولكن لدى حلول الأجل بابن آدم، لن تسنح له الفرصة في كتابة الوصية، إذ الموت سَفَرٌ بلا عودة.

وليس المقصود بالوصية أن يأتي رجل الدين عند رأس أحدهم ويقول: الحمد لله الذي أعطاه العقل.. ثم يكتب: بكامل قواه العقلية يُوصي هذا الشخص بكذا وكذا.. كلّا؛ إن (التوصية) أعم من الوصية المكتوبة وغير المكتوبة.

الآية الشريفة تُشير إلى أن المؤمنين يقولون للكافرين المعرِضين المعاندين والمستهزئين: إن الله سيأخذكم أخذ عزيز مُقتدر، حتى أنكم لن تجدوا الفرصة في أن تغمضوا أعينكم أو تفتحوها.

وقد جاء في الحديث: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلَانِ قَدْ نَشَرَا ثَوْبَهُمَا يَتَبَايَعَانِهِ، فَمَا يَطْوِيَانِهِ حَتَّى تَقُوْمَ. وَالرَّجُلُ يَرْفَعُ أَكْلَتَهُ إِلَىْ فِيْهِ، فَمَا تَصِلُ إِلَىْ فِيْهِ حَتَّىْ تَقُوْمَ. وَالرَّجُلُ يَلِيْطُ حَوْضَهُ لِيَسْقِيَ مَاشِيَتَهُ، فَمَا يَسْقِيْهَا حَتَّىْ تَقُوْمَ**»[1].

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٨، ص٢٧٩.

١ - ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾

(التَّوصيـة) مصدر فعـل (وصّى)، وهي جاءت نكرة في سـياق النفي لتفيد العموم.

ولو قال سـبحانه: ما كانوا يستطيعون أن يُوصّوا، لكان المفهوم أنهم لن يستطيعوا أن يُوصّوا بصورة كاملة، ولكنه وفق التعبير القرآني الصادح، يكون المعنى أنه سـيعجز عن الوصية ولو بحرف واحد، هذا الحـرف الـذي يصادف في بعض الأحيان أن يُـوصي المرء من خلاله بما يُريد، ولكنه لدى الصيحة يحلُّ بساحته الموت فيفقد كل فرصة.

٢ - ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وثَمَّ سـؤال: هل هذه الصيحة ستكون حين قيامة ساعة القيام، أم أنهـا تشـمل لحظـة الموت أيضـاً، ذلـك لأن: «**مَنْ مَـاتَ فَقَـدْ قَامَتْ قِيَامَتُه**»[1] كما قال رسول الله ﷺ؟

من قوله العزيز: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ نستفيد مسألتين:

١ - أنهم أثناء الموت لن يُؤذَنوا بالعودة إلى أهليهم وممتلكاتهم.

٢ - ليـس أنهم لن يكون لهم رجوع أبداً؛ بل إنهم لن يعودوا إلى أهلهم، ولكنهم في يوم القيامة سيرجعون إلى الله ربِّهم.

طالمـا فكَّرت في الذين يُشـيِّعون الجنائز، ومـا إذا كانوا يُفكِّرون بعـدد الذين ماتوا وذهبـوا وابتعدوا، وأنهـم لن يعودوا إليهـم ليلتقوا بهم..

أم يظنـون أن الميت سـيبقى حيـث دُفِن؟ صحيـح أن قبره مُحدَّد

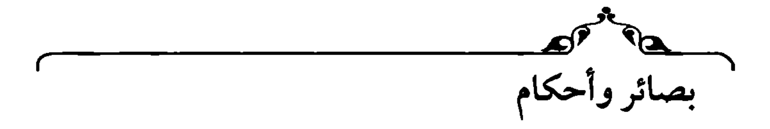
(١) بحارالانوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٥٨، ص٧.

ومعـروف، ولكـن لا يُعـرف أيـن هـي روحـه؛ في أي فلـك، وفي أي ملكوت، وفي أية نجمة، في وادي برهوت؛ أم في وادي السلام؟

قـال أميرالمؤمنـين عليه السلام في كلام لـه: «**وَكَأَنَّ الَّـذِي نَـرَى مِـنَ الْأَمْوَاتِ سَفْرٌ**[1] **عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ**»[2].

كلَّا؛ إنهم ذهبوا ولن يعودوا، وإنما إلى ربِّهم يرجعون.

وقيـد ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ﴾ في الآيـة، يدفـع إلى القـول بالتناغـم مـع الآيـات والمفاهيـم القرآنية بهـذا الصدد. فهم لن يرجعـوا إلى أهليهم، لكن لا يعني أنهم لن تكون لهم رجعة إلى ربِّهم.

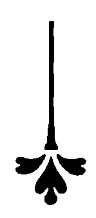


بصائر وأحكام

ليـس من الجدير بمؤمن وعاقـل أن تبقى في ذمته حقوق للناس أو حقوق لله تعالى، فلا يُوصي بها ثم يُدركه الموت، بل من الجدير بكل إنسان أن يستبرئ ذمته من الحقوق الآن أو عبر الوصية.

(١) سفر: أي مسافرون.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٢٢.



ونفخ في الصور

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ[1] الشَّوامِخُ[2]، وَالصُّمُّ[3] الرَّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً[4]؛ فَلاَ شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَلاَ حَمِيمٌ يَنْفَعُ، وَلاَ مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ»[5].

وقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «وَاعْلَمْ يَا ابْنَ آدَمَ؛ أَنَّ مِنْ

(١) الشم: جمع أشم؛ أي رفيع.
(٢) الشوامخ: المتسامي في الارتفاع.
(٣) الصم: جمع صم، وهو الصلب المصمت؛ أي الذي لا تجويف له.
(٤) قاعاً سملقاً: أي قاعاً مستوياً.
(٥) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٥.

وَرَاءِ هَذَا أَعْظَمَ وَأَفْظَعَ وَأَوْجَعَ لِلْقُلُوبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾[1] يَجْمَعُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ذَلِكَ يَوْمٌ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَتُبَعْثَرُ فِيهِ الْقُبُورِ»[2].

تفصيل القول

١ - ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾

﴿ٱلصُّورِ﴾ في اللغة هو البوق ذو الانحناء، حيث يكون طرفاه قريبين من بعضهما، وليس هو جهاز مستقيم الهيئة، فهو أشبه بالقرن الفارغ من الداخل، فيُنفخ فيه.

أما أين هذا الصُّوْر الذي يُنفخ فيه لإعلان بدء يوم القيامة، وكم هو طوله أو ثقله؟

لم يُذكر ذلك في الآية الكريمة، وكأن أمر تفاصيله غير مُهم، وليس المهم هو أن نعرف ما إذا كان صغيراً أو كبيراً، وكم له من الطول، وأي صوت سيصدر عنه، إنما المُهم هو ما يقع بعد النفخ.

خروج الأموات من القبور

٢ - ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾

﴿ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ جمع جَدَث، والجَدَث يعني القبر، ويُلفظ عند قوم (جَدَس) بالسين، ولعل بعض العرب يقلبون الثاء سيناً، فيقولون (سلاسة) بدلاً من ثلاثة. وعليه؛ فإن أجداث وأجداس صحيحتان.

---

(١) سورة هود، آية ١٠٣.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٧٣.

وفي نفخة الصور يخرج الأموات من القبور. فالميت المُسجَّى في القبر وبأيّ سنٍّ كان، ومن أية جنسية وكيفية، يخرج من القبر. وحتى يتبدل إنساناً كهيئته قبل الموت ليتمكن من الحركة باتّجاه المحكمة الإلهية. والخروج من القبر يستهلك فترة ليست بالقصيرة على الظاهر، ولكن كلمة ﴿فَإِذَا﴾ فيها إشارة إلى حالة الفجأة بالنسبة إلى قيام الأموات ونهضتهم.

ما معنى النسل؟

المعنى اللغوي لـ(النسل) هو المشي السريع أو الركض، ولعله يُوحي بالانحدار السريع.. وقال البعض: إنّ النسل نوع مشي. وذكر جمع: أنّ البعير المسرع في مشيه يُسمى ناسلاً.

وقال آخرون: إن كلمة (نسل) تعني الانفصال، وإذا قيل لذرية الإنسان نسلاً، فذلك لأن الإنسان ينفصل عن إنسان مثله، حتى أن كل شيء ينفصل عن مكانه يُدعى نَسْلاً، وتارة يكون هذا الانفصال عن المحل السابق، كمن يُغادر محلّه السابق. وعليه؛ فإن النسل هو الانفصال السريع.

قبل قيام القيامة هناك بشر لم يموتوا بعدُ إذ لم تحن آجالهم، وحيث إنه لا بد من موت الجميع قبل بدء يوم القيامة، هنالك يموت الأحياء عند النفخة الأولى التي تحدث بسرعة وعجلة لتُؤدِّي إلى موت الذين لن يستطيعوا توصية ولا هم إلى أهلهم يرجعون، إذ الجميع قد ماتوا. وبتلك النفخة تتشكَّل الصورة التي تحدَّث عنها قوله سبحانه وتعالى في آية أخرى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن

شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[1]، فإذا بقوا في قبورهم فترات ما، جاءتهم النفخة الثانية ليخرجوا وليقولوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ ﴾[2]؟

وعبّر أغلب المفسرين عن أن النفخة الأولى هي نفخة الصعق وموت الجميع لدهشتهم واستيحاشهم، وقد وصفت الروايات حالاتٍ عديدة لبني آدم قبيل هذه النفخة.

موارد استعمال (الصيحة) في سورة (يس)

وردت كلمة (الصيحة) في هذه السورة المباركة ثلاث مرات؛ إحداها في الآية (٢٩) وهي مُتعلِّقة بالعذاب السماوي الحالّ بقوم صاحب ياسين: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾.

والثانية في الآية (٤٩): ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾، وهي خاصة بالنفخة الأولى.

والثالثة في الآية (٥٣): ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾، وهي عائدة إلى النفخة الثانية فيما يبدو لإعلان البعث والسير إلى حيث ساحة الحساب ويوم القيامة.

ولكن ما هي الذبذبات الصوتية التي تصدرها النفخة حيث تُميت وتُحيي؟ فما هي تلك الخاصية وآثارها؟

لا ريب في أن صوت الصور يمتاز ببعث الحيرة والدهشة والصَّمَم، ولكن كيف تُحيي الصيحةُ الأموات؟

(١) سورة الزمر، آية ٦٨.

(٢) سورة يس، آية ٥٢.

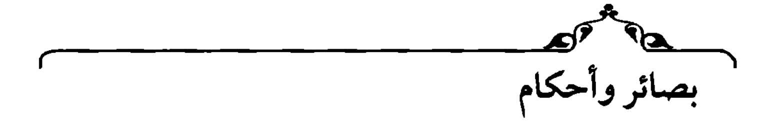
هنا؛ ينبغي تصوُّر القدرة الإلهية الأزلية والإيمان المطلق بها، والصيحة والنفخة خلق رباني له القدرة المتصرفة في الأشياء، وله تأثيرات متنوعة، شأنها شأن الهواء ذي الأثر المُتعدِّد على الفصول.

انصياع البشر بعد الموت

الفاصلة بين وجود الفرد في القبر وحتى يتحرَّك على الأرض فاصلة كبيرة جدًّا، ولكن في هذه الآية الشريفة تُختزل هذه الفاصلة وتُجعل قصيرة جدًّا وسريعة للغاية، حتى أن الأموات لَيُبعثون من قبورهم ويكدحون إلى ربِّهم بأسرع ما يمكن.

فَلِمَ هذه السرعة يا ترى؟

لأن الأمر الإلهي إذ ذاك يُجاب من قبل الإنسان بسرعة، ولا مجال له بالتلكؤ أو التفكير بالتمرُّد أبداً. ولنقل: إن الأمر الإلهي للبشر بالنهوض والخروج من القبور والتوجُّه إليه سبحانه وتعالى سيكون أمراً تكوينيًّا فيما يبدو، فَيُجبر الناس على الانصياع.



بصائر وأحكام

الصيحة والنفخة خلق رباني له القدرة المتصرفة في الأشياء، وله تأثيرات متنوعة، شأنها شأن الهواء ذي الأثر المُتعدِّد على الفصول.



من بعثنا من مرقدنا؟

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

* * *

من الحديث

روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ قال: «فَإِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا فِي الْقُبُورِ، فَلَمَّا قَامُوا حَسِبُوا أَنَّهُمْ كَانُوا نِيَاماً ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾»[1].

تفصيل القول

لماذا يُنادي هؤلاء بالويل والثُّبور ويتساءلون عَمَّن بعثهم

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٢١٦.

وأخرجهم من مرقدهم، لا سيما وأنهم يعرفون حقيقتهم، ويتذكّرون إنكارهم وتكذيبهم، وقد علموا الآن أنّ ما كانوا يُكذّبون به ويُنكرونه، حق وصدق؟

مِنْ عبارة ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ نستلهم فائدتين:

١- بهذه العبارة تبينت عظمة الله تبارك وتعالى وقدرته، حيث يحيي الموتى بهذه السرعة.

٢- استُعمِلت كلمتان في هذه العبارة: (البعث) و(المرقد)، ومن هذا نستفيد ونعلم أن الموت كما النوم، والبعث كما اليقظة؛ فهؤلاء قالوا: كأننا كنا نائمين وقد أيقظنا أحدهم.

في كثير من الروايات الشريفة شُبِّه الموت بالنوم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتَبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ**»[1].

تفسير الإمام عليه السلام يؤيد تنوع القراءات

قرأ أمير المؤمنين عليه السلام الآية الشريفة بالشكل التالي: (يَا وَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا) بكسر الميم في حرف (من) الأولى؛ أي إنّ الويل آتٍ مِنْ بَعْثِنا. وهذه القراءة قراءة مناسبة جدًّا، وتُوحي بمعنى خاص. وقد أكدتُ مِراراً أن هذا النوع من القراءة -في الحقيقة- نوع مميَّز من التفسير.

ونحن من جانبنا؛ ليس لنا أن نعدّ قراءة المعصوم عليه السلام فرعاً ونعتبرها تفسيراً.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٧، ص٤٧.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾[1]. فإذا قرأنا عبارة: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾، بلفظ: أمَّرْنا مترفيها.. استطعنا فهم الآية على الوجه الذي قال به أهل البيت عليهم السلام في أحد أوضح وجوه التفسير، وهو أن المترفين سوف يتسلَّطون على الناس بحيث يتوجَّه الأمر مباشرة إليهم لأنهم الأولى بهذه المسؤولية. علماً أننا مأمورون أن نقرأ الكلمة بهيئة ﴿أَمَرۡنَا﴾ وهي القراءة المتداولة على ألسن الناس، ولكن هذا لا يعني أن نتجاهل الروايات ذات الصلة بقراءة أهل البيت عليهم السلام، بل علينا أن نعي أن الروايات بهذا الشأن وردت لفهم معنى الآية.

ومثال آخر أيضاً، قوله عز وجل: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾[2]، إذ قُرئت جملة: ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ بهيئة: (خير أئمّة). ومعلوم أنه لا معنى لأمة بلا إمام، وأن الأمة بمعنى الانقياد لإمام. إذن؛ فأساس أفضل أمة، انقيادها لأفضل إمام.

إنني لا أدّعي خطأ القراءات الواردة في الروايات، بل أقول: إننا مأمورون بالقراءة المشهورة، وعلينا أن نستفيد من القراءات الأخرى لفهم معنى الآية.

وكذلك الأمر بالنسبة للآية مورد البحث: حينما يستيقظ المُكذِّبون من نومة الموت؛ يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾.

لماذا يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾؟

(١) سورة الإسراء، آية ١٦.

(٢) سورة آل عمران، آية ١١٠.

يبدو لأنهم سيستيقظون فجأة، إذ سيشعرون كم هو سيِّئ أن يستيقظوا، ولكنهم لن يقولوا: لماذا استيقظنا، وإنما يقولون: مَنْ أيقظنا؟ وفي عالم الدنيا كذلك يقول من يستيقظ في غير الوقت المناسب أو المطلوب: مَنْ أيقظني، بدلاً من: لماذا أيقظني؟

من هنا؛ فإنّ عبارة ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ عبارة واضحة للإيحاء باستياء الإنسان من حالة الإيقاظ من النوم، بل إن ابن آدم في مقام الاعتراض يُوجِّه حِدَّة كلامه إلى الطرف الفاعل. فهو حينما يرى زجاجة نافذته قد كُسِرت، يقول: مَنْ كسرها؟ ليس لمجرد رغبته في معرفته الفاعل فحسب، وإنما لِيُعبِّر عن استيائه تجاه هذا الفعل.

والمكذِّبون بيوم القيامة كذلك يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؟ ومعلوم أنّ الله عز وجل هو الذي بعثهم من مرقدهم، وهذا لا يحتاج إلى استفهام، وإنما لأنهم ينزعجون ويستاؤون لإيقاظهم من نومتهم في القبر، لأنهم إذ ذاك سيواجهون الحقيقة بعينها، وهي أن ثَمَّ عالماً آخر، غير عالم الدنيا وغير عالم الموت والقبر، وهو عالم البعث إلى يوم القيامة.

وهذه هي ذاتها القراءة الواردة عن الإمام المعصوم عليه السلام، وهي قراءة تُفسِّر لنا المراد من اللفظ، ونحن من جانبنا وبالنظر لقراءة الإمام نفهم العنوان الذي رفعناه.

وهذا المعنى من جملة المعاني التي ذكرناها سلفاً حيث قلنا: إن عبارة ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ أنسب لدى بيان عظمة الله وقدرته.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، مَنْ هو قائل هذه العبارة؛ الموتى الذين بُعثوا من مراقدهم، أم الله، أم الملائكة، أم المؤمنون؟

أيًّا كان القائل، فإنه قول الحق، وحيث يقال الحق فليس من

الضروري معرفة القائل.

وقد قلت سلفاً: إنه في الموارد التي لم يُذكر فيها الفاعل، تكمن الإشارة إلى أن الأهم فيها هو استيعاب فكرة أن ثَمَّ قولاً يُراد أن يُدلى به فحسب، فهو قول صحيح -كما هو المتوقع- عن أي جهة قد صدر.

لعل القائل لعبارة ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ضمن سياق الآية، هم منكرو البعث.

حينما يستيقظون من الموت فلن يعودوا يومئذٍ مُنكِرين، فهم يرون مراحل يوم الحساب بأُمِّ أعينهم، فلا يبقى لهم بها أدنى شك، بل إن شكوكهم السالفة ستُبدَّلُ يقيناً، بل سيكون عين اليقين. وهكذا تراهم يعترفون، كما الملائكة والمؤمنون، وسيقول جميعهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

لن يقولوا: ذلك ما وعد الرحمن، بل سيقولون: ﴿هَٰذَا﴾، حيث الحقيقة التي طالما كذَّبوا بها لا محالة واقعة، ولا معنى لعامل الزمن إذ ذاك، كقوله عزَّ اسمه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾(١).

أي: إنَّ الحقيقة واقعة، ولا معنى للإشارة للزمن.

وثَمَّ سؤال: لماذا جاءت هنا كلمة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟

الجواب: إن عبارة ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قد وردت لنلتفت جميعاً إلى أن الله تبارك وتعالى رحمن حقًّا، وإنما الرحمة مزيجة بالحكمة؛ الحكمة التي انبثقت منها الخليقة التي لا يُمكن أن تكون للعبث واللعب.

ثم إنه عادةً كلَّما جرى الحديث عن العذاب في الذكر الحكيم

(١) سورة الواقعة، آية ١.

ذُكِرَت الرحمة أيضاً، لكي يعيش ابن آدم حالة بين الخوف والرجاء، فلا يتجرَّأ على ربِّه المتعال ولا ييأس منه. ونحن في مقام الوعظ لا يصلح أن نُصرِّح بأن الآخرة لا تعني إلَّا السقوط مباشرة في جهنم، بل هناك بُعْدٌ آخر لها يتمثَّل في الجنة حيث الرحمة الإلهية الواسعة. ولقد قسم الله تعالى رحمته إلى مئة جُزء، جعل تسعاً وتسعين جُزءاً منها في الآخرة، بينما عمّ دار الدنيا برمتها بجزءٍ واحد منها فقط.

ولهذا؛ ينبغي أن يكون التصوُّر لدينا عن الآخرة متضمناً أفق الرحمة بأوسع وأجلى مجالاتها، إذ سيُخلَّد المؤمنون في النعيم والرَّوْح والرَّيْحان إلى أبد الآبدين، بينما المجرمون المعاندون فقط سيخلدون في النار، ويتطهَّر البعض من غيرهم في النار دون أن يخلدوا فيها، لكي يصلحوا ويكونوا جديرين بالرحمة الإلهية اللا متناهية.

﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

لماذا نقل الله سبحانه وتعالى الحديث إلى المرسَلين مرةً واحدة؟

لعل السِّرَّ في ذلك لمنع تضييع حق المرسلين، هؤلاء الذين عانوا الأذى والألم كما لم يُعانه أحد غيرهم، حتى أن اليهود قتلوا مراراً سبعين نبيًّا بين الطلوعين، ثم راحوا يُمارسون تجارتهم وكأنهم لم يفعلوا شيئاً.. ولكن متى يُعلم صدقُ المرسَلين علماً تامًّا؟

في ذلك اليوم؛ يوم القيامة، يُعلم باليقين ويَتَّضِح صدقُهم بجلاء.

ومن خلال الآيات السابقة لنا أن نفهم سبب إيراد قوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. فهذه الآية إشارة وإرجاع إلى الآية (٤٨) من السورة ذاتها، والقائلة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. والله تعالى هنا يشهد بصدق المرسلين.

فالمُكذِّبون كانوا يستهزئون بالأنبياء والرسل ويُنكرون عليهم إرشاد الناس إلى حقيقة التوحيد والمعاد، ولكن الله تعالى وعدهم بالصيحة الأولى والثانية، ليقول الكافرون إذ ذاك: حقًّا لقد صَدَقَ المرسَلون.

محاكم عديدة في الطريق

في مسيرة البشر المديدة محاكم شتّى، يُحاكَم فيها من قِبَلِ نفسه أو غيره ليعترف بجريمته، وآخر محكمة هي تلك التي تسبق الحشر في جهنم. فبعد أن يُحاكَم في المحاكم السابقة ويُدان، يُؤتى بالإنسان إلى حافَّة جهنم، فتسأله الملائكة بالقول: ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾[1]؟ فلا يجد مناصاً من أن يقرّ ويقول: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ ﴾[2]، إنه عين الحق.

وهذه ستكون آخر محكمة عادلة يُوضع فيها ابن آدم الكافر المُكذِّب، فيصدر الحكم بعدها، ويكون حكماً نزيهاً عن أية شائبة من الظلم والإجحاف؛ إذ يقول تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3].

ولعلَّ أحد مفاهيم ﴿ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أن الإنسان العاصي المُتمرِّد على أوامر الله تعالى وتعاليمه، والشاك بحقائق القيامة، ينبغي أن (يُصْهَر) في معترك الحوادث المختلفة ليخرج من حالة الشك، حيث كان يقول: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾؟ ليقول في النهاية: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

(١) سورة الأحقاف، آية ٣٤.
(٢) سورة الأحقاف، آية ٣٤.
(٣) سورة فصلت، آية ٤٦.

بصائر وأحكام

نجـد في كتاب ربِّنا عادةً لَمّا يُذكر العذاب يُشـار ضمناً أو تُذكر صراحـةً رحمـة الله، لكي يعيش ابـن آدم معادلة الخـوف والرجاء؛ فلا يتجـرَّأ على الله ولا ييأس منه. وهكذا ينبغي أن تكون عظة العلماء، فلا أملَ مُفرِط، ولا تفريطَ في الخوف.



إن كانت إلا صيحة واحدة

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ يُصَاحُ بِهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً، فَلَا يَبْقَى مَيِّتٌ إِلَّا نُشِرَ، وَلَا حَيٌّ إِلَّا مَاتَ، إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ. ثُمَّ يُصَاحُ بِهِمْ صَيْحَةً أُخْرَى فَيُنْشَرُ مَنْ مَاتَ وَ يَصُفُّونَ جَمِيعاً، وَتَنْشَقُّ السَّمَاءُ وَتَهُدُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ وَتَزْفِرُ النِّيرَانُ وَتَرْمِي النَّارَ بِمِثْلِ الْجِبَالِ شَرَراً، فَلَا يَبْقَى ذُو رُوحٍ إِلَّا انْخَلَعَ قَلْبُهُ وَذَكَرَ ذَنْبَهُ وَشُغِلَ بِنَفْسِهِ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ»[1].

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، ج١، ص١٥٨.

تفصيل القول

البعث وما يتعلَّق به من الحقائق يبقى من القضايا المجهولة لدينا مع كونها مؤكَّدة. فالجنُّ حقيقة، ولكننا نجهل كيفيتهم؛ والملائكة حقيقة، ولكننا نجهل طبيعتهم؛ والموت نفسه مخلوق إلهي، ولا ندري كيف هو... كذلك الحياة والموت ثم الحياة التي تليه، حقائق مجهولة بالنسبة لنا، وإنما نعرفها من خلال بيان الرَّبِّ لنا، فنقول: ما جاء في الآيات عن القيامة أنّ فيها نفختان؛ ففي النفخة الأولى يصعق كل مخلوق، كما قال ربُّنا سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[1].

أي: إن الجميع يموتون، ولعله يشمل مَنْ هم في عالم البرزخ، وكذلك شأن الملائكة، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

قال بعض: بهذا الاستثناء يخرج بعض الملائكة، من جملتهم إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ لا بد أن يبقى حيًّا لينفخ في الصور، ثم يأتيه الأمر من الله الجبار: مُتْ يا ملك الموت، فيموت[2]، فلا يبقى أحد، ليبقى وجه الله الذي قال تعالى عنه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[3].

وأشير إلى هذه الحقيقة في مقطع من دعاءٍ مروي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «**وَبِوَجْهِكَ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ كُلِّ شَيْء**»[4].

(١) سورة الزمر، آية ٦٨.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٣، ص٢٥٦.
(٣) سورة الرحمن، آية ٢٦-٢٧.
(٤) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص٨٤٤.

وحيث يقع ذلـك تنقضي مدةٌ، الله أعلم بها، لتبدأ النفخة الثانية وهـي نفخة البعث. أي: إنّ النفخة الأولى موحشـة مميتـة، بينما النفخة الثانية تبعث على الحياة.

وهذه القضية نعجز عـن فهمها، فكيف يكون الصوت الواحد مميتاً ومحيياً للجميع؟

أين ساحة القيامة؟

أين يحضر الناس ليُعرضوا على الله ويُحاسبوا في يوم القيامة؟

قـال بعـض المتكلمين: إن للقيامة أربعة وخمسـين اسـماً وصفةً، كالقارعة، والراجفة، واليوم الآخر، ويوم الدين، و.. و..

وهـذه الأسـماء والصفـات الخاصـة بالقيامـة، مثـل الانفطـار والانفجار والانكشـاف والانخسـاف والزلزلة وتبديـل الأرض غير الأرض وطوي السـماوات.. وبدراسـة هذه الأسماء والصفات نعرف أن النظام الفلكي القائم يتلاشـى، وتنهدم المنظومات، وتخرج النجوم عـن مسـاراتها، فلا تبقى أرض ولا سـماء.. ترى أين سـتكون سـاحة المحشر؟ وأين سيقف الناس؟

يتَّضـح من هذه الإشـارات الواردة في القـرآن وما يعضدها من الروايات، أن النظام الكوني الفعلي والموجود سـيتعطَّل وينعدم، ليحلَّ محلَّه نظامٌ جديد.

كما يبدو من بعض النصوص أنه بعد أن تقوم قيامتنا ويستقر كلٌّ في مقامه؛ سـوف يخلق ربُّنا خلقاً جديداً، فيخلق آدم وحواء جديدين لينبث نسلهما، ولكن كم يستمر ذلك؟ الله أعلم، ثم إن قيامتهم تبدأ، وهكذا.

هـذا مـا نقرؤه فيـما روي عن جابـر بن يزيد، قـال: «سَـأَلْتُ أَبَا جَعْفَـرٍ عليه السلام عَـنْ قَوْلِه عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1].

فَقَـالَ: يَا جَابِرُ، تَأْوِيلُ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَـزَّ وَجَلَّ إِذَا أَفْنَى هَذَا الخَلْقَ وَهَذَا الْعَالَمَ وَسَكَنَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، جَدَّدَ اللهُ عَالمَاً غَيْرَ هَـذَا الْعَالَمِ، وَجَـدَّدَ عَالمَاً مِنْ غَيْرِ فُحُولَةٍ وَلَا إِنَـاثٍ يَعْبُدُونَهُ وَيُوَحِّدُونَهُ، وَيَخْلُـقُ لَهُـمْ أَرْضاً غَـيْرَ هَذِهِ الْأَرْضِ تَحْمِلُهُمْ، وَسَـمَاءً غَيْرَ هَذِهِ السَّـمَاءِ تُظِلُّهُـمْ. لَعَلَّكَ تَرَى أَنَّ اللهَ إِنَّمَا خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ الْوَاحِدَ، أَوْ تَرَى أَنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُـقْ بَـشَراً غَيْرَكُمْ؟ بَلَى وَاللهِ لَقَدْ خَلَقَ اللهُ أَلْـفَ أَلْفِ عَالَمٍ، وَأَلْفَ أَلْفِ آدَمٍ، وَأَنْتَ فِي آخِرِ تِلْكَ الْعَوَالِمِ وَ أُولَئِكَ الْآدَمِيِّينَ»[2].

بالنظـر إلى صفة الأزلية لربِّ العالمين سـبحانه، وأنَّ عطاءَه غير مجذوذ، يمكن أن نقول: إن بشراً آخرين كانوا قد سبقونا في العيش على هذه الأرض ثم قامت قيامتهم.

وهكـذا نعتبر العـالَم لا متناهياً في حسـاباتنا بالرغم مِـنْ أنّ كل مخلوق مجذوذ، ومُتناهٍ. أما العوالم المحيطة بنا الآن فهي الأخرى مترامية الأطـراف إلى درجـة تبـدو أنها عبر متناهيـة، ولو أننا كبشر قُـدِّر لنا أن نصنـع أجرامـاً بالغة السرعة وأطلقناهـا في كل الاتِّجاهات، فهل تصل في يوم إلى نهاية العالم؟.

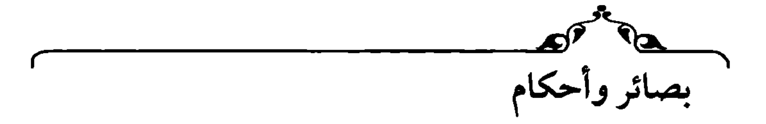
يـرى العلـماء أن العالم خُلِق بحجـم صغير، ولكنه لم يبـق ثابتاً، بـل جرى الانفجـار الكبير الذي لا يـزال أثره واضحـاً في سرعة تمدُّد الأجرام السـماوية واتِّسـاعها. قال الله سـبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا

(١) سورة ق، آية ١٥.

(٢) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص٢٧٧.

﴿بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1]. وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: «إِنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ عَالَمٍ، كُلُّ عَالَمٍ مِنْهُمْ أَكْبَرُ مِنْ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ وَسَبْعِ أَرَضِينَ، مَا يَرَى عَالَمٌ مِنْهُمْ أَنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ عَالَماً غَيْرَهُمْ، وَأَنَا الْحُجَّةُ عَلَيْهِمِ»[2].

وعليه؛ فإن هذه العوالم الكثيرة في حالة اتّساع وازدياد، وحينما تقوم القيامة الخاصة بنا فإنّها ستقوم في مكان وضمن ظروف أخرى.



بصائر وأحكام

إن حقيقة البعث وما يتعلّق به من الحقائق تبقى مجهولة لدينا بما يجعلنا نفتقر إلى المزيد من العلم حتى نعرف تفاصيلها، مع كونها مؤكّدة من الناحية العقلية والشرعية.

(١) سورة الذاريات، آية ٤٧.

(٢) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٦٣٩.



فاليوم لا تظلم نفس شيئاً

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

***

من الحديث

قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن يوم القيامة: «وَذَلِكَ يَوْمٌ لَا تُقَالُ فِيهِ عَثْرَةٌ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ أَحَدٍ فِدْيَةٌ، وَلَا تُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ مَعْذِرَةٌ، وَلَا لِأَحَدٍ فِيهِ مُسْتَقْبَلُ تَوْبَةٍ؛ لَيْسَ إِلَّا الْجَزَاءُ بِالْحَسَنَاتِ وَالْجَزَاءُ بِالسَّيِّئَاتِ. فَمَنْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَمِلَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَجَدَهُ، وَمَنْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَمِلَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ شَرٍّ وَجَدَهُ»[1].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٧٣.

تفصيل القول

لأنّ الغاية تبيين عدالة الله عز وجل، فإن هذه الآية الشريفة توضّح أن (العمل ذاته) يكون الجزاء في ذلك اليوم. وقد ورد في الكتاب المجيد تارةً: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[1].

هنا دخلت الباء على (ما) الموصولة، لتعني: بواسطته، أو: تبعاً للعمل الذي قاموا به سيُجزون. ولكن قد يرد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]. أي: العمل ذاته سيكون جزاءَهم، وهذا أقرب للعدالة الإلهية.

تجسّد أعمال الجميع و جميع الأعمال

إذا كان ما عملوا خيراً، سيتجسَّد لهم بصورة طيبة وأثر محبوب.

فإن كان العمل صلاة مقبولة، تجلَّت لهم بصورة شاب طيب الرائحة يأخذ بيد الإنسان في ساحة المحشر ليُنجيه من الظلمات والهلع الحاكم على تلك الساحة.

وإن كان صوماً، فسيمنعه عن أن تلذعه النيران التي تلفح إذ ذاك وجوه الأشرار.

وكل عمل خير سيتجلَّى بهيئة مناسبة نافعة لصاحبه.

---

(١) سورة النجم، آية ٣١.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٤٧.

أما إذا كان العمل شرًّا، والعياذ بالله تعالى، فقد رُوي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قوله: «**الظُّلْمُ فِي الدُّنْيَا هُوَ الظُّلُمَاتُ فِي الْآخِرَة**»(١).

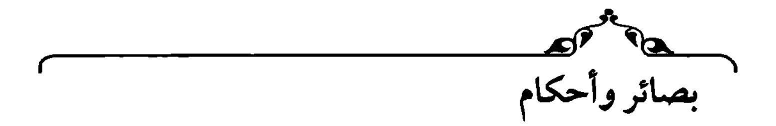
فلو أن شخصاً غَصَبَ ولو شبراً واحداً من أرضِ شخصٍ آخر، ففي يوم القيامة سيتعلَّق هذا الشبر الواحد في رقبته إلى سبع طبقات منه، فما حاله إن طُولب بالإجابة عن جميع ما ارتكب من موبقات؟

﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الأفاعي والعقارب والنيران والظلمات والروائح السيئة... كلها الآن موجودة. فإذا كذب المرء أو اغتاب، تحوَّل فعله إلى رائحة نتنة، ولكننا لا نشمُّها، ممَّا يتطلَّب منا أن نعمل ما إذا تجلَّت الأعمال وتجسَّدت بشكل تام ذات يوم أن تغيب و تُمحى تلكم الروائح النتنة... وإنجاز ذلك يتطلَّب جهداً كبيراً، ولنا أن نُحقِّق ذلك بالدعاء الخالص. والأهم في ذلك أن نعمل ما يستوجب الرحمة الإلهية التي تُبدِّل السيئات حسنات، وهذا الأمر على أهميته أمر ممكن التحقيق، كما يظهر من الآيات الشريفة والروايات الكريمة: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢).

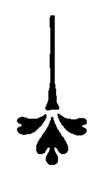
فالتوبة إلى الله توبة نصوحاً، ثم الإيمان بولاية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، والجهاد ضمن منهجهم في سبيل الله، هو الوسيلة التي يُبدِّل الله سبحانه بها السيئة حسنة؛ هو وحده دون سواه من يحوّل الأفعي والعقرب إلى حور عين، والظلمات إلى نور... وهذا أمر جدٌّ عظيم حقًّا حقًّا.

(١) ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، ص٢٧٢.
(٢) سورة الفرقان، آية ٧٠.



بصائر وأحكام

بما أنه في يوم القيامة سيُجازي الله الناس مرةً بما كانوا يعملون، ومرةً بأعمالهم ذاتها، فإن علينا مراقبة أنفسنا بجد والتمسك بأهداب التقوى والتوسُّل إلى الله سبحانه بولايته وولاية رسوله وأهل البيت لعل الله يُبدِّل سيئاتنا حسنات بفضله وجوده وكرمه.



في شغل فاكهون

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾.

* * *

تفصيل القول

أصحاب الجنة هم الذين ملّكهم الله تبارك وتعالى الجنة برمَّتها، حتّى أضحوا أصحابها، فهم فيها ﴿فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾، مسرورون بالنعيم الأبدي.

قد ينشغل الفرد بعد أن يتعرَّض لأزمات فلا يوجد في قلبه فراغ للتفكير بأي شيء آخر غير مشاكله، وقد ينشغل بالنعم بحيث تستوعب النعم كلَّ قلبه. وأهل الجنة هم هكذا، مشغولون بالنعم الإلهية؛ فليست أبدانهم هي المشغولة فحسب، وإنما كذلك هي أرواحهم، حيث ملأت النعم الإلهية كل جوانبها، حتى أن الله تعالى وصفهم بقوله الكريم: ﴿فَٰكِهُونَ﴾.

فماذا يعني (الفاكه)؟

الفاكه، يقال لأريحيّ الطبع والظريف وكثير المزاح. ومن هنا يُعلم أن أهل الجنة أريحيون، ظرفاء الروح، طيبو الأنفس.. ذلك لأنهم كانوا مُتَّصفين بهذه الصفة في عالم الدنيا، مع ما كانوا يُعانون فيها من مشاكل ومصاعب، وإنما كانوا كذلك لأنهم كانوا راضين بما قسم الله تعالى لهم في الدنيا.

وقد رُوي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «**مَنْ رَضِيَ مِنَ الله بِالْيَسِيرِ مِنَ المَعَاشِ، رَضِيَ اللهُ مِنْهُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ**»[1].

صلاة بلا وضوء

نقل لي أحدهم عن المرحوم السيد آية الله العظمى المرعشي النجفي أن رجلاً عجوزاً كان يعيش في قرية، وكان متديناً طيّباً. وذات سحر أحد الأيام نهض من نومه ليستعدَّ لصلاة الصبح أو صلاة الليل، وكان عليه أن يقصد النهر القريب منه للتطهر، ولكنه فوجئ ببرد قارص وقد تجمَّد النهر، فعجز بدنه الناحل عن ذلك مهما حاول، وهنا رفع رأسه نحو السماء وقال:

إلهي؛ لقد رضينا بما أعطيتنا، أعطيتنا الخبز والجبن، فحمدناك؛ وأعطيتنا الخبز لوحده فرضينا وحمدناك، وأعطيتنا أطيب الطعام فحمدناك، ولم نَشْكُ أو نعترض... والآن أسألك أن تقبل مني هذه الصلاة بلا وضوء لِمَا أنا عليه من الحَرَج.

وبعد موته، شوهد في المنام وهو يقول: لم تُقبل مني في حياتي بكل تفاصيلها مثل تلك الصلاة.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ١٣٨.

لا عجب في ذلك؛ فهو قد صلّى تلك الصلاة بقلب كسير؛ ملؤه الأمل بالله، دون اتّكاء على عمله، رغم أن صلاته كانت مجرَّدة عن الطهارة، ولكنها كانت مفعمة بروح العبودية. ومثل هذه الصلاة، مع ما فيها من نقص، يمكن أن تكون معراجاً للمؤمن.

ويحدث تارة أن نصلي ركعات تتوافر فيها جميع شروطها وآدابها، ولكننا نقوم بذلك ونحن نعجب بها ونتوقَّع منها الكثير، وندّعي -في أنفسنا على الأقل- أنها صلاة تامَّة ولا بد أن تُقبل. لا ريب في إن مثل هذه الصلاة يمكن ألَّا تكون لها قيمة.

ينبغي أن نطلب من الله تعالى صادقين فنقول: إلهنا؛ نحن لم نعمل عملاً جديراً، فجميع أعمالنا إن لم تكن ذنباً، فهي قد لا تكون خالصة، ممَّا يجعلنا لا نعلم استحقاقها للثواب. أجل، نحن مُكلَّفون بأن نقوم بأعمالنا طبقاً لما يُمليه الشرع المُقدَّس، ولكننا في الوقت ذاته لا نستطيع وصف أعمالنا بالمقبولية. فأنا أخشى أن تُكتب صلواتي -بما قد يكون فيها من الرياء وروح التكبر- في قائمة السيئات، لا قائمة الحسنات. فهذه الصلاة قد تكون أسوأ من تركها، إذ هي تبعث على غضب الله الأكبر. ولكن الله تبارك اسمه قد أمرنا بالعمل، وها نحن نعمل، ولا نقول شيئاً آخر.

من هنا كان الرضا من أسمى صفات المؤمنين، وهذا الخُلُق الطيِّب جعلهم في بحبوحة من الرضا في الجنة حتى وصلوا إلى درجة الفكاهة.

من هو الفاكه؟

لأن أصحاب الجنة هم الراضون بما قسم الله تبارك وتعالى لهم في دار الدنيا، فإنهم في دار الآخرة -حيث الجنة- راضون أيضاً

وقلوبهم في غاية المرح والسرور.

لكن بعضاً قالوا: إن الفاكه هو الذي لديه الفاكهة، كقولك: لَابِن، تامِر، لبائع اللبن وبائع التمر.

ولكن لأن الآيات التالية وردت فيها كلمة (الفاكهة)، ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ في الجنة، فَيُحتمل أن يكون مقصود الآية من (الفاكه) هنا هو المسرور والسعيد.

ولعل (الفاكه) أيضاً هو دائم التلذُّذ بالأطعمة والأشربة. ويمكن أن يكون المُتفكّه بالحور العين والعيش الرغيد.

وهذه احتمالات تُساق مع هذه المفردة، لا سيما وأنها قد أُشير إليها في الروايات الكريمة، ويُمكن أن تكون نماذج ومصاديق لما ذكرناه آنفاً.

شغل أهل الجنة

المقصود من (شغل) ليس ما يتبادر من الشغل الدنيوي الممزوج بالكد والنصب.

لأننا نقرأ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1].

فشغل أصحاب الجنة أنهم ينظرون إلى وجه ربِّهم، فلا يُعقل أن يكون شغلهم في الجنة كشغلهم في الدنيا، إنما شغلهم في الجنة هو اللذة المادية والمعنوية، وذاك الذي يجلب المزيد من المعرفة والكمال.

و(الفاكه) بمعنى ذي الفاكهة، قد أشير إليه في الآيات التالية،

(١) سورة القيامة، آية ٢٢ - ٢٣.

وهنا وردت كلمة ﴿فَٰكِهُونَ﴾ لتوضيح المقصود بالشغل، وهو جواب لسؤال مقدر، وهو: ما هذا الشغل؟ فيقال: قد يكون هذا الشغل لزيادة المعرفة. ففي الجنة تزداد المعرفة في كل لحظة وتتسامى الروح، والشاهد على ذلك قوله جل وعلا: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[1]. فإن سلام الرَّبِّ لعبده ليس بالأمن فقط، وإنما بالقول أيضاً؛ إنه نوعٌ سامٍ من التكريم. وهذه الكرامة تبعث المزيد من اللذة التي تنشغل بها الروح.

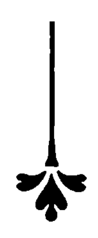
وعلى هذا يُقال لِلَطائِف الكلام: فُكاهيات، لأنها تبعث الفرح والنشاط في الروح.

وحيث يتفاوت تفسيرنا بين الاستعمالين، فقد استُعمِل لفظ الفاكهة بمعنى التنعُّم المادي مرة وبمعنى التنعُّم المعنوي مرة أخرى، ولذلك جاءا متتاليين. فهنا نقول: ﴿فَٰكِهُونَ﴾، وهناك نقول (فاكهة) للإشارة إلى أن شغل أهل الجنة لا يبعث على النصب والملل، وإنما هو شغل كله لذة معنوية ومادية.

بصائر وأحكام

إن أهل الجنة مشغولون بالنعم الإلهية؛ ليست أبدانهم المشغولة فحسب، وإنما كذلك هي أرواحهم، حيث ملأت عليهم النعم الإلهية كل شيء فيهم، حتى أن الله تعالى وصفهم بقوله الكريم: ﴿فَٰكِهُونَ﴾.

(١) سورة يس، آية ٥٨.



على الأرائك متكئون

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

* * *

من الحديث

روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ قال: «**الأَرَائِكُ السُّرُرُ عَلَيْهَا الحِجَالُ**»[1].

تفصيل القول

لكلمة ﴿أَزْوَاجُهُمْ﴾ الواردة في هذه الآية الكريمة ثلاثة تفاسير:

١-الحور العين.

٢-النُّظراء والرِّفاق وأهل أُنسهم.

٣-أزواجهم في الدنيا.

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٢١٦.

والتفسير الثالث أكثرها قرباً للقلب؛ حيث إن الله تبارك وتعالى يلحق بهم أزواجهم في الدنيا. وهذا التفسير أكثر تناسباً للألفة.

وقد قيل: إن المؤمن يأنس بزوجته التي كانت معه في الدنيا أكثر من أُنسه بالحور العين.

وفي قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾[1]. احتمل المُفسِّرون أن المقصود بالفُرُش الزوجات، وهُنَّ النساء المؤمنات في الدنيا، حيث يلحقن في الجنة بأزواجهن المؤمنين في الدنيا.

وهناك الوفاق بين الزوجين والمؤانسة بينهما في أفضل المستويات، لأن الله سبحانه يقول في سورة الأعراف: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[2]، إذ يصقل الله تبارك و تعالى قلوبهم ويُفرغ أرواحهم من كل غش. وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله (وهو يصف أهل الجنة): «**وَالْمُؤْمِنُ سَاعَةً مَعَ الْحَوْرَاءِ، وَسَاعَةً مَعَ الْآدَمِيَّةِ، وَسَاعَةً يَخْلُو بِنَفْسِهِ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئاً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**»[3].

وجاء في آية كريمة أخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[4].

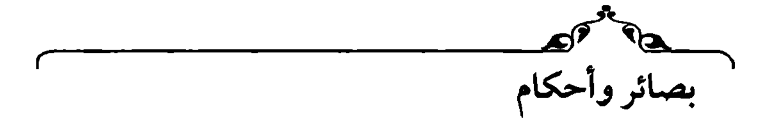
فَيُعلم من هذه الآية المباركة أن إحدى النعم الإلهية أن يُلحق الله تعالى ذرية المرء به في الجنة.

وأَسْتَلْهِمُ بدوري من هذه الآية أنّ من الممكن أن تكون درجة

(١) سورة الواقعة، آية ٣٤-٣٦.
(٢) سورة الأعراف، آية ٤٣.
(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٩٩.
(٤) سورة الطور، آية ٢١.

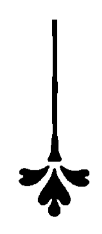
الأولاد أو (الزوجة) أدنى من درجة الشخص ذاته، ولكن بشفاعته، وإرضاءً لرغبته، يرفعهم الله إلى درجته فيُلحقهم به، دون أن تتدنَّى درجته بهذا العمل.

وهكذا نعرف أن أشكال النعم متوافرة في الجنة: ما يرتبط بلذائذ الجسد، وما يتَّصل بمؤانسة القلب، وما يسمو إلى تطلُّعات الروح والعقل.



بصائر وأحكام

من نِعَم الله تعالى على الإنسان المؤمن، أن يُلحق به أزواجه في الجنة. وهكذا تكتمل أشكال النعم في الآخرة: ما يتَّصل بلذائذ البدن، وما يرتبط بحاجات القلب والعواطف، وما يسمو إلى تطلُّعات الروح والعقل.. وعلينا أن نكدح بكل أبعاد وجودنا إلى الجنة.



ولهم في الجنة ما يَدَّعون

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

***

من الحديث

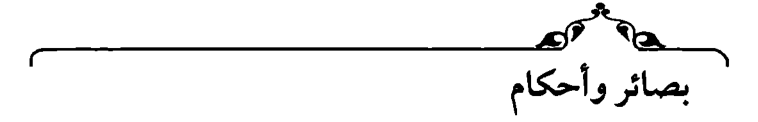
قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**خَمْسٌ مِنْ فَاكِهَةِ الجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا: الرُّمَّانُ المَلَاسِيُّ، وَالتُّفَّاحُ الشَّعْشَعَانِيُّ، وَالسَّفَرْجَلُ، وَالْعِنَبُ، وَالرُّطَبُ المُشَانُ**»[1].

تفصيل القول

إذا تجاوز البشر حالة الجوع والعطش فإنه يميل إلى التَّفكّه، والجنة حافلة بألوان الفاكهة. ولعله إذا امتلأ منها وامتلأ بدنه قوة ونشاطاً، تمنّى نعماً أخرى كالسماع إلى أصوات ناعمة، أو إلى شراب من

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج٢، ص٥٢٧

أنواع مختلفة، أو السير في رياض غنّاء، أو ما أشبه.. وبيَّن ربُّنا سبحانه بإجمال عن كل ذلك بقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.



بصائر وأحكام

لأنّ ربَّنا سبحانه قد هيَّأ لدار ضيافته المزيد من النعم، فإنه وفَّر لهم الفاكهة، وهيَّأ لهم كل ما يدَّعون من تمنيات.



سلامٌ من ربٍّ العالمين

﴿سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ٥٨﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «**رَبِّي هُوَ السَّلَامُ، وَمِنْهُ السَّلَامُ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ السَّلَام**»[1].

وجاء في دعاء للإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ السَّلَام**»[2].

تفصيل القول

متى يحصل لأهل الجنة الاطمئنان التَّامّ بعد أن قطعوا عرصات

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٢٨١.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٣، ص٤٧٦.

المحشر ورأوا نار جهنم وعبروا الصراط، ورأوا كيف يُساق أهل النار إلى النار ويُحرقون فيها؟

إنما يبلغون مقام الاطمئنان التَّامّ حينما يُخاطبهم الله سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾.

والسلام على قسمين: قسم يطمئن المرء فيه على وضعه، وهذا أمر جيد مطلوب. ولكن الأفضل منه أن يقال له: لن يُعكَّر صفوُ عيشك أبداً ومنذ الآن، وهو القسم الثاني. ولكن ينبغي أن يُرى من هو قائل ذلك؟

يبدو أن الملائكة تأتي وتُسلِّم عليهم من قِبَل الله سبحانه، وهذا ما نطق به القرآن الحكيم في سورة الرعد: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[1] فتحصل لهم اللذة بما لا يُوصف.

ولعلَّ جملة ﴿فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ -فيما سبق من آيات- إشارة إلى حقيقة قوله سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾، فلا يمكن مضاهاة جميع نعم الجنة بنعمة السلام القادم من الرَّبِّ الرحيم.

بصائر وأحكام

بالسلام على أهل الجنة تحصل لهم اللذة بما لا يُوصف. وحريٌّ بالإنسان أن يسعى جاهداً من أجل بلوغ هذه الدرجة الرفيعة.

(١) سورة الرعد، آية ٢٣-٢٤.



وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾.

* * *

تفصيل القول

بدأ البحث في الآيات المباركات من سورة (يس) الشريفة أن الرسل ذهبوا إلى القرية، فدعوا الناس إلى ربِّهم، إلَّا أنهم رفضوا دعوتهم، فنزل العذاب عليهم فخمدوا، ولكن انطفاءهم لم يكن بمعنى النهاية، حيث قال الرَّبُّ سبحانه: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾[1].

ثم ذكَّر السياق بآيات الله في خلقه من إحياء الأرض بعد مواتها، ومن اختلاف الليل والنهار، والشمس والقمر، ونظام الفلك، ومدارات الأجرام السابحة في الفضاء.

ثم أُشير إلى بعض النعم الإلهية، التي هي بدورها من آيات الله،

(١) سورة يس، آية ٣٢.

وكيف سخّر ربُّنا تعالى الفُلك للبشر، ولو أنهم تعرَّضوا للغرق فلن يُنجيهم أحد دونه سبحانه.

ثم ذكر السياق ضرورة اتِّخاذ الإنسان التقوى منهجاً لحياته.

ثم بَيَّن السياق بعض المعاذير التي طالما يتهالك البشر في البحث عنها، لِيُبرِّروا تكاسلهم ثم لا تزيدهم إلَّا ضلالاً. وانتهى البحث أن أوردت الآيات قضية القيامة والجنة والنار وهي قضايا مصيرية وأساسية لردع البشر عن الانغماس في مزيد من الضلال والحيرة.

وانتهى بنا المطاف إلى الحديث عن الجنة وبيان أن هناك نوعين من النعمة: إحداهما تتمثَّل في سد الحاجات. فالإنسان يُصيبه النعاس فيجد فرصة للنوم، أو يجوع فيتمكَّن من الشبع، أو يعطش فيروى.. وثانية النعم: لذة الازدياد.

ويمكن ألَّا يكون ثَمَّ معنى للنوع الأول من اللذة في الآخرة؛ أي أن الإنسان لن يتعرَّض لجوع أو عطش. ولعله إلى ذلك تشير الآية المباركة: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[1].

فالشبع هناك في الجنة ليس بمعنى أن يكون قد جاع، إذ الجنة بلا ألم ولا نقص، وإنما كل الذي فيها من النوع الثاني؛ أي لذة الازدياد، وهذه النعمة بدورها ذات ثلاثة أشكال:

١- الزيادة في البدن؛ (لذائذ البدن)، مثل الطعام والشراب، ومنها اللذات الجنسية مع الحور العين ومع الزوجات.

٢- اللذّة العاطفية؛ كاجتماعه بإخوانه وأحبائه، وأُنسه معهم

(١) سورة طه، آية ١١٧- ١١٩.

وبهم: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[1]

٣- اللـذّة الأرقى من كل ذلك هـي العائدة إلى الروح والعقل، وهي الموصلة بشكل مباشر بين الإنسان ونور الله سبحانه وتعالى، وقد تمَّت الإشارة إليه حين البحث في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾[2].

ونقرأ في آية أخرى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾[3].

فعنـد مـا يكون السـاقي هـو الله تعالى، تكمـن القيمـة الحقيقية للـشراب الطهور بالرغم من أهميته في كون الرَّبِّ المتعال هو السـاقي، وهـذا هـو الأهـم. وكذلـك الأهم مـن نعمـة السـلام أن يأتيهم بلاغ السلام من الرَّبِّ الرحيم.

هـذه كانـت صور عن نعيـم الجنة، وفيـما يلي سـتُعرض أحوال المجرمين في آيات سورة (يس) المباركة.

فصل المجرمين

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

يخاطـب الله عـز وجـل المجرمـين فيأمرهـم بالانفصـال، وهذا الانفصال قد فُسِّر على نمطين:

١- الانفصال عن بعضهم.

قـال البعض: إن لـكل جهنمي مكاناً خاصًّـا في النار، ويبقى فيه،

---

(١) سورة الحجر، آية ٤٧.

(٢) سورة يس، آية ٥٥.

(٣) سورة الإنسان، آية ٢١.

وتُقطع علاقته بالعالم الخارجي.. وهذا أحد تفاسير فصل الكافرين عن بعضهم. أما المؤمنون فعلى العكس من ذلك، ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾[1]. على الضِّد من حالة أهل النار، فهم أعداء وقد دخلوا النار فيفصل فيما بينهم، وإنما يُقرن كل منهم إلى شيطان يُضيف أذىً على أذاه.

٢- لعل المقصود (أيضاً) إبعادهم عن المؤمنين، وهذا ما ذُكِر في بعض النصوص، حيث جاء عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ الخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَقُوا قِيَاماً عَلَى أَقْدَامِهِمْ حَتَّى يُلْجِمَهُمُ الْعَرَقُ، فَيُنَادُوا: يَا رَبِّ، حَاسِبْنَا وَلَوْ إِلَى النَّارِ. قَالَ: فَيَبْعَثُ اللهُ رِيَاحاً فَيَضْرِبُ بَيْنَهُمْ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، فَيَمِيزُ بَيْنَهُمْ، فَصَارَ الْمُجْرِمُونَ فِي النَّارِ، وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ إِيمَانٌ صَارَ إِلَى الجَنَّةِ**»[2].

وفي الآيات التالية يكشف الله تعالى أن عذاب الآخرة متنوع، ولكن قبل بيان أنواع العذاب، يُجيب الله عز وجل عن سؤال مُتوقَّع: لماذا يُعذَّب المجرمون؟ أَوَلَيس ربُّنا هو الرحمن الرحيم الودود الحنّان المنّان؟ أَوَلَيس هؤلاء عبيده، فَلِمَ يُعذِّبهم؟

لذلك وللأجابة عن هذا التساؤل بَيَّن السياق أنّ الله سبحانه قد أتمَّ عليهم الحجة من قبل. وإتمام الحجة هذا تمَّ بيانه بين الآيات (٥٩-٦٣) من هذه السورة المباركة، لكيلا يبقى سؤال في البين.

باكورة العذاب

إن باكورة عذاب المجرمين تتمثَّل في فصلهم عن المؤمنين، وهو أمر غير هيّن. فهؤلاء كانوا متناسبين مع بعضهم، مختلطين والداً

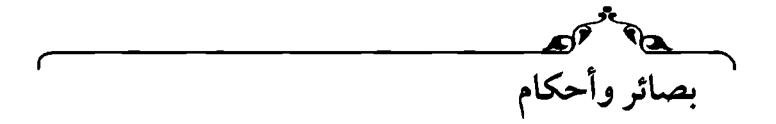
(١) سورة الحجر، آية ٤٧.
(٢) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٢١٦.

وولـده، أو أخاً وأخـاه، أو زميلاً وزميله، أو جـاراً وجاره... فالجميع كانوا يعيشـون معـاً، ولم يكونـوا مُنفصلين، والآن ينبغـي أن يُفصلوا؛ الكفار إلى جانب، والمؤمنون إلى جانب آخر.

إنه عذاب نفسي عظيم، أن يُفصل المرء عن الأولياء والصالحين. وربَّما كان في الدنيا قد سـمع عنهم الكثير أو رغب في الانضمام إليهم، ولكنـه يُفاجَأ بإبعاده عنهم وحشره مع مَنْ هم أمثاله. إنّ الناس يُحبّون الصالحـين عـادة وإن لم يكونـوا مثلهـم، وكثـير منهم يتمنَّـى لو يكون بجنبهم، ويحظى بالنظر إليهم.

ثـم إنه لا يسـتبعد أن يتم الانفصـال تكوينيًّا، فـيرى الكافرون أنفسـهم ينفصلون عن المؤمنـين تلقائيًّا، لأنه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾(١).

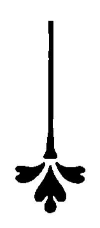
وفي سورة (الحديد) وصف للمنافقين، حيث يقولون للمؤمنين في يـوم القيامـة: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾(٢). فيشـعر المنافق الذي مُيِّز عن غيره بالندم، ولات حين مندم!



بصائر وأحكام

من أسـوء أنـواع العذاب في يـوم القيامـة، أن يُفصـل المرء عن الأولياء والصالحين، وأن يُحشر مع من هم أمثاله.

(١) سورة الرحمن، آية ٤١.
(٢) سورة الحديد، آية ١٣.



إنه لكم عدو مبين

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

***

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الله عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «مَنْ أَطَاعَ رَجُلًا فِي مَعْصِيَةٍ فَقَدْ عَبَدَهُ»[2].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٦، ص٤٣٤.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٣٩٨.

تفصيل القول

إن الله قد عقد مع الناس عهداً، وأتم عليهم الحجة، ووفَّر لهم جميع وسائل الهداية، دون أن يجبرهم ويُكرههم، وكان هو القادر على ذلك. لقد بيَّن لهم حقيقة الشيطان حتى عرفوه.

ولكن ما هي حقيقة عهد الله مع الإنسان؟ هل هو الوجدان الذي أرسخه فيه والفطرة التي فطره عليها، أم هو الذي جاء به الأنبياء من الرسالات؟

يبدو أن العهد الذي تمَّ مع جميع أولاد آدم، هو عهد عالم الذر، إذ أحضر له جميع البشر، وليس هذا العهد ما يتَّصل بالوجدان والفطرة، مع أهمية ذلك، أَوَلَم يقل ربُّنا سبحانه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]؟

وليس هذا العهد، هو العقل الذي تمَّت الإشارة إليه في الآية الثانية والستين من هذه السورة المباركة: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾[2]؟ ولكن ما يُفهم من كلمة (العهد) هو الميثاق الذي يتمّ بين طرفين مختارين، فهو شيء وراء الفطرة والعقل. وهذا ما نستفيده من الآية الكريمة في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[3]، وهذا هو

(١) سورة الروم، آية ٣٠.
(٢) سورة يس، آية ٦٢.
(٣) سورة الأعراف، آية ١٧٢ - ١٧٣.

العهد الذي تَمَّ بين الإنسان وربِّه في ذلك العالم، والذي يُسمّى بعالم الذرّ.

ولكن لماذا استعمل هنا تعبير ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾؟

إن آدم أبا البشر هو أول من لم يَفِ بالعهد، فكان من أمره ما كان، وكذلك بعض أبنائه الذين يُخاطبهم الله تعالى.

ونقرأ في آية أخرى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[1]، وهنا قال عز اسمه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وهكذا نعرف مدى الربط بين النَّصَّين.

وهكذا أخذ الله تعالى على أولاد آدم عهداً؛ مفاده ألَّا يعبدوا الشيطان، فما المقصود من العبادة في هذه الآية؟

يزعم البعض أن معنى العبادة انحناء رأس الإنسان في محضر غيره، فيركع له ويسجد. بلى؛ هذا أحد مصاديق العبادة.

ولكن بالنظر إلى المعنى اللغوي للعبادة (مثل تعبيد الطريق للعابر؛ أي إعداده ليكون سلساً تحت قدميه) نعرف أنّ المعنى الحقيقي للعبادة هو التذلُّل والخشوع والطاعة؛ أي الاتِّباع والانقياد والاستسلام.

وقد أُشير في الروايات إلى معنى العبادة هذا كثيراً، حيث بَيَّنَتْ -فيما يبدو- بعض المصاديق وأكدت على ذلك بكلمة (من العبادة) ولم تقل: إن كل العبادة هي الطاعة فحسب.

(١) سورة طه، آية ١١٥.

كما نصَّت الروايات الشريفة على أن انفعال الإنسان وتأثُّره بما يُقابله، هو نوع عبودية. روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «**مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ**»(١).

ويُؤيِّد ذلك ما نقرؤه في آية أخرى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾(٢).

حيث المقصود بالإله هو المعبود، فكيف يمكن أن يكون الهوى معبوداً؟ وهل يسجد الشخص لهواه؟ وكيف تكون عبادة الهوى؟

لا شك في أن المقصود هو اتِّباع الهوى، وليس السجود له. ويبقى السؤال: ما الشيطان الذي جاء ذكره هنا؟

الشيطان كائن خفي

يبدو من ظاهر الآيات القرآنية أن الشيطان كائن خفي، ولكنه مُعرَّف للإنسان، إذ لو لم يكن كذلك لما نهاه ربُّنا عن عبادته واتَّخذ عليه عهداً بذلك، إذ قال الله سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؟

فهذا الشيطان الذي أُمِرْنا بأَلَّا نعبده، ينبغي أن يكون معروفاً، ولكن لماذا نجد بعض الإبهام في حقيقته؟

في الحقيقة إنه واضح ومعروف، ولكننا نحن الذين نريد أَلَّا يكون كذلك لنتَّخذ من ذلك ذريعة للتواني في محاربته.

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٦، ص٤٣٤.

(٢) سورة الفرقان، آية ٤٣.

بلى؛ إن الشيطان معروف، ويستطيع كل فرد منا أن يتعرَّف إليه بسهولة، ويفهم وساوسه وإيحاءاته. ولو ادّعى شخص أنه لا يعرفه، فإنه -في الحقيقة- هو المُقصِّر في ذلك لو كان صادقاً في مُدَّعاه.

وقد عَرَّفتنا آيات قرآنية كثيرة بالشيطان، وأحصت لنا صفاته واحدة واحدة، حتى أنه لم يعد لإنسان أن يُبرِّر التخبُّط بين الحق والباطل، أو الادِّعاء بأنه قد فاته أن يُحدِّد وساوس الشيطان على وجه الدقة، وليعلم أن ما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1]، يُقْصَد به -كما ورد عن مولانا الإمام جعفر الصادق عليه السلام- أنه «يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْبَاطِلَ حَقٌّ»[2].

فإذن مهما برَّر البشر سلوكه الشائن بالجهل، فإنّ فطرته تُحاكمه وتقول له: كلَّا، أنتَ كنتَ عالماً. وتبقى هذه الفطرة هي الحُجَّة عليه أبداً، وقد قال ربُّنا سبحانه: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[3].

وفي الحقيقة؛ إن معرفة الشيطان ليس بالأمر العسير على البشر، ومن هنا يكون الله تبارك اسمه قد أتمَّ الحجة عليهم.

دور الكُتَّاب في تعريف الشيطان

وقد وردت آيات وروايات بخصوص صفات إبليس، ولكنني لم أرَ حتى الآن كتاباً وافياً يُحقِّق في الآيات والروايات التي تُعالج شأن

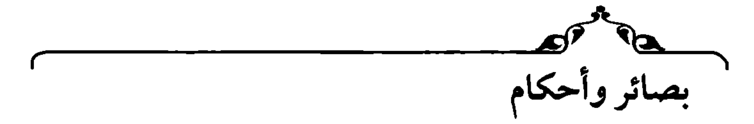
(١) سورة الأنفال، آية ٢٤.
(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٣٧ .
(٣) سورة القيامة، آية ١٤- ١٥.

الشيطان على وجه التفصيل، لنعرفه بالشكل المطلوب والصحيح وهو عدونا الأول؛ الذي طالما دفع بأبناء جلدتنا إلى الضلال والنار.. هذا مع وجود الكتاب المعروف (تلبيس إبليس)، إلَّا أن المطلوب المزيد من الدراسة في هذا الموضوع.

سؤال: إذا كان الله تعالى قد أخذ على البشر العهد في (عالم الذر) وها نحن ذا في عالم التكليف والعمل، فلا نتذكَّر منه شيئاً، فكيف يُمكن أن يُؤاخذنا في يوم القيامة بناءً على بنود ذلك العهد؟

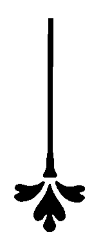
الجواب: إن هذه الآيات والروايات نفسها هي التي تُذكِّرنا بذلك العهد وتشرح تفاصيله.

وكما أن الوجدان والفطرة والعقل تحاكي بدفعها نحو الحق بنود عهد عالم الذر، كذلك فإن الأنبياء والأئمة يُثيرون في البشر تلك البنود، فهم يُذكِّروننا بالعهد ويدفعوننا إلى الالتزام ببنوده.



بصائر وأحكام

إن الشيطان واقع موجود، ويستطيع كل فرد منا أن يتعرَّف إليه بسهولة، ويفهم وساوسه وإيحاءاته، ولو ادّعى أحدهم أنه لا يفهم، فإنه -في الحقيقة- هو المُقصِّر في عدم فهم الوساوس. والرسل والكتب والوعاظ، بالإضافة إلى العقل والفطرة، كل أولئك يُذكِّروننا بذلك العهد الذي كان بين الإنسان وربِّه في تجنّب الشيطان.



هذا صراط مستقيم

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إِنَّ أَوَّلَ عِبَادَةِ اللهِ مَعْرِفَتُهُ، وَأَصْلَ مَعْرِفَتِهِ تَوْحِيدُهُ، وَنِظَامَ تَوْحِيدِهِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ»(١).

وقال عليه السلام أيضاً: «قَالَ اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ: يَا عِبَادِي، اعْبُدُونِي فِيمَا أَمَرْتُكُمْ، وَلَا تُعَلِّمُونِي مَا يُصْلِحُكُمْ، فَإِنِّي أَعْلَمُ بِهِ وَلَا أَبْخَلُ عَلَيْكُمْ بِمَصَالِحِكُمْ»(٢).

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص٦١.
(٢) الجواهر السنية، الشيخ الحر العاملي، ص٣١٩.

تفصيل القول

في داخل كل إنسان نداءان: شيطاني ورحماني. الأول يزرع الوساوس الشيطانية، والثاني مُتعلِّق ببعث الأخلاق الفاضلة والعقيدة الحقَّة في الإنسان. وإن المعرفة الحقيقية بهذين النداءين في وجود الإنسان وتحديد التفاوت بينهما يُساعد في العثور على الطريق الصحيح، ولكن أخطر أعداء الإنسان في هذه المهمَّة هو الشيطان الرجيم، الذي يجب الإسراع في الابتعاد عنه وعن وساوسه. وهذا ما يُقرِّب إلى الكمال، ذلك لأن الله تعالى قد أشار في هذا الشطر من الآيات إلى موضوعين:

قال في الموضوع الأول: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾؛ أي لا تتبعوا وساوس الشيطان ولا تعبدوه.

وقال في الموضوع الثاني: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾؛ أي أعبدوني وحدي، أنا خالقكم وربّكم.

وبوسع الإنسان أن يتَّخذ من هذين الموضوعين جناحين يُحلِّق بهما إلى الهدف الذي رسمه الله تعالى له عبر الصراط المستقيم.

﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

إذن؛ فالخطوة الأولى نحو الكمال للإنسان أن يُطهِّر قلبه من الوساوس الشيطانية.

أما القلب المريض الذي يستحوذ عليه الشيطان؛ فهو عاجز عن الاهتداء إلى الصراط المستقيم، ذلك لأن نور الله تعالى لا ينفذ إلَّا إلى القلوب الطاهرة. وقد قال الله سبحانه: ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا

يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[1].

فإذا أراد المرء أن يتعرَّف إلى حقائق القرآن المجيد، كان عليه تطهير قلبه من وساوس الشيطان كما تطهير بدنه من الأقذار بالتطهُّر. وهكذا يُمكن الاستفادة من هذه الآية حكم الطهارة بصفة عامة؛ الظاهرية منها والباطنية، لأن الطهارة الظاهرية تُمهِّد لتحصيل الطهارة المعنوية. وكنموذج لذلك؛ أن الوضوء والغسل يُنوّران قلب الإنسان وروحه. وقد روي في الخبر: «**الْوُضُوءُ عَلَى الْوُضُوءِ نُورٌ عَلَى نُورٍ**»[2].

وفي هذه الآية اسْتُعمِلت مفردة ﴿مَّكْنُونٍ﴾ بمعنى المحفوظ، ككتاب في صندوق مُغلق. ونستوحي من ذلك أن على الإنسان أن يجتهد في اكتساب النورانية القلبية، لأنه إذا صار القلب نورانيًّا؛ توالت عليه مراتب العرفان، حتى ينفذ بمعرفته إلى أبعاد ذلك الكتاب المكنون.

عبادة الشيطان؛ طاعته

هل رأيت من يعبد الشيطان جهاراً؟

إنما الغالبية العظمى من البشر يُطيعونه، فإذا أطاعوه عبدوه.

رُوي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3] قال: «**وَاللهِ مَا صَلَّوْا لَهُمْ وَلاَ**

(١) سورة الواقعة، آية ٧٨-٧٩.
(٢) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج١، ص٣٧٧.
(٣) سورة التوبة، آية ٣١.

صَامُوا، وَلَكِنْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[1].

وهذا شرك بالعبادة حسبما جاء في ختام الآية.

وعليه؛ فلو أن قائلاً قال: إن الناس لم يعبدوا الشيطان.

قلنا له: هم أشركوا بالطاعة. وقد وردت العبادة في القرآن بمعنى الشرك من خلال طاعة غير الله.

الطريق مظلم والمنحدرات كثيرة

حياتنا في الدنيا ليست سهلة كما نظن، إنها صعبة ومُعقَّدة وخطيرة... فأمام ابن آدم طريق مظلم ومنحدراته كثيرة، وفي كل لحظة يمكن أن يدفعه الشيطان إلى قعر وادٍ سحيق. فوساوس الشيطان من شأنها أن تُؤدِّي بالإنسان إلى حيث لا ينبغي أن يكون، وعقولنا لا تكفي لتجنُّب شرِّ الشيطان، ذلك لأن ملايين البشر عبر التاريخ جمعوا عقولهم، وكان من بينهم الفلاسفة والحكماء والمُحقِّقون والعلماء، واجتمعوا وبحثوا، فلم يصلوا إلى ما يُحقِّق سعادة البشر. بلى؛ إنهم نجحوا في صنع قنابل، تكفي الواحدة منها لقتل مئات الآلاف في جزء من (١٦) جزء من الثانية، وهم بقنابلهم الحديثة يستطيعون تدمير الأرض اثنتي عشرة مرة.. هذا هو نهاية الفكر البشري، البعيد عن هدى الرَّبِّ.

والفرد يُواجه ضغوطاً هائلة من وسواس قلبه، وشهوات بدنه، وحاجات أُسرته، ومُتطلِّبات مجتمعه.. كل ذلك تتراكم عليه وهو واحد. إننا نُريد أن نتحدَّى كل تلك الضغوط وأن ننجو، فماذا

---

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٤٦ .

يلزمنا أن نفعل في هذا الطريق المظلم المليء بالمخاطر والمنعطفات والمنحدرات؟! يا إلهي ماذا نفعل؟

يقول الله تعالى: إن ثَمَّ ملجأً واحداً أمامكم، وهو الوفاء بالعهد الذي عقدتُه معكم، وهذا العهد بمثابة ضياء لطريقكم لتتخلَّصوا من الظلمة والمُنحدرات، والعهد هو ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ من جانب؛ ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ من جانب آخر، ولا عليكم بما تُمليه أنفسكم وما يُمليه عليكم الشيطان.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

واستقامة هذا الصراط يعني طرد الطاغوت والجُبت عن أن يُؤثِّروا في انطلاقة ابن آدم. والتزام الصراط المستقيم يعني الانصياع لولاية الله تعالى وولاية الرسول المصطفى ﷺ، التي هي نفسها ولاية أهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام، وولاية ورثتهم الذين أنعم الله عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

أما الذي لا يُسلِّم لولاية الله ومَنْ أمر سبحانه بولايته، وأسكن الكِبْر في قلبه، فلا بد أن يُسقطه هذا الكِبْر في الأودية المظلمة والسحيقة.

وعليه؛ فإن حقيقة (العهد) هو عهد التسليم للذين أنعم الله عليهم بنعمته الكبرى، وهي (الولاية).

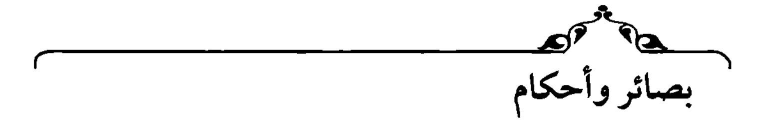
وما دَفَعَ الشيطانَ إلى التمرُّد على إرادة الله عز وجل، ثم إلى الطرد من ساحة الرحمة الإلهية، إنما كان ذلك الكِبْر على أن يُسلِّم لهذه الولاية العظمى، والتي قد تجسَّدَت في سجدةٍ واحدة للمخلوق الجديد المسمّى آدم.

والذين قلَّدوا الشيطان أمورهم، فهم في الحقيقة قد عبدوه،

والله تعالى أمر بالضد من ذلك، ولكنهم كانوا كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة شريفة له، حيث قال:

«اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلَاكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ، فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الخَطَلَ، فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ وَنَطقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ»[1].

هـذا في الوقت الـذي لم يلتفـت (عُبّاد الشـيطان) إلى (الصراط المسـتقيم) والُمتمثِّل في (ذوي الولايـة) و(أهل النعمة الكبرى) والذين كلامهم نور، وأمرهم رُشْد، ووصيتهم التقوى.



بصائر وأحكام

الخطوة الأولى إلى الكمال أن يُطهِّر الإنسـان قلبه من الوسـاوس الشـيطانية، للاهتداء إلى الصراط المسـتقيم، بينـما القلب المريض الذي اسـتحوذ عليه الشيطان، فإنه عاجز عن الاهتداء إلى الصراط المستقيم، ذلك لأن نور الله تعالى لا ينفذ إلّا إلى القلوب الطاهرة.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٧.



أفلم تكونوا تعقلون؟

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

لعل هذه الآية العظيمة تفسير لكلمة: ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ في الآية ٦٠.

هنالك المليارات من البشر الآن وعبر التاريخ قد استزلَّهم الشيطان، فَسِيقوا إلى حيث الدمار، أفلا نعقل مصائرهم؟

إنّ إضلال الشيطان لجماعات هائلة من البشر كافٍ لمن أراد أن يتذكَّر، ليعرف حقيقة الشيطان، وأن يعقل ما جرى عليهم، ليعتبر من مصير الذين اتَّبعوا الشيطان وعبدوه أين انتهى بهم المطاف.

فإذا استطعنا استثمار عقولنا واعتبرنا من التاريخ البشري، سنتعرف -لا شك- على حقيقة الشيطان وأشراكه ومصائده وسبل تضليله للناس.

إنّ التعقُّل واستثمار هذه القوة الخارقة التي وهبنا الله تبارك وتعالى يعدّ محوراً من محاور معرفة الشيطان، نظراً لأن معرفته وسيلة إلى اجتباب طاعته وعبادته، ثم اجتناب المصير الأسود الذي ينتظر أتباعه.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾

قالوا: إن كلمة (جِبِلّ) من فصيلة كلمة (جَبَل)، فما هو الجَبَل؟

الجَبَل هو: كمية كبيرة من الأحجار المتراكمة على بعضها فتكوّن مرتفعاً، والجِبِلّ هو: كمية كبيرة من البشر المتراكمين.

ولكن لماذا استعمل الله تعالى كلمة (جِبِلّ) هنا، ولم يستعمل مفردة أخرى، مثل طائفة أو فريق أو أمة أو شعب أو جماعة؟

يمكن أن يكون السبب في ذلك، أنه سبحانه و تعالى أراد الإشارة إلى أنّ هؤلاء الذين عبدوا الشيطان فأضلهم، أو أضلهم فعبدوه، عبارة عن جماعة لا قيمة لهم. فالذين أضلهم أبليس جماعة أميون، عديمو العقل، لا قيمة لهم حتى يقال لهم (شعب) أو (أمة) وأمثال ذلك. إنهم عبارة عن تراكم من الهمج الرعاع. والهمج الرعاع -في أحد المعاني- البعوض المجتمع في الصيف، وهو يأتي فجأة ويروح.

وقالت عنهم رواية أخرى إنهم غوغاء: «**الْغَوْغَاءُ؛ قَتَلَةُ الْأَنْبِيَاء**»[1]. والمعنى اللغوي للغوغاء هو جماعة الجراد الكثيف. إذن هم عبارة عن جماعة من البشر الجاهلين.

وورد في تفسير كلمة (جِبِلّ) أنه الجماعة التي يزيد عددها على عشرة آلاف، ولكنني أريد القول: إن المسألة ليست مسألة عشرة آلاف

(١) الأمالي، للشيخ الطوسي، ص ٦١٣.

أو خمسين ألفاً، وإنما هم غثاء كغثاء السيل؛ أي هم كزبد يطفح فوق السيل. وفي الروايات الشريفة استُفيد من هذا التعبير للإشارة إلى البُعد السلبي التي تُجسِّده هذه الجماعة.

سؤال: هل إن لفظ ﴿كَثِيرًا﴾ في الآية تأكيد لمفهوم ﴿جِبِلًّا﴾؟

لعلها إشارة إلى تفاهتهم وعدم الاكتراث بعددهم.

الشيطان؛ مركز السيئات

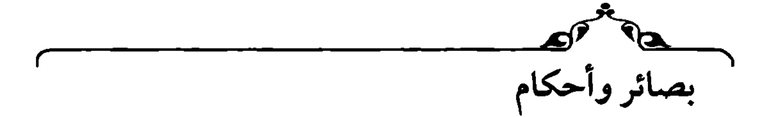
طبقاً لكلام الله تعالى، فإن الشيطان هو مركز السيئات، مثل الكِبْر والحسد والفساد. إنه رمز كل شر وبؤرة كل فساد، وها هي الآيات القرآنية تكشف بوضوح أن جذور الفساد تعود إلى الشيطان. وإن فهم هذه القضية مهم في محاربة الشيطان، ولكن الذين لا يعرفون هذا العدو المبين، قد استسلموا له ولم يُكلِّفوا أنفسهم عناء التعرُّف إليه، بل تحدِّيه ومُحاربته.

وقد أُشير في الآيات القرآنية إلى أن الشيطان مُسلَّط على الذين يُحبُّونه، وقد ورد تعبير ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾[1] بهذا الصدد. أي: الذين يؤمنون بالشيطان قائداً لهم وكرّسوا ولايته في قلوبهم، هم الذين يتسلَّط عليهم تماماً.

ومقابل هؤلاء، نجد الذين ارتضوا الله تعالى وليًّا، فإنك تراهم لا يستجيبون لإرهاصات الشيطان، بل يُقاومون ضغوطه أنّى كانت. إننا حقًّا مُلْزَمون بالحذر من وساوسه الخادعة، لاسيما تلك التي يتظاهر عبرها بحرصه على مصلحة الإنسان، ليُوجِّه له ضربته المُضِلّة في نهاية الأمر.

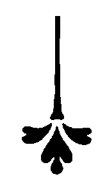
(١) سورة الحج، آية ٤.

وهكذا ينبغي علينا أن نحذر أشراك الشيطان الذي قد يفتح لنا باب خير ليغرّنا في النهاية ويُولجنا إلى أبواب الشر.



بصائر وأحكام

حينما يعرف الإنسان مصير الذين أطاعوا الشيطان في الدنيا والآخرة، وكيف أضلَّهم، وما هي وسائل تضليلهم، وإلى أين انتهى بهم المطاف، يومئذٍ يعرف الشيطان معرفة كافية. وإن معرفته هذه تساعده على اجتنابه وترك عبادته، ثم اجتناب المصير الأسود الذي ينتظر أتباعه.



هذه جهنم

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ﴾.

* * *

من الحديث

قال رسـول الله صلى الله عليه وآله: «لَوْ أَنَّ حَجَراً قُـذِفَ بِهِ فِيْ جَهَنَّم، لَهَوَى فِيْهَا سَبْعِيْنَ خَرِيْفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهَا»(١).

وقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام في دعائه في الصلاة على حملة العرش: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ إِذَا نَظَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ تَزْفِرُ عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِكَ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِك»(٢).

* * *

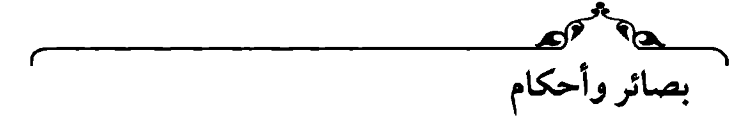
(١) عوالي اللآلي، ابن أبي الجمهور الأحسائي، ج١، ص١٢٥.
(٢) الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام، ص٤١.

تفصيل القول

من جملة تسـوّلات النفس الأمَّارة بالسـوء، ومن جملة وساوس إبليس، التشكيك بالحقائق الكبرى، وأبرزها حقيقة الجزاء. ولكن هل ينفع إنكار الحق في مواجهة أخطاره؟ أرايت من ينكر حقيقة الموت هل يعيـش أبداً، ومن يُنكر حقيقة جاذبية الأرض هل تراه يطير في السـماء كيف يشـاء؟ كذلك الذي شـكَّك نفسـه بجهنـم وما فيهـا من عذاب مقيـم، لا يُجديه إنكاره شـيئاً. وغداً حينما يواجههـا مباشرة يعلم مدى ضلالته.

إذن، الأمثـل بالإنسـان أن يـدع التشـكيك جانبـاً، ويُفكِّـر بموضوعية ويدرس كل الأدلة التي تهديه إلى واقع الجزاء، لعله يهتدي إلى الحق ويضبط سلوكه وفقه بالتوكُّل على الله والاستعانة به.

ولعـل هذه البصـيرة هي خلاصة الآية الكريمـة التي تُصوِّر لنا كيف يُواجه الكفار حقيقة جهنم التي كانوا يُنذَرون بها.



بصائر وأحكام

التشـكيك في الحـق لا يُجدي نفعاً في مواجهـة خطره، وعلينا أن نـدرس أبداً الأدلة التي تهدينا إلى الحقائـق بموضوعية لكيلا نُفاجأ بها بعد فوات الأوان.



جهنم عقبى الكافرين

﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أَرْكَانُ الْكُفْرِ أَرْبَعَةٌ: الرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالسَّخَطُ، وَالْغَضَبُ**»(١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**الْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى التَّعَمُّقِ، وَالتَّنَازُعِ، وَالزَّيْغِ، وَالشِّقَاقِ. فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ، وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ، وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ، وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ**»(٢).

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٢٨٩ .
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣١.

وعن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ وُجُوهِ الْكُفْرِ فِي كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: الْكُفْرُ فِي كِتَابِ الله عَلَى خَمْسَةِ أَوْجُهٍ؛ فَمِنْهَا كُفْرُ الْجُحُودِ، وَالْجُحُودُ عَلَى وَجْهَيْنِ، وَالْكُفْرُ بِتَرْكِ مَا أَمَرَ الله، وَكُفْرُ الْبَرَاءَةِ، وَكُفْرُ النِّعَمِ**»[1].

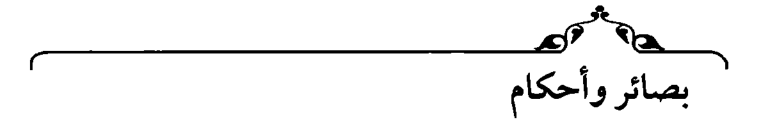
تفصيل القول

المراد بالكفر في هذه الآية؛ الكفر المُتضمِّن لجميع درجاته ومراحله، وأحد درجاته ومصاديقه التمرُّد على العهد المذكور في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[2]. وجهنم ميراث الكفر. والتعبير هنا بـ﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ لعله للدلالة على أن الكفر قد أشعل نار العذاب فور ما مارسه الجاحد، ولكن تلك النار كانت في الدنيا غير مُفعَّلة لطبيعة الدنيا التي هي دار ابتلاء، وها هي الآخرة حيث تظهر الحقائق المُغيَّبة قد أظهرت تلك النار وإذا بِمُوقِدها الجاحد يصطلي بها والعياذ بالله العظيم.

وإنّ أحد أبرز مصاديق هذا العهد العظيم هو ولاية الله ورسوله وأمير المؤمنين عليه السلام. وما لنا -نحن الشيعة الإمامية- إلّا أن نشكر الله تبارك وتعالى إذ وفَّقنا للتمسُّك بهذه الولاية، ولم يكن هذا التمسُّك ليكون من جانبنا لولا آباؤنا وأمهاتنا، والمشاقّ التي تحمَّلها أسلافنا في الأجيال السابقة، حيث ضحَّوا بأنواع التضحيات حتى وصل إلينا شرف الولاية العلوية وأصبحنا من أتباع أمير المؤمنين وأولاده الطيبين الطاهرين وقلنا بإمامة صاحب العصر والزمان مولانا الحجة بن

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٣٨٩.
(٢) سورة يس، آية ٦٠ .

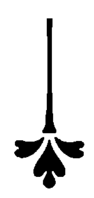
الحسن العسكري عجل الله تعالى فرجه الشريف. وترانا مُلزمين بالطلب إلى الله عز وجل أن يحفظ فينا هذا العهد المبارك، لنجعله منهجاً يُطهِّر حياتنا ويُنير دربنا، فلا نكتفي بمجرَّد الانتماء النظري أو القول بالمحبة لآل بيت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فنسعى جاهدين في اتّباعهم خطوة بخطوة من خلال طهارة النفس وإنجاز صالح الأعمال بعقيدة سليمة.



بصائر وأحكام

١ - الكفر المُتضمِّن لجميع درجاته ومراحله، يقود صاحبه إلى جهنم، يصلاها مذموماً مدحوراً.

٢ - والكفر يوقد نار جهنم في الدنيا، إلَّا أن الاصطلاء بها يتأخَّر إلى القيامة، نستجير منها إلى الله.



تُكلِّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له يصف هول يوم القيامة: «**خُتِمَ عَلَى الْأَفْوَاهِ فَلَا تَكَلَّمُ، وَقَدْ تَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَشَهِدَتِ الْأَرْجُلُ وَنَطَقَتِ الْجُلُودُ بِمَا عَمِلُوا، فَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً**»(١).

تفصيل القول

من الحوادث المهمَّة التي تقع في يوم القيامة، أن الله عز وجل يختم على أفواه جمع من البشر، بينما يستنطق أياديهم وأرجلهم ويجعلها

(١) تفسير العياشي، الشيخ محمد بن مسعود العياشي، ج١، ص٢٤٢.

قادرة على التكلُّم، لتتمكَّن من الإدلاء بشهادتها على سلوك أصحابها.

إن الإنسان إذا عزم على اقتراف خطيئة، تراه قبل أن يفعلها يُحاول أن يخرس صوت ضميره، ويسعى إلى تبريرها بلسانه سلفاً ثم يرتكبها. ومثال ذلك؛ أنه يعزم على ضرب أحدهم أو قتله، ثم يقول: لستُ أنا من فعل ذلك!

وكذلك قال إخوة النبي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنهم سيأخذونه إلى البر، وبعد قتله، سيكذبون ويقولون: إن الذئب قد أكله.

وفي الآخرة أيضاً سيسعى الإنسان نحو تبرير أفعاله بصورة أو بأخرى، كأن يقول: إن النبي المبعوث إليهم هو المُقصِّر في أداء رسالته، بل ترى البعض يمارس الكذب على ربِّه ويقول: ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾[1].

ومن هنا يُختم على أفواههم، لئلَّا يعتذروا ويُبرروا. والقيامة لن تكون كالدنيا؛ حيث يُسمح للمُتَّهم المُجرم بالكلام، وإنما أعضاء بدنه ستشهد عليه في محضر الله السميع العليم، وهنالك ينزعج أيَّما أنزعاج فيقول: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾[2]؟

عند ذاك تقول أعضاء بدن الإنسان مجيبةً: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[3].

كلام وشهادة

ومن الطريف أن عضواً سيُكلم الله تعالى، فيما يشهد عضو

(١) سورة الأنعام، آية ٢٣.
(٢) سورة فصلت، آية ٢١.
(٣) سورة فصلت، آية ٢١.

آخـر.. والمقصـود هو أن الأيدي سـتتكلَّم عـمَّا فعل صاحبهـا المُجرِم، فتنطـق في محضر الله؛ فلا تبقى حاجة لتتكلَّـم الأرجل وتُعيد ما نطقت به الأيدي، وإنما الأرجل تكتفي بالشهادة.

أما فيـما يتعلَّق بالذنوب الجنسـية، فإن السـياق اسـتخدم كلمة (جلودهـم)، رعايـة لـلأدب وامتناعـاً عـن الإتيـان بكلمـة فاضحة، واكتفى بالإشارة إليها.

كيف تنطق الأيدي؟

ترى كيف سيتسنّى للأيدي أن تتكلَّم؟

يمكن تفسير نطق الأيدي بثلاثة أوجه:

١- إنها كما الألسـن سـتنطق، وهذا ليس بالأمر العجيب؛ ذلك لأن الله المتعال قادر على فعل ذلك بقدرته اللا متناهية، وأين العجب في ذلك إذا كان سـبحانه قد أعطى القدرة للإنسان على أن يجعل الأجهزة الكهربائية تنطق؟!

ومـن جانب آخر؛ نجـد عبارة ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ صادحـة بالدلالة عـلى تكلُّمها الظاهري. والنُّطق هو وسـيلة الكلام؛ لغـةً، وفي الواقع؛ إن التكلَّم نتيجة النطق.

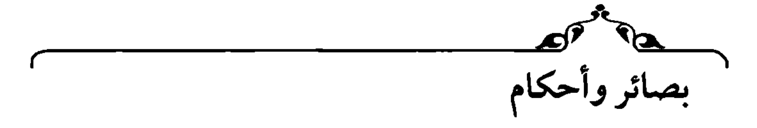
٢- إن الله تعالى يخلق الكلام من داخل اليد، كما رأينا خَلْقَه كلاماً في داخل الشجرة، عندما كلَّم عبده ورسوله موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٣- قالوا: إن يد الإنسـان لدى ارتكابه الذنب تأخذ حالة ولوناً خاصًّا يُشـير إلى ذلك الذنـب، كما العلامات في الطريـق التي تدل كلٌّ منها على مفهوم ما، فكأن تلكم العلامات تُخاطب المشاهد لها.

ويبدو أن النوع الثالث -بالرغم من صحته في نفسه- إلَّا أنّ من البعيد أن يكون مراد الآية الكريمة.

في الآيـة التالية من هذه السـورة المباركة، يصدر التحذير للعباد بـألَّا يتعجَّبوا من ختـم الفم وانعقاد اللسـان، وأن يأخـذوا العبرة من ذلـك. يقـول الله سـبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾[1].

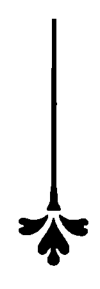
والرِّجْـل التـي خلقهـا الله بحيـث تكـون طـوع أمـره اليـوم، سـيأخذها يومـاً؛ فلا يغتر بـما فيها من قدرة ظاهريـة ومعنوية، لأن الله قادر على سـلبها، وهو الأمر الذي سـيفعله سبحانه في الآخرة تجاه غير الصالحين.



بصائر وأحكام

إن الإنسـان إذا عـزم عـلى اقتراف خطيئـة، فإنه قبـل أن يفعلها يُخـرس صوت ضمـيره، ويسـعى إلى تبريرها ثـم يرتكبها. أمـا في يوم القيامـة فإن الله تعالى يختم على أفواه جمـع من البشر، فلا يقدرون تبرير خطاياهم، ولكنه يُتيح الحديث لأيديهم ويسمح لأرجلهم بالشهادة.

(١) سورة يس، آية ٦٦.



فأنَّى يُبصرون؟

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ
يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

في الإنسان قوتان؛ إحداهما: البصيرة والهداية، والثانية: الإرادة والعزم. ومع أن التعبير عنهما متفاوت في اللفظ، إلَّا أن جوهرهما واحد، ولهما حقيقة متساوية. فهما نعمة وضعها الله تبارك وتعالى في ذات الإنسان، ليُميِّزه عن سائر المخلوقات. ولو أن الله تعالى سلب ابن آدم قوة العزم والإرادة، كان شأنه شأن عصاً جامدة، ولو أنه سبحانه سلبه البصيرة والعقل الهادي، فلن يختلف إذ ذاك عن سيارة بلا مقود، حيث يستحيل السيطرة على مسارها، فتتحرَّك باتِّجاهات غير معلومة.

وعالم اليوم، حيث تطوُّر الوسائل والإمكانات في التحرُّك

والانطـلاق، تراه ينمو بشـكل سريع جدًّا. فقد فلق الذرَّة، وسـافر إلى الفضاء، وسـبر أعـماق المحيطـات، ويكتشـف الجينـات، ويتدخَّل في أسـاليب الخلقـة.. ولكن تطوُّره يتواصل بلا غايـة حكيمة، لأنه عديم البصيرة، وبالتالي فهو يفتقر إلى الهدف المعلوم والمُحدَّد.

والذي يشهد على هذه الحقيقة تلك الأزمات الكبرى التي تُحيط بالعالم اليوم وتُنذر بمستقبل صعب للبشرية جمعاء.

إنهـا أدلـة قاطعـة على أن البـشر يمتـازون بإرادة وعـزم قويين، ولكنهما لم يقترنا بما يكفي من البصيرة.

بلى؛ هناك أفراد يتمتَّعون ببصيرة نافذة، ولكنهم في الوقت نفسه يفتقرون إلى قوة كافية تُمكِّنهم من تفعيل بصائرهم وتحكميها في الواقع المعاصر.

إن قوة الإرادة يجب أن تهتدي ببصيرة نافذه، ليصل الإنسان إلى حيث الكمال.

١ - ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ ﴾

يعتـبر هـذا تحذيـراً صارمـاً للكافرين لكـي يرتدعوا عـن الغيّ والفسـاد، لأن الله عز وجل قادر على أن يطمس على عيونهم؛ ويسلبها قدرتها على النظر، حيث يُسـوِّيها مـع الوجه ويردم تقعّرها، إذ الطمس يعنـي التسـوية، كأن يُهيـل المرء كمية مـن تراب على حفـرة في الطريق فيردمها ويُسوِّيها مع ما حولها من مساحة.

وعـلى منحىً آخر، يقـال: طَمَسَ المعالم؛ أي غَيَّبهـا عن أن تُنظر وتُشـاهد. ولعـل المقصود: إن الله تعـالى يطمس آيـات الحق عن أعين الكافرين، فلا يرونها، فيضلوا.

٢- ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾

حينما يطمس الله عز وجل على عين الإنسان، يستحيل عليه الوصول إلى هدفه، فيكون كالفرد الأعمى الذي يُريد بلوغ بيته، ولكنه يعجز عن النظر، فيبقى حائراً يميل ذات اليمين وذات الشمال.

أما مفردة ﴿فَاسْتَبَقُوا﴾ فمأخوذة من (استبق) بمعنى التنافس. ففي المكان الذي يصله شخصان معاً، يحصل التزاحم. وهذا أمر طبيعي، لأن الفرد الأعمى الحائر لا يدري من أية جهة يصل إلى هدفه، بينما قد يكون آخرون في الموقع يزاحمونه ويعترضون طريقه، فيصطدم بهم.

أما تأويل هذه الحقيقة علي واقع الحياة، وكيف أن عمى الناس الثقافي يتسبَّب في التناحر، فهو يتمثَّل فيما نجده من التعارض والتصادم بين المدارس الوضعية المختلفة، وكذلك في المذاهب الفلسفية، وهذا التعارض دليل واضح على أنها جميعاً مجانبة للحق، وإنما الطريق الوحيد الضامن للبشر هدايتهم، هو طريق الله الذي أوضحه وأناره للبشر عبر الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

قال الله جل وعلا: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(١).

المراد بالنور هو البصيرة وقوة الاهتداء التي يهبها الله تبارك وتعالى للإنسان، ولو أن أحداً حُرِمَ هذا النور -البصيرة- لبقي حائراً تائهاً في ظلمات الجهل.

وقد وصف ربُّنا المتعال تلكم الظلمات بقوله الشريف: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾(٢).

(١) سورة النور، آية ٤٠.
(٢) سورة النور، آية ٤٠.

وهـذه الآيات تُذكِّرنا بنعمة العين التـي وهبها الله تبارك وتعالى للإنســان، وهي وسـيلة للرؤيـة الظاهريـة والمعنوية. ولكــن حيث إن البحـث الأصلي عائد إلى الإيمان والكفر، والهداية والضلال، فإن نعمة الهداية هي النعمة الحقيقية، وهي التي تحصل بواسطة بصيرة القلب.

وكـما أن العمى الظاهري يُؤدِّي إلى الضيـاع والحيرة، فإنّ عمى القلب ينتهي بالضياع والضلال عن صراط الحق أكثر فأكثر.

ضياع الحقيقة في زحمة الآراء

ولتوضيح هذه الفكرة؛ نُشـير إلى ما رُوي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث قال: «**إِذَا ازْدَحَمَ الجَوَابُ خَفِيَ الصَّوَابُ**»[1].

أي: إذا أردت إبعاد مسألة ما عن موضوع البحث، فتكلَّم كثيراً، لأن ذلك يُؤدِّي بالمستمع إلى نسيان المسألة الأساسية. هذا في حين ذكر الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّ من الخصال التي بها يكمل إيمان العبد هو أن: «**يُمْسِكُ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ، وَيُخْرِجُ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ**»[2].

ومثـال واضح آخر، إنك إذا كان لديك عنوان ناقص، فسـألت شـخصاً جاهـلاً، فإنـك سـوف تـراه يُضيِّعك أكثـر فأكثر حـين يُكثر الافتراضـات. إنه ليزيدك حيرة، فتفقد حتى ما كان لديك من العنوان الناقص.

وهكـذا حينما يهب ربُّنا نور الإيمان لهداية البـشر، فإنْ لم يُقدِّروا هذه الهبة الإلهية حق قدرها، تاهوا في ظلمات الجهل الحالكة. وقد أشار

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٤٣.
(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٨.

القـرآن المجيد إلى هـذا المعنى في آية الكرسي الجليلة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١).

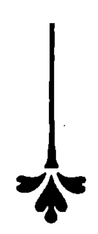
لقـد زوّد الـرَّبُّ كل فـرد بقدر مـن النور، فإن كفـر بالطاغوت وآمـن بـالله زاده هدى، وإن تولَّى الطاغوت سـلبه الله مـا آتاه من النور وتركه في ظلمات.

بصائر وأحكام

١- كما إنّ العمى الظاهري يُؤدِّي إلى الضياع والحيرة، فإنّ عمى القلب ينتهي إلى الضلال عن صراط الحق.

٢- الهداية هي النعمة الحقيقية، وهي ميراث بصيرة القلب.

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٧.



فما استطاعوا مضيًّا ولا يرجعون

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

***

من الحديث

روي عن أبي مالك صاحب رسول الله ﷺ أنه قال: «سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يَقُوْلُ: يَكُوْنُ فِيْ أُمَّتِي الخَسْفُ وَالمَسْخُ وَالقَذْفُ.

قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُوْلَ الله؛ بِمَ؟

قَالَ: بِاتِّخَاذِهِمُ القَيْنَاتِ[1] وَشُرْبِهِمُ الخُمُوْرَ»[2].

***

(١) القينات: جمع قينة، المغنية.

(٢) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص٣٩٧.

تفصيل القول

لمناسبة ورود مصطلح (المسخ) نشير إلى المسألة أدناه:

هناك أربعة مصطلحات ترتبط بوضع الروح بعد الموت، وهي متشابهة في الوزن، وبينها تفاوت في المعنى، وهي: (رسخ) و(فسخ) و(مسخ) و(نسخ).

أما (الرسخ) فيعني أن روح الإنسان بعد الموت تحلّ في حجر. وهذا -كما يبدو- أحد مذاهب الضلال، ولعله أصل عبادة الأصنام.

و(الفسخ) هو تلاشي روح الإنسان وزوالها، وهو مذهب ظلامي آخر.

و(المسخ) يعني حلول روح الإنسان -بعد الموت- في الحيوان، وهو مذهبُ ضلالٍ ثالث.

و(النسخ) حلول روح الإنسان -بعد الموت- في بدن إنسان آخر.

قال بعض المفسرين بخصوص (المسخ) في هذه الآية: إن الله تعالى يمسخهم ويميتهم؛ أي أن المراد من كلمة ﴿مَكَانَتِهِمْ﴾ هو أنهم بعد المسخ يموتون.

ولعل المراد من (المسخ) في الآية، هو حصول التحوُّل فيه من حالته الفعلية كبشر إلى موجود أدنى بأن يُسلَب ما يتميَّز به كإنسان؛ أي تُسلَب إرادته وبصيرته. وهذا المعنى أكثر تناسباً لموضوع البحث؛ فإذا سُلِبَ الفرد إرادته وبصيرته، أضحى خاوياً عاجزاً.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات قرآنية أخرى، حيث جاء فيها:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[1].

وهكذا يكون المراد في هذه الآية أن البشر عديمي الإرادة والذين لا يتمتَّعون بالرؤية الصحيحة، إنما يتخبَّطون خبط عشواء، وهم عاجزون عن بلوغ الكمال.

بصائر وأحكام

إن الله سبحانه وتعالى حينما يسلب الإنسان إرادته وبصيرته، يُضحي عاجزاً عن أية حركة نحو الكمال، وإنه لمصير كارثي بالنسبة إليه.

(١) سورة المنافقون، آية ٤.



أفلا يعقلون؟

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

***

من الحيث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**ثَمَرَةُ طُوْلِ الحَيَاةِ السَّقَمُ وَالهَرَمُ**»(١).

وقال عليه السلام: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ كَثُرَتْ مَصَائِبُهُ**»(٢).

وقال عليه السلام: «**عَجِبْتُ لِمَنْ يَرَىٰ أَنَّهُ يَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ فِيْ نَفْسِهِ وَعُمُرِهِ وَهُوَ لَا يَتَأَهَّبُ لِلْمَوْتِ**»(٣).

وقال عليه السلام: «**السَّاعَاتُ تَخْتَرِمُ الأَعْمَارَ وَتُدْنِيْ مِنَ البَوَارِ**»(٤).

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٦٠، حديث ٣٠٧٥.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٦٠، حديث ٣٠٧٨.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٦٣، حديث٣١٥٦.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٥٩، حديث٣٠٤٧.

تفصيل القول

بعد أن أشار القرآن المجيد إلى أن بعض البشر تعرَّضوا للمسخ، ويُمكن أن يتعرَّض غيرهم لهذا العذاب وهو الإذلال والاحتقار، ها هو ذا يكشف لبني آدم حقيقة أخرى، وهي أن الإنسان -ومهما عمّر ونال حظه من الحياة- لا ينبغي أن يسقط في حضيض الغرور، لأنه لا ريب محكوم بالانكسار والتغيير في قُوَّته وجوهر وجوده؛ لأنّ كل إنسان مضطر إلى التناقص يوماً بعد يوم، شأنه في ذلك شأن كل كائن مخلوق.

يقول الخبراء: إن في الدماغ ثمانين مليون خلية، وهي تتضاءل بمرور الزمن، لا سيما في مواقع الاضطراب والتأثُّر البالغ، حيث يتلف الكثير منها.

وهذا التفسُّخ البدني الذي يحصل فجأة وبسبب القلق والتوتر، يختلف عن نظيره الحاصل بفعل تقدّم السِّنّ.

والمراد بكلمة ﴿فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ أن الضعف يسري إلى جميع أعضاء البدن؛ منها الدماغ والأعصاب والعين و.. ومع أن للأعصاب دوراً أساسيًّا في البدن، فإن للأعصاب أيضاً علاقة وطيدة بطبيعة العقل والروح.

ويمكن أن تُستفاد من هذه الآية قضية أخرى، وهي أن مفردة (الخلق) لها عمومية في المفهوم؛ أي أن هذه الشيخوخة والانكسار ليسا مختصين بالإنسان، وإنما تسريان إلى جميع الأحياء. فمثلاً فيما يتعلَّق بالشمس، وهي إذا قيست بمجموع ما خلق ربُّنا من العالمين تُعتبر بمثابة خلية في جسم الإنسان، أن لها عند تقادم عمرها شيخوختها،

وطبقاً لقول المحققين في علم النجوم، فإن شمسنا تعيش الآن أواسط عمرها، أما سائر ما في المجرَّات من شموس صغيرة وكبيرة فإن بعضها شابة وأخرى قد شاخت وهرمت، وهي تموت أو تُلقى في الحفر السوداء المتناثرة في الفضاء، والتي يُعتقد أنها مقبرة الشموس التي نكست في العمر، وسبحان الله الحي الذي لا يموت.

إن جميع الموجودات زائلة، والباقي وحده، هو الله الخالق المحيي المميت الذي لا معنى لفنائه. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1].

في خاتمة الآية أمر الله تعالى بالتفكُّر: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟

جدير بالذكر أن صيغة المضارع في أمر التعقُّل تفيد الاستمرار على التزام هذا الأمر.

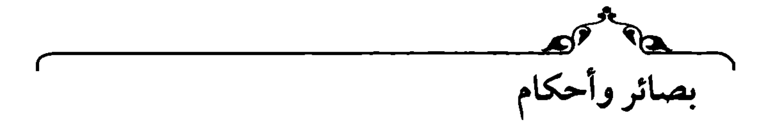
وهو سبحانه لم يقل: أليس لكم عقول فتفكرون بها؟ لأنهم سيُجيبونه بأن عقولنا تحت تصرفك، إن شئتَ فكّرنا وإن شئتَ لم نُفكِّر. وإنما أورد الله هذه الصيغة ليقول للعباد: لقد وهبتكم العقول وعليكم استثمارها والاستفادة منها. وفي الواقع، إن هذه الجملة جملة توبيخ وإدانة لعدم استفادتهم من عقولهم.

عودة المُعمِّرين إلى عالم الطفولة

أُشير في الآية إلى عمر الإنسان، وأنه مهما طال به العمر، فإن الله يُنكِّسه، أي يُعيده إلى مرحلة الطفولة وما فيها من نقص وضعف، فتراه يفعل ما يفعل الطفل، ويُصاب بالعجز والنسيان.

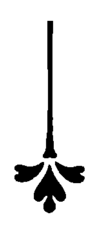
(١) سورة القصص، آية ٨٨.

ولا ريب في أنّ هذه الآية الشريفة تكشف اللثام عن سُنّة إلهية في خلقه، تُشير إلى واقع ضعفهم ونقصهم، لتُرشدهم -فيما تُرشدهم- إلى التفكير مرة وألف مرة، بألّا يغترُّوا بأنفسهم وبما لديهم، لأنهم لا محالة فاقدون ما قد يمتلكونه خلال حياتهم. فهذه الآية تعبر عن كونها آية إنذار وتحذير وتأديب، ليس للفرد فقط، وإنما هي تشمل كل جماعة وفرقة وكيان وأمة.



بصائر وأحكام

إن الإنسان مهما عمّر ونال حظه من الحياة، لا ينبغي أن يسقط في حضيض الغرور، لأنه لا ريب محكوم بالانكسار والتغيير في قوته وجوهر وجوده، لأنّ كل إنسان مضطر إلى التناقص يوماً بعد يوم، شأنه في ذلك شأن كل كائن مخلوق.



وما علمناه الشعر

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩)﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في مطلع كلام له: «**وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله نَبِيُّ الْهُدَى، وَمَوْضِعُ التَّقْوَى، وَرَسُولُ الرَّبِّ الْأَعْلَى، جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ الْحَقِّ لِيُنْذِرَ بِالْقُرْآنِ الْمُنِيرِ وَالْبُرْهَانِ الْمُسْتَنِيرِ، فَصَدَعَ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ وَمَضَى عَلَى مَا مَضَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ الْأَوَّلُونَ**»(١).

تفصيل القول

١ - ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ﴾.

يُخاطب الله سبحانه وتعالى البشر قائلاً: إن التعاليم التي أنزلها

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٣٦٠.

بهيئة كتاب اسمه القرآن على نبيه الأكرم ﷺ ليست شعراً، وإنما هي كلمات فطرية ووجدانية يُدركها ويعيها كل إنسان له فطرة نزيهة ووجدان يقظ.

البعض ينظر إلى القرآن على أنه كتاب شعر جميل، إلَّا أن الله تعالى يمنع الناس عن هذه النظرة الخاطئة، التي تعتبر القرآن كما الزهرة العطرة التي تُهدى للإنسان لِيُزيِّن بها منزله، وقد تكون هذه النظرة عند المسلمين أنفسهم، وإنما النظرة الصحيحة للقرآن يجب أن نتَّخذ منه علاجاً طبّياً ومعطراً، سمح به طبيب ولا أعلم منه، وهو الله تبارك وتعالى، ليشفى به ابن آدم ويقضي على آلامه وأمراضه.

ومن المناسب أن نُشير إلى نقطة هامَّة ثم نعود لمواصلة البحث. فقد ذكرت الرواية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَجِيِّهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ** عليه السلام: **يَا مُوسَى، أَحْبِبْنِي وَحَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي.**

قَالَ: رَبِّ، إِنِّيْ أُحِبُّكَ، فَكَيْفَ أُحَبِّبُكَ إِلَى خَلْقِكَ؟.

قَالَ: اذْكُرْ لَهُمْ نَعْمَايَ عَلَيْهِمْ، وَبَلَائِي عِنْدَهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ إِذْ لَا يَعْرِفُونَ مِنِّي إِلَّا كُلَّ الْخَيْرِ»[1].

وهكذا القرآن الكريم، فظاهره أنيق وجذَّاب ورائع جدًّا جدًّا، ولكن علينا أن نتوخَّى ما وراء هذا الظاهر من علم وحكمة وبصائر وهدى. وإليك المثل الثاني.

العلاج بالعسل

إحدى النعم الإلهية المذكورة في القرآن هي العسل، فهو دواء

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص٤٨٤.

لجميع الأمراض، وهذا الدواء الشامل متوفر في الورد، فيمتصُّ النحل عصارة الزهرة ليصنع منها العسل.

وفي الحقيقة نجد أن الله تعالى قد خلق معملاً طبيًّا يُسمّى النحل، وهو يصنع أنواع العسل المعالِجة لأنواع الأمراض. وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذا التنوُّع بقوله: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾[1]، ذلك لأنه لو قال: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[2] واكتفى بذلك، لأشكل عليه العباد وقالوا: إن الأمراض مُتعدِّدة ومُتفاوتة، ولا يُمكن لدواء واحد أن يُعالج كل أنواع الداء، إذن؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ دليل على تنوُّع العسل، وكل لون منه يُعالج داءً مُعيَّناً بإذن الله تعالى. وهكذا في هذه الآية (مورد التفسير) ألمح إلى أن القرآن وآياته جميلة عذبة كما العسل، ولكن لا ينبغي أن يتوقَّف الإنسان عند هذا الحد ويقرأ القرآن لأجل جماله، ذلك لأنه قد بعث نبيًّا -هو أفضل الأنبياء- مُهمَّته هداية البشر لِيُنجيهم من نار جهنم. وهكذا نبي لا ينبغي أن تُلقى كلماته بما فيها من جمال أدبي، وإنما أيضاً بما فيها من سمو معنوي وحلول للأزمات البشرية.

وهذا هو الفرق بين القرآن والشِّعر، حيث إن الشعراء ينسجون كلمات من خيالهم، ويصلون بعضها ببعض، لينالوا شهرة دون أن يكون لديهم كبير اهتمام بمجتمعهم، وبما فيه من أزمات، ولا بالثقافة وما فيها من تعقيدات. بينما القرآن بيانه بالغ الوضوح والجمال، وهو في الوقت ذاته ذكر: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

إنه ذكر، لما فيه من إثارة العقل، وبلورة الوجدان، وتفعيل

(١) سورة النحل، آية ٦٩.
(٢) سورة النحل، آية ٦٩.

الفطرة.. إلى جانب أن الإنسان قد يكتسب معلومات، وكذلك يختزل تجارب خلال سِنِيِّ حياته، ولكنه يغفل عنها أو ينساها، ممَّا يجعله مُحتاجاً لمن يُذكِّره.. فكان أن أنزل الله المتعال قرآناً حكيماً مبيناً للناس لِيُذكِّرهم.

وقد قالوا: إنه سُمِّي الإنسان إنساناً لنسيانه.

الإنسان والحركة

حركة الإنسان تبع لإحساسه، وحينما تُثار الأحاسيس، تبدأ الحركة لتحصيل ذلك الموضوع الذي أُثيرت من أجله، سواء كان الموضوع صحيحاً أم خطأً؛ حقًّا أم باطلاً.. وهذا يعني أن الأحاسيس قد تُثار لأجل موضوع صحيح وحق، كما قد تُثار لأجل موضوع خاطئ وباطل.

أما قراءة القصص، فتُعتبر إحدى عوامل إثارة الأحاسيس لدى البشر، فإن كانت القصة ذات مضمون ديني وحقيقي، فإن ابن آدم يُهدى إلى الصراط المستقيم. وإن كانت ذات محتوى باطل شيطاني، فلا شك في إن أحاسيسه ستُساق إلى جادة الانحراف والباطل. ومن هنا نجده سبحانه وتعالى لدى ذكره قصةً مّا في القرآن المجيد، يتبعها بقوله الكريم: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ليفهم القارئ والمستمع أن هدف القصص المذكورة في القرآن هو إثارة الأحاسيس الطيِّبة وخلق التحرُّك لبلوغ الكمال.. مثال ذلك، قول الله تعالى في ذكر قصة أصحاب الكهف: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾[٢].

(١) سورة الكهف، آية ١٣.
(٢) سورة المائدة، آية ٢٧.

أعذب الشعر أكذبه

مفردة (الشعر) المستعملة في الآية، مشتقة من (الشعور) بمعنى الإحساس، وأن يقال للفرد شاعراً، ذلك لأن الشاعر قادر على إظهار مشاعره، وعلى إثارة وتحريك مشاعر الآخرين.. ولذلك يقلّ أن يكون النص الشعري محتوياً على رسالةٍ مّا، لأنه في الغالب يهدف أو ينتهي إلى خلق الأحاسيس الجميلة أو المقرفة إزاء موضوعٍ مّا، ولذلك هو غير مهتم بإلقاء رسالة مهمة على المستمع.. على الرغم من أن الكثير من الشعراء لهم في أشعارهم مفاهيم طيِّبة ومُلفتة للنظر، فضلاً عن كونها مُثيرة للإحساس.

ولكن للشعر عموماً حالة شعورية وإحساسية، وإن أراد الشاعر نظم شعر جِدّي، يرى نفسه يبتعد عن موضوعه الأصلي. وقد قيل بهذا الصدد: أعذب الشعر أكذبه.

ومن جانب آخر، نجد في كثير من أشعار الشعراء، ولكي يكون ذا جمال وإثارة للأحاسيس لدى المستمع، مبالغات لا تُصَدَّق. وليس كذلك القرآن، فإن كلماته مطابقة لمرّ الحق بالرغم من جمالها وروعتها وإثارتها للمشاعر الطيبة.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، هذه الجملة الشريفة تُبيِّن أن لغة النبي الأعظم ﷺ لغة منطقية، فيما لغة الشعر ليست لغة علمية. ولهذا؛ فإن ما صدر عن نبي الإسلام من بيان ليس شعراً، وإنما هو منظومة مُتكاملة من البصائر التي تُشكِّل كتاب هداية.

في عصر البعثة النبوية الشريفة، كان عرب الجاهلية يضعون ثقافتهم ويصوغون قيمهم ويُؤطِّرون تاريخهم بالشعر، ولهذا كان

الشعر لديهم يمتاز بالروعة والبلاغة الراقية. ولكن بنزول القرآن المجيد، التفت العرب إلى حقيقة أن فصاحة القرآن وبلاغته شيء أرقى واسمى من شعر شعرائهم في تلك الحقبة، وقد بلغ الذروة في الفصاحة، حتى أنهم لدى استماعهم لآيات القرآن المُقدَّسة تأكَّدوا من أنهم عاجزون عن مُجاراتها أو تحدِّيها.

أقول: إذا أراد الإنسان أن يُفصح عن حقيقة ما، لا يجدر به أن يقرن ذلك بكلام باطل ذي تأثير سلبي، حتى ولو كان فيه دعم لمقصوده. فالبعض يستعمل أسلوب المبالغة عند بيان الحقائق، وهذا أمر خاطئ، لأنه يُؤدِّي بالمستمع إلى الشك. وبعبارة أخرى؛ حينما يقرأ المرء كلاماً مبالَغاً فيه يعرف بعقله أنه خطأ فيُعمِّم الأمر إلى مجمل الكلام.

إنه ليس من الجدير بخاتم الأنبياء ﷺ أن تُسمُّوه -أيها الناس- شاعراً، إنما هو نبي يتصبَّب عرقاً لدى نزول وحي الله تعالى عليه، يستحيل أن يكون مُجرَّد شاعر يُريد أن يُدغدغ عواطف الناس، بل هو رسول من عند الله، وكلامه مُفعم بالنور والحكمة والدعوة إلى الله تعالى، وهو معروف عندكم جميعاً بالصدق والأمانة، والمبادِر إلى العمل بتعاليم الوحي قبل دعوة الناس إليها، وهو المُتبتِّل دائماً إلى الله صلاةً وعبادةً وإحساناً إلى الخلق.

ثرثرة وبطالة الشعراء

الذي يجعل إصلاح مجتمعه هدفه الأول، لا يُمكن أن يكون شاعراً، ذلك لأن أفراداً من قبيل الشعراء والسحرة لا يصلون إلى مُبتغاهم، وقد قال عز اسمه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1].

(١) سورة طه، آية ٦٩.

فالساحر يدَّعي القدرة على بلوغ السماوات، وأنه يقوم بالأعمال الخارقة، ولكنه في الحقيقة لو كانت فيه هذه القدرة لفعل لنفسه ما يسمو به ويُخلِّصه من سوء حظ يتخبَّط فيه. وكذلك هم الشعراء الذي يُؤلِّفون أشعاراً حول مختلف المواضيع، ولكنهم يعجزون عن بلوغ مآربهم، على أنهم لا يسعون نحوها عملاً.

جاء في القرآن الحكيم حول شريحة من الشعراء: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

هذا في حين نجد مصلحاً عظيماً كالإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «وَاللهِ! مَا أَمَرْتُكُمْ بِطَاعَةٍ إِلَّا وَقَدْ ائْتَمَرْتُ بِهَا، وَلَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَقَدْ انْتَهَيْتُ عَنْهَا»[2].

ولكن الشعراء بشكل عام لا يتفوَّقون على غيرهم، إلَّا في باب صناعة الكلام. إنهم يصنعون الكلام الموزون والجميل ويدعون غيرهم ويُشجِّعونهم على الالتزام به، ولكنهم غير مستعدين -عادة- لتطبيقه، أو أنهم لا يهتمون لتحقيق التطابق بين أقوالهم وأفعالهم.

قصة الشاعر الجبان

حسان بن ثابت، وهو أحد الصحابة، كان شاعراً مُفوَّهاً ولكنه في الوقت ذاته كان جباناً، إذ إنه في معركة الخندق كان من جملة أفراد تخندَّقوا قرب (قلعة فارغ) في المدينة المنورة. قالت السيدة صفية بنت

---

(١) سورة الشعراء، آية ٢٢٤-٢٢٦.

(٢) تفسير كنز الدقائق، الميرزا محمد المشهدي، ج٢، ص١٩٤.

عبد المطلب، عمّة النبي الأكرم ﷺ: «رأيت يهودياً قرب القلعة، فشككتُ في أمره، فقلتُ لحسان بن ثابت: إذهب إلى هذا الرجل وتحسَّس أمره. فقال: إنكِ لتعلمين أن هذا الأمر لا يكون مني!. قالت صفية: فتناولت سلاحاً وقتلت اليهودي، ثم قلت لحسان: إذهب واسلب الرجل، فخاف حسان من أن يسلبه وهو ميت!»[1].

وبهذا الوصف لكثير من الشعراء، لا ينبغي أن نقول بأن النبي الذي بُعِث لإصلاح البشر، وهو في الوقت نفسه سيد الصلاح والإصلاح، كان شاعراً أو يقول الشعر.

٢- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾

أما الذكر المشار إليه في الآية الكريمة، فيعني الحقائق المُكرَّسة في فطرة الإنسان ووجدانه، وجاء الوحي لإثارتها وبعثها من جديد. ولا ريب في أن الوجدان الإنساني، لدى استيقاظه من الغفلة، يكتشف مدى صدق ما أمر به الوحي.

القرآن المبين

وآيات الكتاب بالغة الوضوح في بيان الحقائق. تعالوا نتدبَّر في بضع آيات كأمثلة على مدى بلاغة القرآن في أحكامه:

ألف: قال الله سبحانه عن القصاص: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2].

ألا ترى كيف تضمَّنت هذه الآية حقائق دقيقة وبليغة في

(١) بحارالأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢، ص٢٤٤.
(٢) سورة البقرة، آية ١٧٩.

موضوع حساس، أَوَتَجِدُ مثيلاً لها؟ ولو افترضنا اجتماع كبار الفلاسفة والمُفكِّرين، وفقهاء القانون، وخبراء المجتمع على أن يأتوا بمثل هذه الآية في موضوعها، فلن يُفلحوا أبداً.

باء: ونموذج آخر بخصوص مسائل الزواج والطلاق، وقد ورد ذلك في آية شريفة في سورة البقرة بأرقى شكل وأجمل صيغة وأروع اختصار. قال الله سبحانه: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وإذا جمعنا النصوص القانونية في مختلف بقاع الأرض، سنرى أن القرآن الكريم بيَّن المسألة عبر جملة بالغة الروعة والدقة والوضوح.

القرآن وسلامة البيئة

جيم: جاء في القرآن المجيد: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[2].

من القضايا المعاصرة المُهِمَّة هي قضية سلامة البيئة، حيث تهتم الحكومات والمنظمات غير الرسمية بمحاولات القضاء على الأمراض والتلوُّث. أما القرآن الكريم فقد أوجز ذلك في جملة واحدة، تستوعب كل أبعاد المحافظة على البيئة.

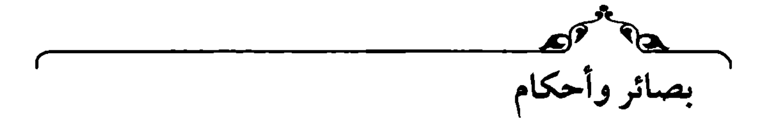
إننا إذا تعلَّقنا بحبل الله المتين، المُتمثِّل في القرآن المجيد،

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٢٨.

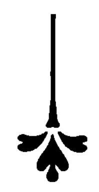
(٢) سورة الأعراف، آية ٥٦.

واستلهمنا من تعاليمه الدينية، ستصلح لنا دنيانا وآخرتنا. ولا ينبغي تسمية كل هذه الهيبة والعظمة والسمو والبلاغة والحكمة نصوصاً شعرية، وأن الذي جاء بها مُجرَّد شاعر. وأيُّ شعر يتضمَّن كل هذه المنظومة المتكاملة ممَّا يحتاج البشر؟.



بصائر وأحكام

ما جاء به النبي الأعظم ﷺ إنما هو وحي من رَبِّ العالمين، لا يمتُّ للشعر بصلة، وذلك لأن الشعر إنما هو إثارة للعواطف دون بيان الحقائق، بينما الكتاب ذِكْرٌ يُثير العقول، ويُبلور الفطرة، ويُنير درب السائرين في سبيل الكمال.



لينذر من كان حيًّا

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له: «وَقَدْ بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْكُمْ رَسُولًا ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ صلى الله عليه وآله وسلم، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَاباً عَزِيزاً ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾، ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. فَلَا يُلْهِيَنَّكُمُ الْأَمَلُ وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَجَلُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَمَدُ أَمَلِهِمْ، وَتَغْطِيَةُ الْآجَالِ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنِّقْمَةُ»[1].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٣٨٩.

تفصيل القول

قلنا في تفسير الآية السابقة: إن القرآن ذِكْرٌ، وإنه يُنبِّه الإنسان، ويُقدِّم له منهجاً تامًّا لكافَّة جوانب حياته. وها هو يقول: إن القرآن أُنزل ليُحذِّر البشر من عاقبة أعمالهم، وإنما القرآن المجيد يُطلق تحذيره لكل قلب لديه القدرة على استثمار نعم الله تعالى، وإن إحدى أهم هذه النعم؛ عقله. ولذا فإنه سبحانه يُحذِّر ويُنبِّه عباده للاستفادة من هذه النعمة الكبرى لئلَّا تستولي عليهم الغفلة، وذلك لأن الفرد الميت يعجز عن فعل شيء ليحظى بنعمة التنبيه والتحذير.

وقد قال الشاعر(1):

لقد أسمعتَ لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تُنادي

إن الحياة الحقيقية هي تلك الحياة التي يكون فيها قلب الإنسان منشرحاً وقادراً على اجتذاب إثارات العلم والحكمة إليه، كما هي الأرض الخصبة التي تجتذب البذور الحية إليها، لتُنمِّيها بالماء والضوء حتى تتحوَّل إلى شجرة يافعة عظيمة.. أما إذا كانت الأرض كالقلب الميت، فإنه لا ينمو فيها بذر مهما سُقِيت بالماء أو توافرت فيها العوامل الزراعية الأخرى، لأنها فاقدة الاستعداد لإنجاز هذه المُهمَّة.

القرآن حقيقة واحدة

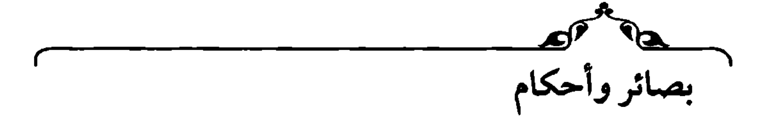
أحد الأساليب الشائعة في القرآن أنه في بداية كل سورة يُورد مُوجزاً لما ستتضمنه السورة من مطالب، ثم إنه في الآيات اللاحقة

(1) عمرو بن معدي كرب (٧٥ ق.هـ/ ٢١هـ).

يُفصِّل تلك المطالب، وفي ختام السورة يُذكِّر مرة أخرى بخلاصة حقائقها، ومثال ذلك ما ورد في مطلع هذه السورة المباركة، حيث قال عز اسمه: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾[1].

فهذه آيات تحذير وإنذار، ولكنها خاصَّة بمن ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: المُنذَرين، ولكنهم لا ينتفعون بالإنذار. وفي الآيات الخاتمة، عبّر عنه بشكل آخر.. قال عزَّ اسمه: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

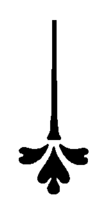
والربط بينهما من خلال العبارات الواردة فيهما. فقد قال في الآيات الأولى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهنا قال: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ كما قال في الأولى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾، وقال هنا: ﴿يَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾. وهذا الأمر يحكي حقيقة واحدة تتوفر عليها جميع الآيات والسور القرآنية الكريمة.



بصائر وأحكام

إن القرآن أُنزل لِيُحذِّر البشر من عاقبة أعمالهم، وإنما القرآن المجيد يُطلق تحذيره، لأن الإنسان حيٌّ ولديه القدرة على استثمار نعم الله تعالى، وإن إحدى أهم هذه النعم؛ نعمة عقله.

(١) سورة يس، آية ٦ - ٨.



هم لها مالكون

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله: «**إِنَّا لَا نَمْلِكُ مَعَ الله شَيْئاً، وَلَا نَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَّكَنَا؛ فَمَتَى مَلَّكَنَا مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنَّا كَلَّفَنَا، وَمَتَى أَخَذَهُ مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَنَّا**»(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**مَنِ اشْتَرَى دَابَّةً كَانَ لَهُ ظَهْرُهَا وَعَلَى الله رِزْقُهَا**»(٢).

وقال عليه السلام أيضاً: «اشْتَرِ دَابَّةً، فَإِنَّ مَنْفَعَتَهَا لَكَ، وَرِزْقَهَا عَلَى الله»(٣).

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٤٠٤.
(٢) الكافي الشيخ الكليني، ج٦، ص٥٣٦.
(٣) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج٢، ص٦٢٥.

تفصيل القول

١ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾

إن الغاية من تبيين هذه الحقائق، تذكير ابن آدم بالنعم التي يراها، ولكن دون أن يعرف قيمتها. فقد خلق الله تعالى هذه الحيوانات بيد قدرته، لكي ينتفع بها الإنسان، ثم يتوجَّه بالشكر إلى خالقها والمُتفضِّل بها.

٢ - ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾

كلمة ﴿أَيْدِينَآ﴾ تعني القدرة والسلطة، كما قال ربُّنا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(١). والمقصود بهذا القول الشريف، أن قدرة الله تتجلى في آيات خلقه.

والعمل بالأيدي الربانية بمعنى الأثر المترتب على الأشياء. وإذا كان الإنسان يترك أثره على ما يُنجز ويُؤدي بتعبٍ ومشقّة، فإنّ الله المتعال لا يتحمَّل مشقةً وتعباً لدى خلقه وجَعْله وإرادته، وهو الذي إذا أراد شيئاً كان.

و(الأنعام) المشتقة من النعمة، لها من الفوائد الكثيرة، وهي نعمة كبرى عمَّت الإنسان من لدن ربِّنا تعالى.

٣- ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾

الإنسان في ظاهر الأمر يُعتبر مالكاً للدواب، ولكن المالك الأصلي في الحقيقة هو الله تبارك وتعالى، لأنها بيد قدرته. ورغم إيماننا

---

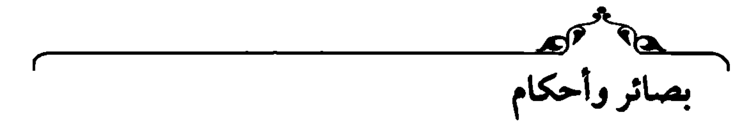
(١) سورة الفتح، آية ١٠.

بأن الله سبحانه لا يتحمَّل أدنى مشقة لدى الخلق، على عكس الإنسان، فـإن الله تعالى حينما ذكـر ذلك، عَرَّفنا مدى أهمية هـذه النعم (الأنعام) بالنسبة لابن آدم.

مالكية الإنسان

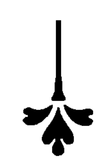
تـرى ماذا يعنـي القول بأن الإنسـان مالك لما تحـت تصرُّفه من الأنعام؟.

الجواب: إنّ مالكيته تعني التسـلُّط على الحيوانات، مع أن كثيراً مـن هـذه الحيوانات تمتاز بقوة أكبر من الإنسـان، ولكـن الله عز وجل وهب ابن آدم قدرة على أن يتصرَّف بها ويُؤهِّلها. ولطالما شُـوهد طفل صغير يسـوق قطيعاً كبيراً من الأبقـار والثيران، مع عجزه عن مجاراتها بالقـوة والحجـم. وهـذا من فضـل الله تبـارك وتعـالى وحكمتـه التي سـخَّرت هـذه الحيوانات لابـن آدم، وهو العاجز في الوقت نفسـه عن الإمساك بقياد مُجرَّد قطة صغيرة إن هي تمرَّدت عليه بفعل جوع يَمَسُّها -مثلاً- مع أنه أقوى وأكبر حجماً منها.



بصائر وأحكام

لقـد عمد القرآن الكريـم إلى تذكير ابن آدم بالنعـم التي أنعمها الله سـبحانه عليه، فإذا انتفع بها حقّ عليه أن يتوجَّه بالشُّكر إلى خالقها والمُتفضِّل بها.



وذللناها لهم

﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

***

تفصيل القول

إن الله تبارك وتعالى قد سخَّر الحيوانات وذلَّلها للإنسان، ليجعل له منها مركباً ومأكلاً. ولولا تذليل الأنعام للإنسان لما استطاع الهيمنة عليها. أما مراكب العصر الراهن فلا تعدو أن تكون مركباً فقط لابن آدم، ولكن الحيوانات؛ كالجمل، فهي وسيلة ركوب، ويُمكن تناول لحمها عند الحاجة.

بصائر وأحكام

إن الله تبارك وتعالى قد سخَّر الحيوانات وذلَّلها للإنسان، ليجعل له منها مركباً ومأكلاً.



أفلا يشكرون؟

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ**»(١).

وروي عن أبي حمزة الثمالي قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: **الْعَبْدُ بَيْنَ ثَلَاثٍ: بَلَاءٍ وَقَضَاءٍ وَنِعْمَةٍ؛ فَعَلَيْهِ لِلْبَلَاءِ مِنَ الله الصَّبْرُ فَرِيضَةً، وَعَلَيْهِ لِلْقَضَاءِ مِنَ الله التَّسْلِيمُ فَرِيضَةً، وَعَلَيْهِ لِلنِّعْمَةِ مِنَ الله الشُّكْرُ فَرِيضَةً**»(٢).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ؛**

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٣.

(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٦ .

صَغُرَتْ أَوْ كَبُرَتْ، فَقَالَ: الحَمْدُ لله، إِلَّا أَدَّى شُكْرَهَا»[1].

تفصيل القول

فضلاً عن كون هذه الأنعام مسخَّرة ومذلَّلة للركوب والطعام، فإن جميع أجزاء بدنها، كالجلد والصوف والشعر والوبر، فيها فوائد جمَّة لحياة الإنسان.

والله عز وجل يلفت نظر ابن آدم إلى هذه النعم الكبيرة والكثيرة ليستفيد منها، ثم ليجعل من الاستفادة منها محطةً ومعبراً لإثبات إنسانيته، فيعترف بالنعمة، ويقرّ بالفقر والحاجة إلى ربِّه الخالق لهذه الحيوانات والمُذلِّل إياها لصالح الإنسان.

لعل أكبر النعم الإلهية؛ أن يُوفَّق العبد ليكون شاكراً. ويُستفاد من بعض الآيات القرآنية الكريمة أن من أهم أسباب اصطفاء واختيار الأنبياء لمقام النبوة، هو هذا الشكر، هذا الذي هو من أهم محاور الحكمة.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[2].

فإذا انبرى البعض بالسؤال عن السبب في اختيار هذا الإنسان أو ذاك لمنصب النبوة. يُجيب سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

وطبعاً هذا أحد تفاسير الآية.

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٩٦.
(٢) سورة الأنعام، آية ٥٣.

ومن هنا يُعلم أن الأكثر شكراً هو الذي يجعله الله تبارك وتعالى نبيًّا، ولكن لماذا؟

لأن للشاكر خصالاً ثلاث:

١- إنه لا يعتبر نفسه صاحب نعمة.

٢- إنه يعتبر الله صاحب النعمة.

٣- إنه لا يعدّ النعمة نقمة.

نعوذ بالله؛ تارة نَعُدُّ النعمة نقمة، حيث ننتقد أو نتمرَّد على لزوم الشُّكر على النعمة، فيما نحن نعيش ونُغفل واقع ملايين النعم التي تُحيط بنا وتتوالى علينا، وفي مقدمتها نعمة العقيدة السليمة، ونعمة أن الله تعالى لم يُهمل أمر هدايتنا، ونعمة الأمان، ونعمة السلامة والصحة.

بلى؛ إن الإحساس بالنعمة ومعرفة كونها نعمة، بمثابة الخطوة الأولى لإبداء الشكر.

قال مولانا الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ فَعَرَفَهَا بِقَلْبِهِ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَهَا»**[(١)].

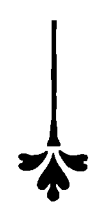
ولكن المشكلة الكبرى لدى البشر تكمن في سوداويتهم، حيث يعكفون على النظر إلى النصف الفارغ من القدح.

ولكن لو أن ابن آدم أدرك حالة الشُّكر، لشعر براحة وطمأنينة عُظمى، ولانتشرت فيه السكينة. أما غير الشاكرين فإنهم لا يشكرون لإصابتهم في مقتلٍ من أرواحهم، وإنما بمسلكهم الناقم هذا يُريدون سدَّ النقص الحاصل في معنوياتهم، فيظنون أنّ الإقبال على ماديات الدنيا باستماتةٍ وتهالكٍ هو الذي سيُعوِّضهم ما يظنونه نقصاً.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٩٦.

بصائر وأحكام

إن الإحسـاس بالنعمـة ومعرفتها، بمثابة الخطـوة الأولى لإيفاء الشُّـكر؛ وإذا بلغ المرء مرتبة الشُّـكر يكون قد تخلَّـص إلى حدٍّ كبير من آفة الشرك.



لعلهم ينصرون

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشِّرْكِ شَيْءٌ، فَلَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ»[1].

تفصيل القول

هـذه الكلمة القرآنيـة إدانة من لدن الله عز وجـل للمُشركين الذين عبـدوا غيره بـدلاً من أن يشـكروه على ما أنعـم عليهم، وهـم بزعمهم أن آلهتهـم المُزيَّفـة -أيّـا كان شـكلها- سـتنصرهم، في حين أن أمرهـم مُجانب للحقيقة تماماً، لأنهم هم الذين يُقدِّمون لآلهتهم المكانة بينهم والقيمة لديهم.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢٧، ص١٣٢.

فإذا قاموا بصنع صنم -مثلاً- ثم طافوا حوله وعبدوه، فإنهم هم الذين يُضْفُون عليه شيئاً من التقديس، فيما الصنم يبقى صنماً لا يُمكنه تقديم شيءٍ يُذكر لهم.

إنّ رفع حجاب الشرك وعدم اتِّخاذ الآلهة من دون الله، يُوصل إلى جنة الشُّكر.

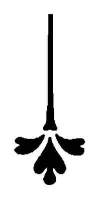
ويُشار إلى أن النص القرآني هنا، لم يقل (إلهاً) ذلك لأن طبيعة البشر لا تكتفي بإلهٍ واحد، وإنما يسعون إلى اتِّخاذ آلهة مُتعدِّدة، كإله الليل، وإله النهار، وإله التجارة، وإله الحرب، وغيرها.

إن في البشر إحساساً -كاذباً- بالضعف، ولكن الله تعالى يكشف لمخلوقه الإنسان أنه قادر على الإمساك بزمام القوة اللا متناهية من خلال عبادته هو، والتحرُّر من جميع ما هو أسطوري مُزيَّف، لا سيما وأن الأسطورة والزيف عاجزان عن تقديم نوعٍ ولو بسيطٍ من النصر والقوة والدعم، وإنما الله تعالى وحده هو ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

بصائر وأحكام

رفع حجاب الشرك وعدم اتِّخاذ الآلهة من دون الله، يُوصل إلى جنَّة الشُّكر.

(١) سورة الأنفال، آية ٤٠.



لا يستطيعون نصرهم

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

***

من الحديث

رُوي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ يقول: «﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الآلِهَةُ لَهُمْ نَصْراً، ﴿وَهُمْ لَهُمْ﴾ أي الآلِهَةُ ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في دعاء له في قنوته: «خَابَ مَنِ اعْتَمَدَ سِوَاكَ، وَخَسِرَ مَنْ لَجَأَ إِلَى دُونِكَ، وَذَلَّ مَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِكَ، وَافْتَقَرَ مَنِ اسْتَغْنَى عَنْكَ»[2].

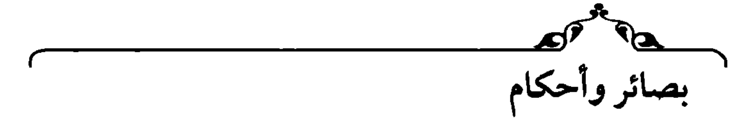
---

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٢١٧.
(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٨٢، ص٢١٩.

تفصيل القول

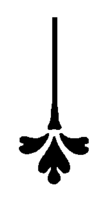
إن المشركين وغير الشاكرين هم بمثابة الجنود الخاضعين المُطيعين المُستعدِّين أبداً لإبداء الخدمة. هذا في حين أن الآلهة من دون الله العزيز العليم، لا يصدر عنها أيّ نوع من النصر والنفع.

ويبدو أن المُراد من كلمة الآلهة ليس مُجُرَّد الأصنام الحجرية، وإنما أيضاً الطُّغاة الذين يشرك بطاعتهم البعض ويتصوَّرون أن لهم حولاً وقوة، بينما أولئك الظلمة يستمدون قوتهم من طاعة هؤلاء لهم؛ ولو أنهم رفضوهم وتمرَّدوا على طاعتهم، لم يبقَ لديهم أي حول أو قوة، ويظهر ذلك بوضوح عندما يثور الشعب ضد الطاغية، كيف يُصبح ذليلاً تافهاً.



بصائر وأحكام

إن الآلهة من دون الله العزيز العليم لا يتأتّى منها أيُّ نوع من النصر أو النفع، بل العكس إنّ الذين يعبدونهم هم الذين يُعطونهم القوة.



فلا يحزنك قولهم

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

* * *

تفصيل القول

هل قال أولئك شيئاً كان يقتضي حزناً عند الرسول والذين آمنوا معه؟.

أولاً: إنّ مُجرَّد اتِّخاذ الآلهة من دون الله، وهم عادة الطُّغاة والجبابرة والذين يتسلَّحون بكل ما يُمكنهم من وسائل المكر والطيش، إنه يقتضي حزناً عند الرساليين، بل وخشيةً وخوفاً.

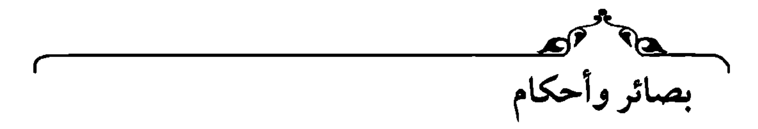
ثانياً: يتسلَّح أهل الباطل عادةً بالدِّعاية وتزييف الحقائق، ممَّا يقتضي حزناً عند المؤمنين لما يرون فيه من ظلم فاحش للعباد، حيث يُحْرَمُون من موقف الحق. وعلى المؤمن في هذه الحالة أن يُفوِّض أمره إلى الله سبحانه؛ ذلك لأن المؤمن عندما يتذكَّر عظمة الرَّبِّ بعلمه

وتدبيره وواسع قدرته على المسرح الاجتماعي كله، فإنه يُفوِّض أمره إلى الله سبحانه وكفى بالله وكيلاً.

والدَّاعي إلى الرسالة يأتمر بأوامر ربِّه ويُجاهد من أجله والله مُحيط به علماً، فلماذا الحزن من الأعداء وربُّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1]؟

وجاءت الآية بصيغة الجمع المُؤكَّد ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ ليزداد المؤمن سكينة.

إن الحرب النفسية التي يَشُنُّها أولياء الشيطان ليست بأقل من الحرب الساخنة، وإذا استطاع المؤمنون الانتصار في الأولى فإنّ فرص نصرهم أكبر بإذن الله في الثانية.



بصائر وأحكام

عندما يتذكَّر المؤمن عظمة الرَّبِّ بعلمه وتدبيره وواسع قدرته على المسرح الاجتماعي كله، فإنه يُفوِّض أمره إلى الله سبحانه وكفى بالله وكيلاً. وهكذا يتجاوز حاجز الحزن وينشط في دعوته إلى الله برغم جحود الكفار.

(١) سورة محمد، آية ٧.



فإذا هو خصيم مبين

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِلشَّاكِّ فِي قُدْرَةِ الله وَهُوَ يَرَى خَلْقَ الله، وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِلْمُكَذِّبِ بِالنَّشْأَةِ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى، وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بِدَارِ الْخُلُودِ وَهُوَ يَعْمَلُ لِدَارِ الْغُرُورِ، وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِلْمُخْتَالِ الْفَخُورِ الَّذِي خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ يَصِيرُ جِيفَةً وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَا يَدْرِي كَيْفَ يُصْنَعُ بِهِ»[1].

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٤٢.

تفصيل القول

١- ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾

كي تتكامل النُّطفة المُتناهية في الصغر حتى يجعل الله منها إنساناً يتميّز بالخصومة في أعلى المستويات، إننا بحاجة إلى طي مسافات مُتعدِّدة شاسعة. ومن دون نعم الله سبحانه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، أنّى لتلك النُّطفة التي يستقذرها البشر أن تبلغ مستوى من الكمال، والذي قد يبعث فيه حدًّا من الغرور يجعله يخاصم ربَّه؟ الله أكبر.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أنت وأنا ونحن وكل إنسان، هكذا جاء التعبير باعتبار أن كلمة الإنسان حين تُذكر فإنها تعني أن مقتضى حالة البشر هو هذه الصفة التي ذُكِرت هنا، وفي كل موقع تُستخدم هذه الكلمة كقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[1].

وحينما قال ربُّنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فإنه يهدينا إلى أن هذه الحقيقة فيها من الوضوح ما يجعل كل إنسان يحسُّ بها ليعلم أن حالته الآن كخصيم مُبين لا تُقاس بحالته الأولى كنطفة، ولعله بذلك يعرف نعمة ربِّه عليه فيخرج من سبات الغفلة. ثم قال ربُّنا سبحانه:

٢- ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

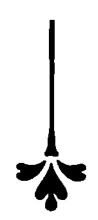
هل كل إنسان خصيم مُبين؟ هل بلغ الغرور بالإنسان مستوى يخاصم ربَّه الذي خلقه من نُطفة؟ بلى؛ كل إنسان فيه هذه الغريزة، فَمَنْ كَبَحها بالتقوى فذاك، وإلَّا وقع فريستها وأخذ يُجادل ربَّه، ولا يتذكَّر أن كل هذه النعم التي اغترَّ بها هي أساساً من ربِّه؛ أفلا يشكره

(١) سورة العلق، آية ٦-٧.

أم أن شكره يتمثَّل في مجادلته؟ كلَّا؛ إنه لظلوم كفّار.

بصائر وأحكام

كل إنسـان فيه غريـزة الخصومة، فَمَـنْ كَبَحهـا بالتقوى فذاك، وإلَّا وقع فريستها وأخذ يجادل ربَّه، وبئس المصير.



من يحيي العظام وهي رميم؟

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾.

* * *

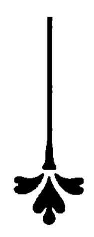
تفصيل القول

المَثَلُ جزء من الحقيقة يكون أوضح من غيره لسبب أو آخر، وعندما يتَّخذ الإنسان من عظم رميمٍ مَثَلاً لبيان مدى جهله بكيفية إعادته إلى الحياة، فإنه يزعم أنه قد استوعب شروط المثل، حيث إنّ العظم آخر ما يفنى من جسد البشر بعد الموت، فإذا أصبح رميماً فماذا يبقى منه؟.

ولكن لماذا نسي نفسه؟ ألم يكن نُطفة فجعله خصيماً مُبيناً؟. والقادر على أن يخلق من نُطفة خصيماً مثله، أَوَلَيس بقادر على أن يُعيده؟.

بصائر وأحكام

لماذا نسي الإنســان نفسه، ألم يكن نُطفة فنمّاه حتى أصبح خصيماً مُبيناً؟ والقادر على أن يخلق من نُطفة خصيماً مثله، أَوَلَيس بقادر على أن يُعيده تارة أخرى؟



يُحييها الذي أنشأها أول مرة

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

* * *

من الحديث

سأل زنديق من الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن البعث قائلاً: «وَأَنَّى لَهُ (للروح) بالْبَعْثِ وَالْبَدَنُ قَدْ بَلِيَ، وَالْأَعْضَاءُ قَدْ تَفَرَّقَتْ؛ فَعُضْوٌ بِبَلْدَةٍ يَأْكُلُهَا سِبَاعُهَا، وَعُضْوٌ بِأُخْرَى تَمْزِقُهُ هَوَامُّهَا، وَعُضْوٌ قَدْ صَارَ تُرَاباً بُنِيَ بِهِ مَعَ الطِّينِ حَائِطٌ؟

قَالَ: إِنَّ الَّذِي أَنْشَأَهُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، وَصَوَّرَهُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ كَانَ سَبَقَ إِلَيْهِ، قَادِرٌ أَنْ يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ»[1].

* * *

(١) الاحتجاج، الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، ج٢، ص٩٧.

تفصيل القول

هل الإنشاء لأي شيء أهون صنعاً أم إعادة ما أُنشئ سابقاً؟

عند ربِّنا سواء، لأن قدرته واسعة، ولكن الإعادة بذاتها أهون في واقع الحال، وعندنا نحن البشر الجاهلين، فلماذا نستبعدها؟

قال ربُّنا:

١- ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

وهذه الكلمة تدل على وجود الإنسان في موقعٍ مّا من ملكوت السماوات والأرض؛ فالروح مع الأرواح، وأجزاء الجسد مع سائر المواد، ولكن يبقى السؤال: حين تُرفع روح هذا الفرد بين أعداد هائلة من الأرواح لأناس كثيرين، ثم إن المواد قد تبعثرت في عالم المادة وذرَّاتها في آفاق شتى؛ فَمَنْ يُعيد كل ذرة إلى صاحبها؟ إنه هو الله الذي يُحيط علماً بكل شيء.

قال ربُّنا سبحانه:

٢- ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

وفي آية كريمة أخرى قال ربُّنا سبحانه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾[1].

فكتاب ربِّنا يحفظ ما تنقص الأرض من ذرَّات الجسد، وعند الساعة يُعيدها إليه كيفما شاء الله سبحانه، أَوَلَمْ يَقُلْ ربُّنا سبحانه في مطلع هذه السورة المباركة: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؟

(١) سورة ق، آية ٣-٤.

بصائر وأحكام

كتـاب ربِّنـا يحفظ مـا تنقـص الأرض من ذرَّات الجسـد، وعند الساعة يُعيدها إليه كيفما شاء الله ربُّنا سبحانه.



جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

***

من الحديث

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ قال: «أَيْ إِذَا أَكْمَنَ النَّارَ الحَارَّةَ فِيْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ الرَّطْبِ ثُمَّ يَسْتَخْرِجُهَا، فَعَرَّفَكُمْ أَنَّهُ عَلَىٰ إِعَادَةِ مَا بَلِيَ أَقْدَرُ»[1].

تفصيل القول

قدرة الله وعلمه وسائر أسمائه الحسنى لا مُتناهية إلى درجة لا يُمكننا الإحاطة بها علماً، ولكن هل يعني ذلك إعفاءَنا من التفكُّر فيها؟

(١) الاحتجاج، الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، ج١، ص١٥.

لعلنا نبلغ علماً ببعض مراتبها، كلٌّ حسب وسعه. بلى؛ إذا أراد البشر أن يعي نفسه والعالم المُحيط به فلا بد أن يعرف ربَّه. وكيف يعرف ربَّه؟ أليس بأسمائه؟ وهي بدورها تُعرف عبر النظر، ثم التفكُّر في آياته.. وكلما زادت معرفة الرَّبِّ بآيات الله وأسمائه، زاد إيماناً به وسموًّا في درجات التقوى واليقين بإذن الله سبحانه.

إن من أبرز دعائم الإيمان هو استحضار البشر أجواء الساعة وما فيها من حساب وعتاب، وثواب وعقاب. وكلما كان هذا الاستحضار أنقى وإعمق، كان الإيمان أسمى. وهكذا ينبغي التدبُّر في آيات القرآن الكريم فيما يرتبط بالتذكرة بأسماء الله الحسنى، ومن أبرزها قدرته وعلمه وحكمته. قال الله سبحانه:

١- ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾

إننا نتصوَّر بادئ ذي بدء أن الخشب بذاته مادة للاشتعال؛ وليس الأمر كذلك، بل المادة ما في الخشب من وقود اكتسبها الخشب من الشمس. وهكذا حين جعل الله في الشجر الأخضر مادة قابلة للاشتعال، إذا نظرنا إلى الأمر بدقة نجد أن وراء هذا المنظر الخلَّاب للشجر الأخضر مواد سريعة الاشتعال.

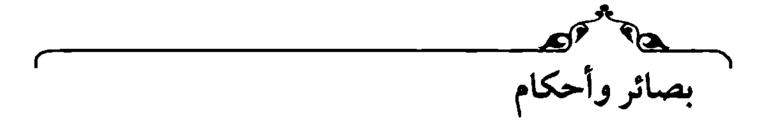
٢- ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

إن الذي جعل هذه القوة الباطنة في الشجر، هو الذي بيده ملكوت كل شيء، فهو قادر على إظهار حقائق مستورة عنا، كما يجعل مثلاً في الحجر ناراً تتَّقد عند الاصطدام ببعضه كما قال سبحانه: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

(١) سورة العاديات، آية ٢.

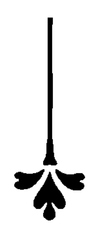
حينما نستفيد من الشجر الأخضر ونُوقده ناراً نعرف أن هناك تحوُّلاً كبيراً حدث فيه عند الاحتراق.

بلى؛ إننا شاهدنا الحرارة تخرج من الشجر وتنتشر في الفضاء، كما نجد أن الأرض انتقلت بأمر الله إلى الحياة.. فهذه الدورات التي تنقلب فيها القوة المخلوقة أمام أعيننا بانتظام، ألا تهدينا إلى دورة أخرى في تحوّل البشر من النطفة إلى إنسان خصيم، ومنه إلى عظمٍ رميمٍ، ومن ثم إلى حياة جديدة، يُحاسَب فيها ثم يُجازى؟.



بصائر وأحكام

إن من أبرز دعائم الإيمان استحضار البشر أجواء الساعة وما فيها من حساب وعتاب، وثواب وعقاب. وكلما كان هذا الاستحضار أنقى وأعمق، كان الإيمان أسمى.



هو الخلاق العليم

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾.

***

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ إِذَا كَانَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْظَمَ وَأَبْعَدَ فِي أَوْهَامِكُمْ وَقُدَرِكُمْ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِ مِنْ إِعَادَةِ الْبَالِي، فَكَيْفَ جَوَّزْتُمْ مِنَ اللهِ خَلْقَ هَذَا الْأَعْجَبِ عِنْدَكُمْ وَالْأَصْعَبِ لَدَيْكُمْ وَلَمْ تُجَوِّزُوا مِنْهُ مَا هُوَ أَسْهَلُ عِنْدَكُمْ مِنْ إِعَادَةِ الْبَالِي؟»[1].

(١) الاحتجاج، الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، ج١، ص١٥.

تفصيل القول

من المحاور الأساسية في هذه السورة الكريمة، كما في سائر السور القرآنية، التذكرة بالرسالة وباليوم الآخر. وها هي السورة تتشارف على الختام، وهكذا تعود لِتُذكِّرنا بالبعث بعد الموت، وأن المشكلة البشرية الكبرى في الأذهان تجاه الآخرة تتمثَّل في التشكيك، وأنه كيف يبعث الله الخلق من جديد؟ فنحن نرى الإنسان ونلمس موته، ونعرف كيف يُولد، ولكننا لا نرى كيف يُخلق هذا الإنسان من جديد وينال جزاءه على أعماله؛ فكيف نُؤمن بذلك؟

يُذكِّرنا ربُّنا تعالى أن الإنسان غافل عن آياته، وأنه لا يتفكَّر في آياته ولا ينتفع بها ولا يعتبرها علامة على الحقائق ليعرف بها ومن خلالها أسماء الله سبحانه وتعالى. في حين أن النظرة ينبغي أن تكون نظرة عبرة؛ لا سطحية جامدة، فيتجاوز ظاهر الآيات ليصل من خلالها إلى المعرفة الأسمى.

إن معضلة البشر هي أنهم يرون الشمس -مثلاً- فيسجدون لها، في حين ينبغي أن يتساءلوا عمَّن خلقها.. ذلك لأنهم يفتقرون إلى نظرة العبرة، ولأنهم لا يعرفون الخالق، يعجزون عن معرفة النبي وعن الإيمان بالقيامة، لأن أصل جميع المعارف الإلهية، الإيمان بالله تعالى وأسمائه الحسنى.

ومن لا يؤمن بالله العظيم، لا يؤمن حتى بنفسه.

قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الحشر، آية ١٩.

أي: إنّ من يغفل عن ربِّه قد يغفل عن نفسه أيضاً؛ لأن أول العلم ووسطه وآخره وحقيقته معرفة الله سبحانه.

ومتى ما كشف ابن آدم حقيقة كونه جاهلاً ضعيفاً محدوداً، آمن بالله ربِّه المتعال. وإنما يكفر بالله مَنْ يكفر به، لأنه يظن نفسه عالماً قويًّا لا حدود له، وبالتالي يظنّ أنّه بحدٍّ ذاته ربٌّ من الأرباب؛ أعوذ بالله.

ولكن إحدى الآيات الظاهرة الدالة على أسماء الخالق المتعال، خلقه السماوات والأرض. ولكن ما هي هذه السماوات؟

أحد وجوه تفسيرها أنه كما قسَّموا الأرض إلى سبعة أقاليم، فإنهم قد قسَّموا السماء إلى سبعة أقاليم، و(سبع سماوات) تعني السماوات التي كان لكل منها أقاليمها السبعة، التي أشار إليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: «**وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ**»[1].

ووجه آخر في البين يُشير إلى أنّ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يُراد به التعبير عن وسعها ولا تناهيها على وجه المجاز.

ثم إن الله تبارك وتعالى فيّاض حكيم، وهو في حالة خَلْقٍ دائم، وهو ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ولعله في كل لحظة من لحظاتنا يخلق مئات الشموس مثل شمسنا أو أكبر منها بما لا يُعدّ ولا يُحصى.

وهناك من ارتأى إرجاع ضمير الجمع في كلمة ﴿مِثْلَهُمۚ﴾ على البشر، ليكون المعنى أن الله تبارك وتعالى قادر على أن يخلق بشراً آخرين مثل أولاد آدم، لأنه غير عاجز عن مواصلة عملية الخلق أبداً، ولأن الذي خلق السماوات والأرض لا يعوقه عائق عن أن يخلق بشراً

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٢٤.

آخرين.. وكذلك هو قادر على أن يخلق مثل ما في السماوات والأرض من ملائكة وخلائق أخرى نحن لا نعلمهم بالمرة.

ويبدو أن كلمة ﴿مِثْلَهُمْ﴾ تدل على مجمل صفات البشر من كونهم موجودين أحياء، وفيهم القدرات المعروفة من علم وإرادة، وفي أجسامهم من آيات الخلق ما فيها. إن كل هذه الصفات ليست بحيث يستحيل على الله خلقها، لأنه خلق ما هو أعظم منها في نظر الناس من أرض وسماء وشمس وقمر وكواكب ونجوم.. وهذا التعبير مثل أن نقول: مِنْ مثلك لا يعقل هكذا فعل؛ أي إن الصفات المتوفرة فيك تمنعك من ذلك. وقوله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] فالمثل هنا للدلالة على ما في الإنسان من أركان خلقه وصفاته وما أشبه.

﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾، نعم؛ إن الله تبارك وتعالى خلّاق. وهذه الصيغة تدل على المبالغة؛ ولعل معناها أنه تعالى في حالة خلق متواصل.

وهو عليم بكل ما يخلق؛ أي إن خلقه يكون على أساس العلم والحكمة. فهو لا يخلق لمجرَّد الخلق، وهو لا يخلق لهواً وعبثاً.. إنما يخلق ويعرف ما يخلق، وليس ربُّنا هو كالعين الجارية التي تفيض ولا تدري إلى أين يذهب ماؤها. كلّا؛ إنه سبحانه لا يخلق وهو نائم فتخرج عنه المخلوقات دون أن يدري. إنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[2]، فليس خلقه ولادة منه.

سؤال: ترى هل يُمكن أن تكون هذه الآية الشريفة وما سبقها من قوله الجليل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ جواباً و ردًّا على بعض

(١) سورة الشورى، آية ١١.
(٢) سورة الإخلاص، آية ٣.

الشبهات، مثل شبهة (الآكل والمأكول)، أو الشبهة القائلة بأن الله لدى عمليات خلقه المتواصلة يستوجب إحساسه بالاضطراب والازدحام، عدم علمه بما يخلق؟

بلى؛ إنّ النص القرآني يُفنِّد كل هذه الأباطيل، فالله مع كل عظمته اللا متناهية عالم بالعلم التَّامِّ بما يخلق، مهما تناهى في صغر الحجم.

ولنقل: إن هذه القطعة من الآية الشريفة قد نزلت للرد على كثير من الشبهات الفلسفية التي لا تُوائم العدل والحكمة والعقل، بما فيها القول بأن الله عز وجل مُجبَر على الخلق، وإن مجبوريته تنتهي إلى الجهل بما يخلق، والعياذ بالله.

ولمناسبة ورود كلمة ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ أقول -كما نوهت سلفاً-: إن العلماء والمُحققين في علم الفيزياء الحديث حينما تقدَّموا لكشف بداية الخليقة، وصلوا إلى النتيجة أدناه.

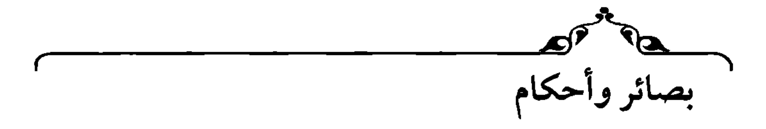
قبل خمسة عشر مليار سنة، وفي لحظة واحدة، وقع انفجار عظيم وبدأت الخلقة. ولكي نتصوَّر تلك اللحظة، قالوا: إذا قَسَّمنا الثانية الواحدة على العدد عشرة بقوة أربعين (أي: نضع أربعين صفراً أمام العدد واحد) سيكون الحاصل متناهياً في الصغر من الثانية الواحدة، وهو لحظة حدوث الانفجار العظيم، ويقال لتلك اللحظة: (زمن الصفر)، أي الزمن الأقرب إلى الصفر.

ولقد سمعنا مؤخراً عن الميكرو ثانية أو النانو ثانية، وهو رقم يعادل واحداً من مليون جزء وواحداً من مليار جزء من الثانية. ومن الصعب جدًّا علينا أن نتصوَّره، ولكن هذه اللحظة أصغر وأقل من عشرة آلاف مليار مليار مليار من نانو الثانية، وقد وقع فيها الانفجار حيث خلق الوجود.

وقـد ذكروا أن عالمين بلجيكيين في الفيزيـاء أرادا أن يعرفا تلك اللحظة وكيف تمَّت، ففكّرا وفكّرا وانشـغلا بأجهزة الحاسـوب الأكثر دقة في العالم، ولكنهما خرجا من غرفتهما مجنونين!

وهذان لم يطلبا سـوى تصوُّر مخلوق الله تعـالى، فَجُنَّا، فماذا كان سيحدث لهما لو أنهما أرادا تصوُّر الخالق نفسه؟

ثـم إن جميـع الفيزيائيـين في العـالم بعد ذلك، رسـموا خطًّا أحمر لأنفسـهم وقالوا: لا يقرب أحد من منطقة (اللحظة الأولى)، وأطلقوا عليهـا كلمة (الجدار الأسـود). أي: حين تصل إلى هنـا، لا تُفكِّر، لأن دماغك سيتعطَّل.



بصائر وأحكام

١ - إن الله تبـارك وتعـالى خالـق وخـلَّاق، وقد يكـون في حالة خلق متواصل.

٢- وهـو عليم بكل مـا يخلق؛ أي إن خلقته تكون على أسـاس العلـم والحكمة. فهو لا يخلـق لمجرَّد الخلق، وهو لا يخلـق لهواً وعبثاً، ولا يفيـض الخلـق منـه كما المولود يخـرج من رحـم أمه أو المـاء يتدفَّق مـن العـين ودون أن تعرف العين إلى أين يذهـب ذلك الماء، ولا كمثل الشعاع ينبعث من الشمس، ولا حتى كمثل الفكر ينبعث من النفس.. كلَّا؛ إنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.



كن فيكون

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له عن الله تعالى: «**يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: كُنْ فَيَكُونُ لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ**»[1].

وروي عن صفوان بن يحيى قال: «قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِرَادَةِ مِنَ اللهِ وَمِنَ الْخَلْقِ.

قَالَ: فَقَالَ: **الْإِرَادَةُ مِنَ الْخَلْقِ الضَّمِيرُ وَمَا يَبْدُو لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْفِعْلِ. وَأَمَّا مِنَ اللهِ تَعَالَى فَإِرَادَتُهُ إِحْدَاثُهُ لَا غَيْرُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرَوِّي وَلَا يَهُمُّ وَلَا يَتَفَكَّرُ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ مَنْفِيَّةٌ عَنْهُ، وَهِيَ صِفَاتُ الْخَلْقِ. فَإِرَادَةُ**

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٦

اللهِ الْفِعْـلُ لَا غَيْرُ ذَلِكَ يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ، بِلَا لَفْظٍ وَلَا نُطْقٍ بِلِسَـانٍ وَلَا هِمَّةٍ وَلَا تَفَكُّرٍ وَلَا كَيْفَ لِذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ لَا كَيْفَ لَهُ»(١).

تفصيل القول

حـين نتحـدَّث في إطار العبـارة، فإننـا لا نجد عبـارة أقرب إلى الحقيقة من عبارة هذه الآية الجليلة. فخلَّاقية الله وأمره يقع بين الكاف والنون. فما لم ينطق بالكاف لا تكون الخلقة، ولكن لا يلزم بلوغ النون لتحقُّق الإرادة ويُخلق الشيء المُراد، إنما الإرادة هي الإرادة.

ولكن ما هي؟. وكيف؟.

يبدو أنه فيما يتَّصل بربِّنا سـبحانه فإن جميع الكلمات التي يحويها القـرآن المجيد والروايات الكريمة عن رسـول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام؛ كلمات عاجزة عن اسـتيعاب الحقائق؛ ذلك لأن اللغة وما فيها مـن الألفاظ قد وُضعت في حـدود عقول البشر. وحينما نُريد أن نتعالى إلى مقام الربوبية ونُريد أن ننسـب أمراً أو فعلاً إلى الله سـبحانه وتعالى، فإننا لا بدّ أنْ نكتفي بما نُدركه نحن ونفهمه.

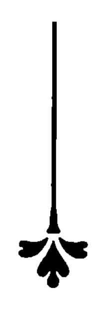
فمثـلاً حينما نقول: إن الله تعـالى يُحبُّ ويبغض ويُريد.. علينا أن نكتفـي من العبـارة والمفهوم بـما نُدركه ونكتفي به، وهـو معرفة نتائج الحُـبّ، وغايات البُغْض، ومقتضيـات الإرادة.. وليس أننا نُحيط علماً بحقيقة حُبِّه وبُغْضه وإرادته. فلا نتوقَّع من الألفاظ أن تُوصلنا إلى أبعد من ذلك.

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص١٠٩-١١٠

بصائر وأحكام

خلَّاقية الله وأمره يقع بين الكاف والنون. فما لم ينطق بالكاف لا تكـون الخلقة، ولكن لا يلزم بلوغ النـون لتحقُّق الإرادة ويخلق الشيء المراد، إنما الإرادة هي الفعل.



وإليه ترجعون

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

* * *

من الحديث

قـال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له في تمجيد الله عـز وجل: «**وَلَا يَسْـبِقُكَ مَنْ طَلَبْـتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ مَـنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُـلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيـدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ. كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَـهَادَةٌ. أَنْتَ الْأَبَدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى فَلَا مَحِيـصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ. بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ**»(١).

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٠٩.

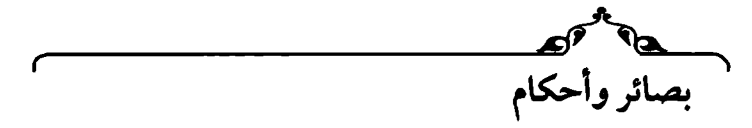
تفصيل القول

إذا أردنـا ذكر أسـماء الله الحسـنى، قلنا: خلَّاق، عليـم، فعَّال لما يشـاء، آمر، وأمرُه ﴿كُن﴾ وإرادته نافذة، فنُسبِّحه ونُقدِّسه، ولا نتوهَّمه ونتخيَّله، ولا نقول: إنّ له لسـاناً ينطق به كلمة ﴿كُن﴾.. لأن قوله غير قولنا، وطريقة إرادته غير طريقة إرادتنا.

﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

ملكـوت كل شيء، وحقيقـة ملكيّتـه، وجوهـر وجـوده، بيـده سبحانه وفي إطار علمه وقدرته.

والملكوت مشتق من الملك، وهو مبالغة فيه؛ أي إن له الإحاطة بـكل شيء على وجه الشـمول لكل ما يملك، حتى أن مسـتقبل الخلق بيـده ولا ينفرط عقد هـذا الخلق من بين يدي إرادتـه، فهو الملك الحق سبحانه وتعالى عمَّا يُشركون. وإذا عرفنا بعض آماد قدرة الرَّبِّ وبعض أبعـاد علمـه وحكمتـه، نـزداد عرفانـاً بواقـع الرجعـة الموعـودة إليه، وبالإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء قد نزداد تقوى بإذن الله.



بصائر وأحكام

إن القـدرة الحقيقية عـلى كل شيء، وإن جوهر ملكيَّة كل شيء، بيد الله سبحانه وتعالى، وإليه النشور.